حكايات إيرانية

القصة القصيرة فى الأدب الفارسى

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

اختيار وترجمة ودراسة

عبد الوهاب علوب

627



يبدأ الكتاب بدراسة عن ماضى القصص القصيرة والذى يتمثل فى شكل "الحكاية" الكلاسيكية المعروفة فى الأدب الفارسى باعتباره جزءا من آداب المشرق الإسلامى. كما يقدم الكتاب خلفية ودراسة عن ظهور فن المقامة فى الأدب الفارسى وكيف تطورت عنه الحكاية الكلاسيكية لتصل فى القرن العشرين إلى مزيج جديد من القصص يجمع بين عناصر المقامة والحكاية وقواعد القصة القصيرة الأوروبية ، ما أسفر عن شكل من القصص القصيرة ذى طابع إيرانى متميز. كما تتعرض الدراسة لتاريخ ظهور القصة بصورتها الأوروبية الحديثة فى العقد الثالث من القرن العشرين.

الغلاف: نجلاء فتحي

المشروع القومى للترجمة

حكايات إيرانية

القصة القصيرة فى الأدب الفارسى

اختيار وترجمة ودراسة
عبدالوهاب علوب



المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٦٢٧
- حكايات إيرانية
- دراسة ونماذج
- عبد الوهاب علوب
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٢

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

المحتويات

تقديم

تعد القصة القصيرة من أخصب ميادين الأدب الفارسى المعاصر ولو أنها كنوع أدبى لم تلق بعد ما تستحق من دراسة من جانب الباحثين والمتخصصين، وحظى هذا النوع الأدبى فى العقود الأخيرة بشعبية كبيرة سواء لدى كُتَّاب القصة أو قرائها. وربما أمكن القول إن شعبية القصة القصيرة فى إيران تكاد توازى الشعبية التى حظى بها الشعر لقرون عديدة، مع أنها لم يمض على تطورها إلى نوع أدبى مستقل فى الأدب الفارسى سوى بضعة عقود من السنين .

يبدأ الكتاب بدراسة عن ماضى القصص القصير، والذى يتمثل فى شكل "الحكاية" الكلاسيكية المعروفة فى الأدب الفارسى باعتباره جزءاً من آداب المشرق الإسلامى ، كما يقدم الكتاب خلفية ودراسة عن ظهور فن المقامة فى الأدب الفارسى، وكيف تطورت عنه الحكاية الكلاسيكية لتصل فى القرن العشرين إلى مزيج جديد من القصص يجمع بين عناصر المقامة والحكاية وقواعد القصة القصيرة الأوروبية ، مما أسفر عن شكل من القصص القصيرة ذات طابع إيرانى متميز، كما تتعرض الدراسة لتاريخ ظهور القصة القصيرة بصورتها الأوروبية الحديثة فى العقد الثالث من القرن العشرين .

كما يضم الكتاب فى هوامشه ونهايته نبذاً عن كُتَّاب القصة القصيرة ممن ورد ذكرهم فى المقدمة وقائمة بأعمالهم فى مجال القصة القصيرة .

ويجدر بنا أن ننوه إلى مصطلحى : "الأدب الشرقى" و" أدب المشرق الإسلامى" اللذين استعنا بهما فى المقدمة، ونقصد بكل منهما الأدب فى بيئته الشرقية الإسلامية، أى ما يشمل الآداب العربية والفارسية والتركية والأردية وغيرها من آداب العالم الإسلامى على اختلاف لغاته .

وفى ترجمتنا للقصص التى يتضمنها الكتاب اتبعنا أسلوب القصة الأصلية نفسه ، فما ورد بالفارسية الفصحى ترجمناه بالعربية الفصحى، وما ورد بالعامية الإيرانية -وهو غالبًا الحوار بين الشخصيات - ترجمناه بالعامية المصرية، وذلك بغرض نقل القصة بروحها ولغتها ومستوى الخطاب فيها.

وسبق أن نشرنا كتابًا بعنوان "القصة القصيرة والحكاية فى الأدب الفارسى" (الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣) ولكن سرعان ما نفدت طبعته. وها نحن ذا نقدمه من جديد بعد إضافة عدد آخر من القصص القصيرة لعدد آخر من أدباء إيران. والرجاء أن يكون هذا العمل إسهامًا متواضعًا فى دراسة هذا النوع الأدبى المتميز فى الأدب الفارسى وعونًا لغيرنا من الباحثين، والله المستعان .

عبدالوهاب علوب

(١)

القصة القصيرة والحكاية

لم تكن القصة القصيرة فى الحقيقة تمثل فنًا جديدًا على الآداب الإسلامية حين وردت فى صورتها الأوروبية مع مطلع القرن العشرين. وما القصة القصيرة الحديثة إلا شكلاً متطورًا للحكاية الشرقية التى نجدها فى كثرة من الأعمال الأدبية فى الآداب الشرقية منذ القدم، إلا أن النقطة التى يجب أن نركز على مضمونها هى أن الحكاية بصورها الشرقية العديدة - الشعرى منها والنثرى - لم تتطور باعتبارها جنسًا أدبيًا مستقلاً، وإنما اتخذت أنماطًا مختلفة أبرزها فن المقامة. وما كتاب ألف ليلة وليلة إلا مجموعة من الحكايات والقصص القصيرة فى مرحلة من مراحل تطورها.

إذا عدنا إلى آداب الشرق القديم وكتبه المقدسة، نجد أمثلة وفيرة على القصص النثرى القصير. وفى الأدب المصرى القديم نجد أقدم نماذج القصص القصير كقصة سنوحى أو قصة البحار وسفينته المحطمة والتى كتبها المصريون فى الألف الثانية قبل الميلاد. وتعد هذه

القصص المصرية القديمة إبداعًا أدبيًا صرفًا له قيمة جوهرية هى التسلية. وإذا تقدم بنا الزمن قليلاً، نجد التوراة تحفل بنماذج من القصص النثرى القصير، كقصة يوسف (سفر التكوين) وقصة شمشون (سفر القضاة) وغيرهما، ولو أن هذه القصص لم تعرض كإبداع أدبى خيالى ولا كإسهام فنى قصصى؛ بل يفترض أنها صحيحة تاريخيًا ولها غرض تعليمى صريح يعرض حكمة الله على البشر (Reid, p. 15). وكذلك فى القرآن نجد وفرة من القصص التى يفترض أيضًا أنها صحيحة تاريخيًا ولها نفس الغرض التعليمى، كقصص نوح والطوفان، يوسف وامرأة العزيز، وذى النون، وغيرها.

وهذه الحكايات وإن لم تعرض كإبداع أدبى فإنها تضم مقومات قصصية جوهرية تجعل من كل منها كلاً متكاملاً أو وحدة قصصية كاملة الأبعاد. كما أنها تختلف عن القصص الأسطورى الذى يتناول موضوعات تنتمى إلى ما وراء الطبيعة، كقصص الآلهة والشياطين والغيبيات وما وراء الواقع.

وهناك بالطبع اجتهادات كثيرة بصدد وضع أطر محددة تقريبًا لكل نوع قصصى، إلا أن هذه الاجتهادات تعتمد فى معظمها على ما جرى العرف عليه. يقول يان ريد فى هذا الصدد:

«باستثناء ما ذكر (عن القصص الأسطورى عن الآلهة والشياطين)، يمكن القول : إن مصطلح "قصة قصيرة" فى الاستعمال الشائع ينطبق على أى نوع من السرد القصصى النثرى الخيالى أقصر من الرواية» (Reid, p. 9).

ويحق لنا بالطبع أن نتساءل : وما الرواية ؟ إلا أن الكاتب يقصد في عبارته هذه ما جرى العرف على تسميته «رواية».

ونعود إلى القصة القصيرة فنقول : إن لافونتين الشاعر الفرنسي (١٦٢١-١٦٩٥) في «حكاياته» الرمزية على لسان الحيوان لا يفرق بين مصطلحي : nouvelle (قصة) و conte (حكاية). فأطلق على مجموعة من حكاياته الشعرية اسم «حكايات وقصص» Contes et nouvelles. وحين حاول أحد نقاد الأدب التفريق بين المصطلحين، قدم تعريفًا «للحكاية» يرى فيه أنه «جرى العرف على أنها أكثر تركيزًا وتضم «أحدوثة» واحدة رئيسة، في حين أن القصة nouvelle تتسم بأنها أكثر تعقيدًا وتضم عدة مشاهد (George, p. 239).

تطور الحكاية في أوائل القرن العشرين

مع مطلع القرن العشرين، برزت كتابات على أكبر دهخدا كتطور جديد على أسس قديمة راسخة. فجمع دهخدا بين أسلوب سعدى الجزل ولغته القوية وبين صورة أدبية جديدة تبنتها الصحافة التي كانت حديثة العهد حينذاك في إيران. كتب دهخدا مجموعة مقالات تحت عنوان جرند برند كعمود أسبوعي ثابت في صحيفة صور إسرافيل بين عامي : ١٣٢٥ و١٣٢٦هـ (١٩٠٧ -١٩٠٨م) بإمضاء «دخو» (الفلاح الساذج). وكانت هذه المقالات بمثابة حكايات قصيرة سخر الكاتب فيها من الظروف السياسية والاجتماعية لعصره بلغة قريبة من اللهجة العامية

وتعبيراتها أقرب إلى التعبيرات الدارجة على لسان الإيرانيين فى أسواق تهران وأزقتها. ويمكن القول : إن حكايات دهخدا تمثل حلقة فاصلة بين الحكاية التقليدية والقصة القصيرة الحديثة. ونسج دهخدا فى حكاياته بين الواقع القائم فى البلاد فى ذلك الوقت وبين الخيال القصصى لينتج عن ذلك المزيج صورة ساخرة كتبت بلغة أدبية شديدة التميز.

نخلص مما سبق إلى أن «القصة المختصرة» أو «الحكاية القصيرة» لم تكن جنسًا أدبيًا مستحدثًا فى الأدب الفارسى أو فى آداب الشرق الإسلامى بصورة أشمل؛ بل يمكن القول : إنها كانت تمثل واحدًا من أشد الأجناس الأدبية شيوعًا فى آداب الشرق ، بفارق أن الحكاية توزعت فى صور شتى، شعرية ونثرية وقصة وأقصوصة وخبر وما إلى ذلك من مصطلحات دون حدود حاسمة تفصل بينها وتميزها عن بعضها البعض . كما أن الحكاية تعد من أكثر الأشكال القصصية ذيوعا فى التراث الشعبى فى آداب المشرق الإسلامى؛ فتعد «الحدوتة» خير مثال على ذلك . وإذا كانت مصطلحات من قبيل « يُحكى أن ...» وما شابهها ميزت «الحكاية» فى الأدب «الرسمى» الشرقى، كانت ثمة تعبيرات شعبية أخرى مثل : «كان ياما كان» و«يُحكى أن...» فى العربية ونظيراتها فى الفارسية مثل : «يكى بود ويكى نبود ....» و«گويند كه...» تدل على بدء قصة شعبية تتداولها الأجيال.

يرى البعض أن الخيال الأدبى الإيرانى يبدى اهتمامًا خاصًا و«ارتباطًا إبداعيًا شديدًا» بالأجناس الأدبية «الموجزة» أو القصيرة (Zafarzade)؛ ويورد مثالاً للتدليل على قوله، وهو القصيدة الغزلية فى الأدب الفارسى الكلاسيكى ما تحويه من صور خيالية غنية.

وهكذا كانت الساحة مهيأة لاستقبال الصورة الحديثة من «الحكاية» التقليدية وهى «القصة القصيرة». بعبارة أخرى، جاء الاتصال بالآداب الأوروبية بإطار محدد لمضمون قائم بالفعل فى آداب المشرق الإسلامى. فكان ما حدث مجرد «تأطير» لهذا النوع الأدبى القديم ووضع قوانينه الأدبية. وعلى الرغم من هذا التطور الذى طرأ على «الحكاية» التقليدية، فلانزال نجد الأدباء فى المشرق الإسلامى، سواء من العرب أو الإيرانيين أو الأتراك، يكتبون القصة القصيرة فى شكل «الحكاية» التقليدية، بل نجد كاتبًا قصصيًا كجمالزاده مثلا يستخدم عبارة « يكى بود ويكى نبود...» (كان ياما كان...) عنوانًا لأولى مجموعاته من القصص القصيرة فى الأدب الفارسى .

ولا تكاد القصة القصيرة الحديثة فى آداب المشرق الإسلامى تخلو من عناصر المقامة والحكاية التقليديتين، سواءً من حيث البناء أو الحبكة أو الشخوص، كما سنرى فى تحليلنا لأول قصة قصيرة فارسية، وهى فارسى شكر است من مجموعة يكى بود ويكى نبود لمحمد على جمالزاده.

(٢)

القصة القصيرة الحديثة فى الأدب الفارسى

ظهرت «القصة القصيرة» بصورتها الأوروبية الحديثة وباعتبارها نوعًا أدبيًا مستقلاً فى الأدب الفارسى لأول مرة فى عام ١٣٤٠هـ/١٩٢١م. وكانت أول «قصة قصيرة» بالفارسية بهذا المفهوم فارسى شكر است التى كتبها محمد على جمالزاده (ولد ١٨٩٢) ونشرت على صفحات جريدة كاوه[١] التى كانت تصدر فى برلين. وعندما لاقت القصة نجاحًا بين الجالية الإيرانية ببرلين، أضاف اليها خمس حكايات أو «قصص قصيرة» أخرى ونشرهم فى مجموعة قصصية بعنوان : يكى بود ويكى نبود[٢] (كان ياما كان...) صدرت عن مطبعة كاويانى ببرلين. وهذه الحكايات الخمس الأخرى بعنوان:

رجل سياسى (رجل السياسة).

دوستى خاله خرسه (حب الدب لصاحبه).

درد دل ملا قربانعلى (أحزان الشيخ قربانعلى).

بيله ديگ بيله جغندر («كلٌ فى واديه»).

ويلان الدوله.

وقدم جمالزاده لهذه المجموعة القصصية بمقدمة أدبية مهمة عن فن الكتابة القصصية ومكانته المهمة بين فنون الأدب. واعتبر المؤلف هذا الفن الأدبى «وسيلة لتعليم العامة ولابتكار لغة أدبية محلية للأدب». ولا تقتصر أهمية هذه المقدمة الأدبية على تاريخ الأدب الفارسى الحديث، بل تتجاوزه إلى تحليل الصلات الأدبية بين الشرق والغرب، و رد فعل آداب المشرق تجاه تحديات القرن العشرين ومستحدثاته (Dargahi, p. 18). كما انتقد جمالزاده فى مقدمته هذه «النزعة التقليدية» فى الأدب، وركز على مكانة النوع الروائى باعتباره وسيلة لحفظ التراث اللغوى العامى والتعبيرات الدارجة. وألحق المؤلف بمجموعته القصصية معجمًا مختصراً مرتبًا ترتيبًا أبجديًا لعشرات من الألفاظ والتعبيرات العامية التى وردت فى قصص المجموعة. وذكر فى مقدمته صراحة تأثره فى إيراد هذا المعجم ببعض الأدباء الفرنسيين من أمثال ف. دى فيبون وج. ريشبان . وكان هذا المعجم نواة لمعجم أكبر جمعه المؤلف تحت عنوان : فرهنگ لغات عاميانه (معجم الألفاظ العامية) وقام بنشره محمد جعفر محجوب فى تهران عام ١٣٤٣ش (١٩٦٤م).

وهذه المقدمة الأدبية على أهميتها لم تكن الأولى من نوعها؛ فسبقتها مقدمة أدبية مماثلة كتبها ميرزا فتحعلى آخوندزاده قبل ذلك بحوالى نصف قرن قدم بها لمسرحياته.

استخدم جمالزاده فى هذه المجموعة القصصية لغة أدبية تمتزج فيها الفصحى بالعامية، مع التركيز على إيراد تعبيرات وألفاظ دارجة من لغة السوق والحارة بصورة متعمدة. فكانت اللغة فى حكاياته جزءًا لا يتجزأ من عمله وهدفًا أساسيًا من كتابته لها. فبالإضافة إلى الإبداع القصصى نفسه، كان المؤلف يعمد إلى تجميع أكبر قدر ممكن من التعبيرات العامية الدارجة بين دفتى مجموعته . وفى ذلك أيضًا لم يكن جمالزاده أتى بجديد. فكانت هذه اللغة الأدبية الأقرب إلى لغة الحوار اليومى فى الحياة الإيرانية شائعة فى الأدب الفارسى لعدة عقود قبل ظهور يكى بود ويكى نبود.

كانت اللغة فى مقدمة القضايا التى شغلت أدباء النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى حركتهم نحو تجديد الأدب الفارسى. وفى هذا المضمار، لا مجال لإنكار الدور الذى لعبه الاتصال بالغرب وبالآداب الأوروبية فى دفع حركة التجديد. فكانت من أولى نتائجه بداية تحرير لغة المراسلات الحكومية من التعقيدات اللغوية القديمة على يد رئيسى الوزراء قائم مقام فراهانى وميرزا تقى خان أمير كبير فى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى (أواسط التاسع عشر الميلادى). ومن خلال حركة الترجمة عن اللغات الأوروبية بلغت اللغة الأدبية مكانة غير مسبوقة على يد مترجمين أكفاء مثل : ميرزا حبيب اصفهانى فى ترجمته الفارسية الفذة لرواية جيمس موريبه حاجى بابا اصفهانى. وفى أدب الرحلات، حقق زين العابدين مراغه اى أسلوبًا أدبيًا مبسطًا متميزًا فى كتابه سياحتنامه ابراهيم بگ. كما قام ميرزا عبدالرحيم طالبوف (طالبزاده

فيما بعد) بتطوير لغة أدبية متميزة كانت نواة لكتابة الأدب العلمى وأدب الأطفال فى الفارسية من خلال كتابه كتاب أحمد يا سفينة طالبى (١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م). وحين عرفت إيران الطباعة والصحافة، برز على الساحة رواد فى تجديد اللغة الأدبية ومنهم على أكبر دهخدا. وأغلب الظن أن جمالزاده ومعظم معاصريه تأثروا لدرجة بعيدة بدهخدا فى لغته المتميزة وأسلوبه الساخر.

إن ريادة جمالزاده فى حقيقة الأمر لا تكمن فى اللغة والأسلوب الأدبيين، على الرغم مما حققه من شهرة فى هذا المجال، بل فى مجال كتابة القصة القصيرة بشكلها الأوربى. ونركز من جانبنا على هذه النقطة الأخيرة ونرى أن اللغة عند جمالزاده، وخاصة فى مجموعته يكى بود ويكى نبود، تبدو مفتعلة حيث يغلب عليها التركيز على التجميع المتعمد للألفاظ العامية والتعبيرات الدارجة. فى حين أن اللغة الأدبية فى أعمال مثل الترجمة الفارسية لرواية حاجى بابا أصفهانى ومقالات جرند برند لعلى أكبر دهخدا تبدو طبيعية لا افتعال فيها واستخدام اللفظ فيها لمعناه وما يؤديه من وظيفة فى السياق ، لا لمجرد الرصد والتسجيل كما الحال فى كتابات جمالزاده .

وإذا كان جمالزاده نال شهرة واسعة باعتباره الرائد الأول لتجديد اللغة الأدبية وأسلوب الكتابة الفارسية، فإن هذا مرجعه إلى ذيوع صيت مجموعته القصصية الأولى يكى بود ويكى نبود وفى كثرة من كتاباته اللاحقة. ومع ذلك، فإننا لا ننكر دوره فى تطوير هذه اللغة ضمن غيره من الكتاب وفى تعريف الأدب الفارسى بالقصة القصيرة كجنس أدبى مستقل.

وهكذا فبتشره لحكاية فارسى شكر است قدم جمالزاده أول نموذج للقصة القصيرة الحديثة فى الأدب الفارسى. وانتقد فيها مزج الفارسية بالألفاظ العربية على لسان شخصية رجل الدين، ومزجها بالألفاظ الفرنسية على لسان شخصية المتفرنج، ودعا إلى العودة إلى الفارسية المستخدمة فى الحياة اليومية لأهالى إيران.

يذهب البعض أن مجموعة يكى بود ويكى نبود أثارت ردود فعل غاضبة فى الأوساط الدينية فى إيران حين ظهرت لأول مرة بسبب الصورة المزرية لرجل الدين الشيعى والتى رسمها جمالزاده فى إحدى قصص هذه المجموعة، وهى درد دل ملا قربانعلى (هموم الشيخ قربانعلى). كما تضمنت المجموعة انتقادات حادة للساسة الإيرانيين ونماذج أخرى من المجتمع الإيرانى، بل يؤكد البعض أن المجموعة أثارت مظاهرات عدائية فى البلاد وأن بعض المتظاهرين قاموا بإحراقها فى بعض الأقاليم تعبيراً عن السخط على ما جاء بها (Kubiçkova, p. 389). إلا أن هذا القول مبالغ فيه إلى حد بعيد؛ فلم يكن نموذج رجل الدين الشيعى فى مجموعته القصصية أول نموذج ساخر من نوعه أو أشدها ازدراء له. فصورة رجل الدين الإيرانى فى رواية حاجى بابا أصفهانى تذهب إلى درجة أبعد كثيراً من صورته لدى جمالزاده من حيث السخرية والتحقير. ومع ذلك لم تؤد إلى ما يزعم البعض أن مجموعة جمالزاده أدت اليه من احتجاجات شعبية، مع أن مؤلف حاجى بابا كان إنجليزياً وصدرت ترجمته الفارسية قبل ظهور يكى بود ويكى نبود بحوالى نصف قرن.

(٣)

القصة القصيرة من ١٩٢١ الى ١٩٤١

ذكرنا فيما سبق أن حكايات سعدى الشيرازى فى كتابه گلستان بمثابة حلقة الوصل بين المقامة بشكلها التقليدى وبين الحكاية الفارسية. تطورت الحكاية فى أوائل القرن العشرين على يد على أكبر دهخدا لتكون همزة الوصل بين الحكاية التقليدية والقصة القصيرة الحديثة بصورتها الوافدة. كما تحدثنا عن ريادة جمالزاده فى فن القصة القصيرة ومزجه فى نسيجها بين أسس القصة القصيرة الأوروبية وعناصر المقامة والحكاية التقليديتين، ما أضفى على قصصه لونًا محليًا متميزًا. ونناقش فيما يلى تطور هذا الفن القصصى بعد ١٩٢١، وهو تاريخ صدور أول مجموعة منه.

على الرغم من النجاح الذى حققته مجموعة يكى بود ويكى نبود، فإن ظهور مجموعات من القصص القصيرة الحديثة الأخرى استغرق ما يقرب من عشر سنوات. وكان جمالزاده لجأ إلى الصمت الأدبى احتجاجًا على الرقابة على المطبوعات التى فرضتها حكومة رضا شاه

منذ أن تولى العرش فى عام ١٩٢٥ كأول ملوك الأسرة البهلوية. فأحجم جمالزاده عن نشر أى من كتاباته حتى سنة ١٩٤٢ حيث نشر أولى رواياته وهى دار المجانين، ثم توالت أعماله بعدها.

خلت الساحة فى عهد رضا شاه للأعمال الأدبية «الدعائية» إن جاز التعبير؛ أى للرواية التاريخية والرواية الاجتماعية اللتين تروجان لطموحات النظام الحاكم ولأفكاره، وللأشعار الحماسية التى تمجد النظام الجديد ومراميه فى أواخر العشرينيات. وانزوت القصة القصيرة بلجوء رائدها جمالزاده إلى الصمت الأدبى طوال فترة حكم رضا شاه، إلى أن قام بزرگ علوى (ولد ١٩٠٤) بنشر مجموعة جمدان (خزانة الملابس) فى عام ١٣١٣ش (١٩٢٤م).

استفاد علوى فى هذه المجموعة من الأفكار الفرويدية فى التحليل النفسى، وألم بها فى أثناء دراسته بألمانيا. وفى حين خلت مجموعة جمدان من أى لون سياسى، فاصطبغت كل كتاباته القصصية منذ عام ١٣٢١ش (١٩٤٢م) -أى منذ سقوط نظام رضا شاه - بصبغة سياسية، ولو أنه لا يعتبر نفسه كاتبًا سياسيًا فى المقام الأول. وأظهر علوى فى أعماله قدرة فذة على اتباع التكنيك الأوربى فى الشكل، بينما غلبت المحلية الإيرانية بصورة متميزة على المضمون.

وفى سنة ١٣١٦ش (١٩٣٧م)، أصدر سعيد نفيسى مجموعة قصصية بعنوان ستاركان سياه (النجوم السوداء)، وتضم قصصًا يعود تاريخ كتابتها إلى عام ١٣٣٥هـ (١٩١٦م)؛ أى أن المؤلف كان لايزال

يجرب قلمه فى كتابة القصة القصيرة حين ظهرت مجموعة يكى بود ويكى نبود فى سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢١م). ولما كانت مجموعته هذه تجريبية، فانصب اهتمامه فيها على الشكل والأسلوب دون محاولة التجديد. وتميزت كتابات سعيد نفيسى الأدبية بصفة عامة بالتزام الحرفية الفنية التى لا تثير الجدل.

وكانت أواسط الثلاثينيات من القرن العشرين بداية انطلاق القصة القصيرة الفارسية إلى آفاق جديدة على يد الروائى صادق هدايت. تميزت كتابات هدايت القصصية بالتعقيد الفلسفى والنفسى العميق؛ وعبر فى بعض منها عن اتجاهاته الفلسفية كنزعته النباتية وحبه للحيوان ودعوته إلى إحياء الموروث الثقافى الإيرانى القديم السابق على الإسلام. وشغلته بصورة خاصة شخصية «الضحية» التى تعانى القهر والظلم. فنجد فى قصصه شخصية داود الأحدب (داود كوژپشت) الذى يلقى السخرية من الجميع، ويجعل من حمار يحتضر بطلاً لإحدى قصصه القصيرة بعنوان زبان حال يك الاغ در وقت مرگ (لسان حال حمار يُحتضر). كما تصور قصصه نماذج من الشخصيات الاجتماعية غير السوية بقاع المجتمع الإيرانى، كرجل الدين المرائى والتاجر الجشع والعانس الحاقدة وما إلى ذلك . وبلغ هدايت فى استعانته باللهجة العامية الفارسية المعاصرة حداً أبعد كثيراً مما بلغه محمد على جمالزاده فى أوائل العشرينيات. أما من حيث التكنيك فأصبح أسلوبه معياراً لمن تلاه من الكتاب فى العقود التالية.

القصة القصيرة فى الأربعينيات والخمسينيات

فى أوائل الأربعينيات، احتلت قوات الحلفاء أجزاء من أراضى إيران، وأجبروا رضا شاه على التنازل عن العرش لابنه محمد رضا عام ١٩٤١. ومنذ ذلك الحين، ولعدة أعوام تالية فقط، خفت قبضة الرقابة على المطبوعات إلى حد ما. ونتيجة لذلك شهدت الحياة الثقافية بعض الازدهار، وانتعشت القصة القصيرة. وكان التجديد الذى أضفاه صادق هدايت على الكتابة القصصية مصدر إلهام لعدد من الأدباء الجدد الذين خاضوا هذا المضمار كوسيلة للتعبير السياسى. وتأثرت كثرة من هؤلاء الأدباء بكتابات جان بول سارتر الفلسفية والأدبية ضمن تأثرهم بالتطورات الفكرية والأدبية في فرنسا بشكل عام. فكانت كتابات كل من هدايت وسارتر دليلاً جديداً أعاد أدباء إيران فى ضوئه النظر فى المفاهيم الأدبية الراسخة. كما ازداد نشاط حزب توده الشيوعى الإيرانى فى ظل مناخ الحرية النسبية فى الأربعينيات (Green, p. 6). وأدت هذه العوامل إلى انتعاش الحياة الثقافية فى البلاد والى قيام نهضة أدبية جديدة فى تلك الفترة.

وفى ظل هذه النهضة الأدبية ، ظهرت مجموعة من أبرع الأدباء والروائيين الإيرانيين. وكان من أبرز من بدءوا إنتاجهم الأدبى فى تلك الفترة صادق جوبك . برز اسم جوبك فى مجال القصة القصيرة وحقق مكانة لا تقل عن مكانة هدايت أو جمالزاده. وكان اهتمامه ينصب فيها على التحليل النفسى والغوص فى أعماق النفس الإنسانية. فعالجت

أعماله المصير المأساوى لبعض البشر فى عالم «لا إنسانى»، وهو الموضوع الذى يوحى بوجود رباط بين أعماله وأعمال إدجار آلن بو. كما تتميز كتابات جوبك بدقة التصوير والصراحة فى الوصف وحيوية اللغة التى اتخذ فيها طريقًا وسطًا بين الفصحى والعامية.

وفى أولى مجموعاته القصصية بعنوان خيمه شب بازى (خيال الظل، ١٣٢٤ش/١٩٤٥م) تجلت بعض السمات المتميزة فى أسلوب جوبك، ما بدا واضحًا فى أعماله اللاحقة، وهى محاولة صبغ القضايا الاجتماعية الملحة بصبغة فلسفية والتعاطف مع ضحايا القدر والضعفاء فى مواجهة أقدار قاسية . ويركز فى قصصه على تفاهة الحياة وتعاسة البشر وما يأول إليه الإنسان من مصير فى الدنيا . ويصور العوالم الضيقة الكئيبة للعاهرات والعوانس والانتهازيين والمنبوذين فى المجتمع.

ومن أبرز كتاب القصة القصيرة فى الأربعينيات أيضًا جلال آل أحمد (٢٣-١٩٦٩). بدأ آل أحمد حياته الأدبية بنشر قصته الشهيرة زيارت فى عام ١٣٢٤ش (١٩٤٥م) على صفحات مجلة سخن الأدبية. وعلى الرغم من غزارة إنتاجه القصصى، فإنه لم يلق بعد ما يستحق من عناية ودراسة من جانب نقاد الأدب الفارسي المعاصر. وظهرت أولى مجموعاته القصصية متضمنة القصة المذكورة تحت عنوان ديد وبازديد فى عام ١٣٢٥ش (١٩٤٦م). ثم توالت مجموعاته القصصية على فترات قصيرة. يقول الناقد الأدبى الإيرانى المعاصر رضا براهنى فى نقده لقصص آل أحمد:

«... وآل احمد صاحب أسلوب نثرى يعد أفضل من أسلوب صادق هدايت، وربما يعد أفضل أسلوب نثرى معاصر. إلا أن هذا الأسلوب للأسف لا يولى عناية كافية لتقصى أغوار النفس الإنسانية لدى شخوصه فى الغالب ... فتمر شخصياته أحيانًا أمام عينى القارئ وكأنها البرق دون أن يتمكن القارئ من أن يمسك بهم أو أن تعلق بذهنه. فآل احمد لا طاقة له على وصف أحوال الأفراد أو المجتمع ذهنيًا أو نفسيًا. ويعد ميله المتميز للرسم السطحى للشخصيات ناتجًا عن عدم رؤيته للعالم من الداخل، من أعماق الأسباب والنتائج. فبدلاً من أن يخلق شخوصًا، يرسم صورًا هزلية يركز فيها على وصف المرتفعات والمنخفضات الجسدية ...» (براهنى، ص٤٤٢-٤٤٣) .

أما من حيث الموضوع فيرى ناقد آخر أن استغراق آل أحمد فى الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية جعل من بعض أعماله أقرب إلى المقالات السردية منها إلى القصص. كما يستغرق فى السخرية فلم تفلت من سخريته المرة أى من المؤسسات الاجتماعية والدينية والسياسية فى المجتمع الإيرانى (Zafarzade, p. 151).

وفى أعقاب فشل حركة مصدق فى عام ١٩٥٣، عادت الأوضاع السياسية إلى ما كانت عليه من قهر وكبت للحريات العامة فى أواخر عهد رضا شاه. فاشتدت قبضة الرقابة من جديد على المطبوعات مؤكدة قدرة النظام الحاكم على إسكات الأصوات المعارضة فى أوساط المثقفين. وأعاد محمد رضا شاه سيرة والده فيما يتعلق بمسألة مكافحة الشيوعية؛ فتعرض أنصار حزب توده الشيوعى وأعضاؤه النشطون

للمطاردة والاعتقال. وفى حين تم اعتقال بعض مؤيدى الحزب من أمثال الشاعر المعروف أحمد شاملو، اضطر أعضاء الحزب من ذوى الفعالية من أمثال : جلال آل أحمد ومحمد على أفراشته إلى اللجوء للترجمة والكتابة فيما لا يقترب من السياسة إلا رمزًا وتلميحًا.

وفى هذه الفترة التى سادها الاضطراب السياسى، عمت حالة من الصمت الأدبى نشط بموازاتها أصحاب التوجهات السياسية المحظورة على اختلاف نوازعهم. وفى أواسط الخمسينيات، عادت الحياة الأدبية إلى النشاط بروح جديدة وتباين فى التوجهات والأنشطة. فكان ظهور المجلات والدوريات الأدبية حافزًا على نشر الأعمال القصصية لكتّاب ناشئين.

وفى الوقت نفسه، شهدت حركة الترجمة عن آداب الغرب طفرة كبيرة، وخاصة ترجمة الأعمال القصصية لكتّاب بريطانيين وأميريكيين. وكان النوع الغالب فى هذه الترجمات القصص البوليسية وقصص الجريمة، ومعظمها للاستهلاك الشعبى. إلا أن هذا لا ينفى ظهور ترجمات هادفة قام بها كتّاب لهم مكانتهم الأدبية المرموقة من أمثال : سيمين دانشوَر (ولدت ١٩٢١) ومحمود بِه آذين (ولد ١٩١٥). فترجمت دانشور ضمن ما ترجمت أعمالاً مثل : بياتريس لآرثر شنيتسلر، والكوميديا الإنسانية لساروريان؛ وقام محمود به آذين بترجمة عطيل لشكسبير. وإلى جانب العائد المادى الذى وفرته الترجمة للكتّاب والأدباء كانت مختاراتهم من الأعمال الأدبية والنصوص تنتمى إلى ذلك النوع الذى يتناول ظروفًا سياسية أو اجتماعية شبيهة بظروف المجتمع

الإيرانى. ومن خلال هذه الترجمات، عبر هؤلاء الأدباء عن آرائهم السياسية ولو بطريق غير مباشر.

كما ظهرت أعمال قصصية لم يسع كتّابها إلى تجربة أشكال جديدة أو على الأقل يسيرون فيها على نهج الجيل السابق من كتّاب القصة من أمثال : هدايت وجوبك؛ بل عادوا أدراجهم إلى أسلوب جمالزاده فى مزج عناصر الحكاية التقليدية بعناصر القصة القصيرة الحديثة. إلا أن هذا الاتجاه الأدبى مع أنه كان يعد تجديداً وخطوة إلى الأمام فى العشرينيات، كان يمثل ركوداً وقفزة إلى الوراء فى الخمسينيات. ولعل أتباع هذا الاتجاه الأدبى «البسيط» كانوا متأثرين فى نهجهم باتجاه مماثل فى الأدب الأمريكى، لدى هيمنجواى مثلاً (Zafarzade, p. 122). ونجد هذا المنحى الأدبى لدى إبراهيم گلستان فى مجموعته شكر سياه (السكر الأسود، ١٣٣٤ش/١٩٥٥م) التى تجنب فيها التكلف فى التكنيك وعاد إلى الأسلوب المبسط ذى الحبكة واللغة المباشرتين السهلتين.

وفى أواخر الخمسينيات ظهر إلى جانب هذا الاتجاه «الكلاسيكى» فى القصة القصيرة اتجاه آخر واقعى يركز اهتمامه على قضايا الإنسان فى ظروفه العادية والمواقف المألوفة فى الحياة الإيرانية، كما نجدها لدى هدايت وكتّاب جيله. ومن أبرز أنصار هذا الاتجاه بهرام صادقى ورضا مقدم اللذان دخلا فى مناظرة أدبية على صفحات مجلة سخن (Zafarzade, p. 153). وفى أعمال تالية له، اتجه بهرام صادقى إلى السخرية المرة كأسلوب له كما نرى فى قصة تدريس در بهارى دل

انگیز. ونحا غلامحسین ساعدی (۳۵-۱۹۸۵) نفس هذا المنحى الواقعی الساخر. فتدور أعماله أو معظمها حول آمال الإیرانی البسیط وآلامه فی القری النائیة والأحیاء المنسیة بالمدن الکبری. واستخدم الکاتب مهارته کطبیب نفسی فی کتاباته القصصیة والمسرحیة.

القصة القصیرة فی الستینیات والسبعینیات

منذ أوائل الستینیات، شهدت القصة القصیرة الفارسیة حرکة ازدهار ملحوظة حتی أصبحت ضمن فنون الأدب ذات الشعبیة الکبیرة لدی جیل الشباب. فظهرت کتب عن کیفیة کتابة القصة، ومن أشهرها هنر داستان نویسی لإبراهیم یونسی (تهران، امیر کبیر، ۱۳۵۵ش /۱۹۷٦م). وکان لوفرة الدوریات الأدبیة دور کبیر فی تحقیق هذه الشعبیة لهذا النوع الأدبی. ولکن لا ندری هل أدت شعبیة القصة القصیرة إلی التوسع فی نشرها والإقبال علیها أم أن الإقبال علیها هو الذی أدی إلی انتشارها؟

علی أیة حال، لا یسعنا إلا أن نذکّر بالجانب الاقتصادی ودوره فی زیادة الإقبال علی هذا الشکل الأدبی القصیر. فکان الانخفاض النسبی لسعر المجلة الأدبیة أو الصحیفة التی تنشر قصصا قصیرة یمثل عاملاً مهمًا فی تفضیل کثرة من القراء للقصة القصیرة علی الروایة التی تنشر علی شکل کتاب. فکان الکتاب لایزال مرتفع الثمن نسبیًا لدرجة أن شاع

اتجاه بنشر الروايات والترجمات الأدبية مسلسلة في الصحف لمواجهة العامل الاقتصادى.

ظهر فى فترة الستينيات والسبعينيات وما تلاها جيل من كتّاب القصة القصيرة بذل جهداً ملحوظًا لشق طريق جديد لهذا الفن الأدبى بعيداً عن الإغراق فى المحلية أو الاستغراق فى الالتزام بقواعده الفنية الأوروبية أو فى مزيج من هذين العنصرين معا. فكانت الأعمال التى دونها كتّاب هذا الجيل تتسم بما يمكن أن نطلق عليه اسم «أدب إنسانى» يخاطب الإنسان فى كل مكان، ويتناول البشر دون تمييز، ويعالج آلامهم وآمالهم دون تفرقة. وتميز كل من أدباء هذا الجيل عن غيره من الأدباء فى التكنيك الذى يتناول به موضوعاته. فمنهم من اتخذ من الهزل أسلوبًا، ومنهم من استعان بالرمزية الساخرة، بينما تبنى فريق ثالث نهج الواقعية الدرامية. وإنه لمن العسير أن نضع إطاراً عاماً يجمع بين الكتّاب المحدثين جميعًا تحت عنوان واحد، ما يرجع أولاً لكثرة عددهم، وثانيًا لتشعب القضايا وتنوع الأساليب التى عالجوا بها موضوعاتهم.

ونادراً ما تتناول قصص هذه الفترة عاطفة الحب، فغالبًا ما يركز الأدباء فيها على ما لهذه العاطفة من ردود أفعال اجتماعية. فالمجتمع الإيرانى مجتمع شرقى محافظ يدين الحب خارج إطاره المحدد وهو الزواج. وإذا كان المجتمع يغض الطرف عن خروج الرجل على هذه القاعدة الاجتماعية؛ فإنه يحكم على الفتاة بالسقوط أو التدنى الاجتماعى وسوء المصير إذا خرجت على أعرافه الثابتة. كما أن عاطفة

الحب كانت موضوعًا ثانويًا بالنسبة للقضايا الملحة التى عرضت للطبقة المتوسطة فى الستينيات والسبعينيات. فأولوا جل اهتمامهم إلى مسائل أكثر شمولاً وإلحاحًا بالنسبة لإنسان العصر الحديث ومجتمعه السريع التغير.

ومن ناحية أخرى، كانت القصة القصيرة تمثل شكلاً أدبيًا قصصيًا أقصر من أن يتسع لقصة حب بكل أبعادها وملابساتها. أما فى الرواية الطويلة، فنجد قضية الحب فى مجتمع محافظ من أبرز القضايا التى شغلت كتّاب القصة منذ عشرينيات هذا القرن. ومن خلال هذا النوع من القصص، عولجت قضية تحرير المرأة ونظرة المجتمع إليها. على أية حال، كانت غالبية هذه القصص تنتهى بالإحباط إما نتيجة للفوارق الاجتماعية أو العامل الاقتصادى.

كان طغيان الأب وسيطرته على الأسرة من الموضوعات التى عولجت فى أكثر من قصة فى هذه الفترة، سواء بالمعنى المباشر للأب ، أو بالمعنى الرمزى فى إشارة إلى نظم الحكم المستبدة. يمثل الأب فى المجتمع الإيرانى، كغيره من المجتمعات الشرقية التقليدية، الدعامة الاقتصادية الأولى وربما الوحيدة فى النظام الاجتماعى الإيرانى، ما يحول دون استقلالية الأبناء حتى سن الشباب أو ما بعده. فتظل صورة الأب الطاغية مسيطرة على خيال الأديب وتنعكس سنوات طفولته التعسة فى كتاباته؛ أو ربما يمكن القول : إن الكاتب يظل منشغلاً بسنوات طفولته وأحداثها من منطلق محدودية خبراته وتجاربه فى الحياة (Southgate, p. x). وهكذا تكونت شخصيتا : الأب الطاغية

والابن المقهور كما نجدهما في قصة جشن فرخنده (الحفل السعيد، ١٣٤٠ش /١٩٦١م) لجلال آل أحمد، وأصبحتا شخصيتين ثابتتين نجدهما في كثير من قصص الكتّاب المحدثين. وغالبًا ما تروى القصة من وجهة نظر الابن.

وتمتد فكرة الرغبة في الخلاص من طغيان الأب، أو «الدولة الأب» إلى رفض الماضي التاريخي للبلاد. ففي قصة برج تاريخي (البرج التاريخي، ١٣٤٨ش/١٩٦٩م) لخسرو شاهاني، نجد الكاتب يسخر من البرج الأثرى الذى يرمز إلى تاريخ إيران القديم برمته ويتمنى زواله. فالأديب الإيراني المعاصر يتساءل عن جدوى التاريخ وقيمته في مقابل إنجازات الغرب الحديثة. وإذا كان صادق هدايت أرجع ما تعانيه إيران من مشكلات في العشرينيات والثلاثينيات إلى ما أسماه «الغزو العربي» وانتشار الإسلام وما ترتب عليهما من قضاء على «أمجاد» إيران القديمة، فإن خسرو شاهاني يرجع تخلف إيران في الستينيات إلى نفس «أمجاد» ذلك التاريخ القديم التي بكى هدايت على أطلالها. والحقيقة أن الاتصال المكثف بين إيران والغرب ، وخاصة الولايات المتحدة، منذ قيام حركة مصدق في أوائل الخمسينيات زاد من الاحساس بالفجوة الحضارية بين إيران وأوربا لدى الإيرانيين في العصر الحديث. بل إن هذه الهوة زادت اتساعًا لتخلق نوعًا من الغربة لا بين أبناء الجيل الجديد وماضيهم الثقافي وحسب، بل بين أفراد الطبقة المتوسطة المتعلمة وبين ذويهم وبني وطنهم الأقل تعليمًا أيضًا.

تحتل فكرة الاغتراب مكانًا بارزًا في قصص الستينيات والسبعينيات. إلا أننا لا نقصد إحساس الإيراني بالغربة في إقامته

خارج وطنه، بل نقصد الغربة التي يحسها في وطنه وبين أهله. ففي قصة بروانه ها در شب (الفراشات في الليل، ١٣٤٤ش/١٩٦٥م) لغلامحسين نظري ، نجد البطل يروي قصته في أثناء إقامته بمدينة جوتنجن بألمانيا بعد عودته من زيارة قصيرة لوطنه. تدور أحداث القصة في أثناء هذه الزيارة؛ فيشعر البطل ومنذ اللحظة الأولى بالاغتراب عن أفراد أسرته؛ فيسود الصمت بينهم؛ يتبادلون النظرات الباردة فيما بينهم؛ «الزمن لا يتحرك هنا» ... عدا أن الأم زادت عجافًا ، وعينا الأخ زادت خوفًا ... «شيء ما انكسر في قلوبنا ...»؛ «كسروا شيئًا في قلوبنا ...». ونتيجة لهذا التباعد الوجداني بين البطل وماضيه، يفضل البطل العودة إلى حيث لا اغتراب؛ ويكتب قصته في «ليلة العيد».

وتلقي الصور الدرامية في هذا النوع من القصص بظلال من الحزن والقتامة على جو القصة كلها، فتعكس صدق الكاتب في تجربته وما يعاني. ففي نفس القصة الأخيرة، نجد صورًا شديدة القتامة مثل «كأنهم أخافوا عينيه ...»، «نظرات باردة صامتة ...»، «عيون زجاجية ...»، «التصقت الفراشات بشعاع المصباح ...»، «رأس أختي سقطت على ركن من المقعد كرأس دمية مخلوعة ...». وتدعم اللغة المستخدمة والألفاظ هذه الصور الدرامية.

وتمتد الفجوة لتشمل العلاقة بين الإيرانيين وتاريخهم القديم. فيعبر الكاتب في قصة برج تاريخي (البرج التاريخي) بأسلوب ساخر عن جهل الإيرانيين بتاريخهم واستخفافهم بآثارهم حتى يبدأ الغرب في الاهتمام

بها. فيظل أهالى البلدة يتجاهلون البرج ويلقون فيه قمامتهم ويستعملونه كمرحاض إلى أن تصل بعثة أثرية غربية لفحصه ، فيبدءون فى الاحتفاء به. وحين ترحل البعثة دون نتيجة، يعود الأهالى سيرتهم الأولى. فأصبحت معايير الغرب هى المعايير القياسية التى يقوِّم الشرق بها عناصر تراثه ومكوناته.

إن فكرة الهوة الحضارية التى تفصل بين الشرق والغرب الحديث والتى ازداد الإحساس بها مع زيادة الاتصال بالغرب ليست جديدة فى القصة القصيرة؛ بل تعود إلى بدايات هذا الشكل الأدبى. ففى قصة فارسى شكر است لجمالزاده، لا يقتصر تأثير الغرب على العلاقة بين الإيرانى ووطنه وماضيه وجذوره، بل تمتد لتشمل اللغة. فتدور القصة كلها على الفجوة اللغوية بين البطل وبنى وطنه. فهو لا يفهم ما يقوله الإيرانى «المتفرنج» الذى يستخدم فى فارسيته ألفاظًا فرنسية عديدة، ولا الملا الإيرانى المستعرب (رجل الدين) الذى يكثر من استخدام الألفاظ العربية.

ومن العوامل الأخرى التى أدت إلى زيادة إحساس المثقفين الإيرانيين بالاغتراب، الظروف السياسية التى شهدتها إيران فى ظل نظام محمد رضا شاه (٤١-١٩٧٩)؛ فكان حرمانهم من أية مشاركة سياسية فى إدارة شؤون البلاد، بالإضافة إلى سياسات النظام نفسه، باعثًا للمثقفين الإيرانيين لمعارضة النظام الحاكم، وهو نفس ما حدث فى أيام حكم رضا شاه (٢٥-١٩٤١) كما سبقت الإشارة. إلا أن قبضة النظام الحديدية حالت بينهم وبين التصريح بسخطهم، فلجئوا فى

كتاباتهم الأدبية إلى الرمز والتلميح لتفادى الرقابة على المطبوعات. ففى قصة يك بنفشه براى عديد (غصن بنفسج من أجل عديد، ١٣٥٣ش/١٩٧٤م) لنسيم خاكسار لا ندرى سبب اعتقال كل من بطلى القصة ياسين وعديد واقتيادهما إلى المعتقل. لكننا نستشف من بعض العبارات أن اعتقالهما يرجع إلى أسباب سياسية:

«... فى الطريق إلى النائب العام، كانوا (المعتقلون الآخرون) يروجون الهيروين أو الأفيون، أو متهمين بالسرقة ...».

وينعكس يأس المثقفين الإيرانيين من أى تغيير إلى الأفضل فى استسلام كل من : ياسين وعديد لمصيرهما فى المعتقل. وربما كانت مصحة الأمراض العقلية فى قصة زنجير (القيد، ١٣٤٨ش/١٩٦٩) لبهرام صادقى رمزًا للمعتقلات السياسية التى أعدها النظام السياسى للمعارضين السياسيين. ولعل «المدينة القصية» ترمز فى هذه القصة إلى إيران نفسها:

«... كان المحافظ فى مدينتنا يختال مرحًا بهذه الميزة (أى وجود مصحة للأمراض العقلية)؛ ولو أنه يتحسر أحيانًا على وجوده فى هذه المحافظة النائية الهادئة التى تلفها الأسرار والقابعة فى الصحراء الشاسعة وحيدة تفصلها عن المدن البهيجة أميال ...».

وتتصاعد حدة السخط على النظام الشمولى لدى بعض الأدباء الإيرانيين إلى درجة السخط على الحياة الإنسانية بصورة عامة. فتبرز فى أعمالهم الجوانب القاسية فى الحياة على الأرض فتبدو مغرقة فى

الكآبة والسوداوية. ومن أمثلة هذا النوع من القصص هراس (الخوف، ١٣٥٦ش/١٩٧٧م) للروائى الموهوب جمال مير صادقى. تصور هذه القصة عالمين يسيران فى خطين متوازيين وفى اتجاه واحد: عالم الكبار وهو عالم الواقع بما فيه من كوارث وحروب مفجعة ومجاعات، ويمثله والد البطلة الصغيرة وما يرويه نقلاً عن الصحيفة، وعالم الصغار وهو عالم المثال بما يتسم به من براءة، وتمثله الطفلة المريضة. فالبطلة الصغيرة مريضة، ومسرح الأحداث عيادة طبيب أطفال. والطفلة عرضة لقوة كبرى تفترس براءتها، وهى المرض . ومن ناحية ، نجد نفس هذين العالمين متمثلين فى حوض لأسماك الزينة. فتفزع الصغيرة لمرأى الوحشية كسمة من سمات العالم الأرضى متمثلة فى سمكة كبيرة تعتدى بلا داعٍ على السمك الصغير وتقتله دون رحمة. وسواء أكانت هذه الرموز تشير إلى العلاقة القائمة على القوة الغاشمة بين البشر أو بين الدول ، فإن هذه القصة تحمل فى ثناياها وعلى أى مستوى - رمزى أو واقعى - السخط على فكرة الصراع غير المتكافئ فى الدنيا.

وتمتد فكرة السخط على النظام السياسى الجائر وعلى الحياة الإنسانية وعلاقاتها غير السوية إلى مستوى أعلى لتشمل النظام الكونى واقعه وغيبه، كما نرى فى قصة تدريس در بهارى دل انگيز (التدريس فى ربيع بهيج، ١٣٤١ش /١٩٦٢م) لبهرام صادقى. يتحدث الراوية فى هذه القصة بصوته كراوية للأحداث داعيًا القارئ لمشاركته خياله. فيتخيل مدرسة بها ناظر ومدرسون وطلاب. يتوافد المدرسون على الفصل الذى تدور به أحداث القصة الخيالية. فيختلف الطلاب بين

مواظب ومهمل؛ وفى النهاية يخضعون جميعًا لإغراء الفتاة الحسناء عدا شيخ متهدم لم يمنعه من الخضوع لإغرائها إلا كهولته وعجزه. ونعلم من الراوية أن هناك ضبابًا يحول بين المدرس والطلاب فلا يرى كل منهم الآخر، ولا ينقشع إلا فى نهاية القصة (أو الحصة) حيث يكتشف المدرس أن الطلاب جميعًا مضوا فى أثر الحسناء بعد أن ملوا حديثه إلا الشيخ؛ فيبدأ المدرس فى استجوابه.

يلجأ بهرام صادقى فى هذه القصة إلى الرمزية الساخرة بنفس الصورة التى نجدها فى رواية أولاد حارتنا للكاتب المصرى الفذ نجيب محفوظ. ولم يكن روائيو الستينيات والسبعينيات أول من تناول هذه التيمة. وربما كان أول نموذج لها قصة قفس (القفص) وهى من مجموعة انترى كه لوطيش مرده بود (القرد الذى مات صاحبه، ١٣٢٨ش /١٩٤٩م) لصادق چوبك فى أواخر الأربعينيات. ويصوّر الكاتب فيها قفصًا به دجاجات تتخطفها يد سوداء لتذبحها واحدة تلو الأخرى أمام أعين الأخريات وهى لاهية فى صراع لا مبرر له فيما بينها.

القصة القصيرة بعد ١٩٧٩

أما عن تطور عالم القصة القصيرة بعد قيام ثورة ١٩٧٩، فليس بين يدى مؤلف هذا الكتاب سوى قصة واحدة حصلت عليها من أستاذى الجليل بروفسر جرنوت وندفور أستاذ اللغة والأدب الفارسى بجامعة ميتشجن (آن أربر) بالولايات المتحدة، وهى قصة بزرگ بانوى روح من

(مليكة روحى) والتى كتبتها الروائية الإيرانية كلى ترقى (١٩٣٩-   ) فى خضم الأحداث الثورية وبعد الإطاحة بالشاه واستقرار السلطة فى يد الثوار وإعلان الجمهورية الإيرانية بأشهر قلائل (صيف ١٩٧٩).

تحكى القصة عن أستاذ جامعى يعايش الأحداث فى الشارع الإيرانى فى أيام عنفوان الثورة. ويصور التضارب الشديد فى مواقف الناس من حوله إزاء الأحداث متمثلين فى أفراد أسرته وأصدقائه وجيرانه. ففى حين ينشغل والده بالبحث عن الزبيب لصنع العرق الذى يحبه، تعجل زوجته بتعلم قواعد الصلاة والدين وترديد آراء الثورة؛ وبينما يؤمن ولده بالشيوعية ويبشِر بقيام ثورة «حقيقية» أخرى غير الثورة الدينية، تهيم ابنته حبًا بشخص مجهول وتفرط فى الطعام. أما صديقه الشاعر، فلايزال هائمًا فى شاعريته الحالمة و«فجأة يتذكر الله». والبطل نفسه بين هؤلاء جميعًا مناهض للثورة وهارب من جحيم الأحداث إلى حلم يراوده؛ فيرى فيما يرى النائم يوتوبيا أو دارًا مثالية «تخلو ... من منطق العلية وحساب اللحظات ... من آداب الحياة الصحيحة ونمط الوجود؛ بعيدًا عن سيطرة المادة والحتمية التاريخية والصدق المطلق للمثل ...». وفى أثناء استغراقه فى «أيام الغليان الآتية» تلوح صورة تلك الدار المثلى أو مدينته الفاضلة فى مخيلته من جديد.

تعبر الكاتبة من خلال قصتها عن حالة إحباط تعانيها، ولا تملك حيالها إلا أن تستغرق فى مثالية حالمة. وهذه النظرة اليوتوبية نجدها فى عدد غير قليل من الأعمال الأدبية، الشعرية والنثرية، الفارسية الحديثة والمعاصرة نتيجة لدائرة الإحباط المفرغة على الصعد السياسية

والاقتصادية والاجتماعية فى إيران منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى الوقت الحاضر. وتستخدم الكاتبة زمن المضارع فى سرد قصتها، ما يضفى على الأحداث سمة الحالية والتواتر السريع. ويدعم هذا التواتر والسرعة التكنيك الذى استخدمته الأديبة فى تداخل السرد الوصفى والحوار المباشر، فهى تصف الطبيعة وتتبعها بحوار بين الشخصيات، ثم تستأنف وصف الطبيعة أو الحلم، لتعود مرة أخرى إلى الحوار ... وهكذا حتى نهاية القصة، ما يعزز جو الاضطراب الخارجى والداخلى. ويمتزج فيها الواقع الأليم بالمثال البهيج.

ومع ذلك فلا شك أن الوقت لايزال مبكرًا للحكم على الأدب فى عهد الثورة الأخيرة واتجاهاته وتوجهاته سواء من حيث الشكل أو المضمون.

الهوامش

(١) للمزيد عن كاوه انظر الباب الثالث.

(٢) صدرت الطبعة الأولى عن دار كاوه للنشر فى سنة ١٩٢٢ فى ١٥١ صفحة، ثم أعيد طبعها عام ١٣٢٠ش (١٩٤١م) فى ١٢٨ص؛ وللمرة الثالثة عام ١٣٢٧ش (١٩٤٢م) (شركت سهامى چاپ) فى ١٣٥ص؛ وطبعة رابعة فى نفس العام؛ وخامسة (ابن سينا، ١٣٣٣ش/١٩٥٤) فى ١٥٩ص؛ وسادسة (كانون معرفت، ١٣٣٩ش/١٩٦٠م) فى ١٥٣ص؛ وتاسعة، ١٣٤٤ش/١٩٦٥م.

(٤)

فارسـى شـكـراسـت

كحكاية مقامية

تحليل أدبى من منظور آخر

ينظر معظم نقاد الغرب إلى الأدب الفارسى الحديث باعتباره ينحدر بصورة مباشرة عن الأدب الغربى ، وقد تبعهم فى زعمهم هذا معظم نقاد الأدب الإيرانيين بدورهم ، ونتيجة لذلك فإن أى عمل أدبى فارسى منذ الفترة السابقة للعهد الدستورى تقوم فى نظر هؤلاء النقاد من منظورين محددين ضيقين : أى نوع أدبى أوربى يندرج تحته العمل ، وإلى أى مدى روعيت فى بنائه المعايير الأدبية الأوربية ، ومن ثم فقد حشر كل عمل أدبى فارسى تعسفا فى إطار أدبى أوربى أو آخر دونما اعتبار للأشكال والأطر الأدبية الشرقية الأصيلة .

أهدف فى مقالى هذا إلى بيان منظور آخر للأدب الفارسى الحديث بصورة عامة والقصصى بصورة خاصة ، متخذا من فارسى شكراست

لمحمد على جمالزاده وهى أولى حكايات مجموعة يكى بود ويكى نبود (كان ياما كان ، ١٩٢١) كمثال تطبيقى لهذا المنظور التحليلى .

تدور الحكاية فى فارسى شكراست (الفارس سكر) حول مثقف إيرانى عائد من أوربا فى زيارة لأرض وطنه ، فيهبط بميناء إنزلى حيث ينتقد ويسخر من الأوضاع المتدهورة بالميناء كجزء من التدهور العام الذى شهدته البلاد فى ذلك الوقت ، يؤدى تعسف رئيس الجمارك واستبداده بالمثقف إلى الحبس المؤقت بسجن الميناء ، وفى زنزانته يلتقى المثقف بشخصين يمثلان فى الحكاية طرفى نقيض بالمجتمع الإيرانى ، وبعد برهة يلحق بثلاثتهم رابع يلقى به من باب الزنزانة إلى داخلها وهو « رمضان » البطل وهو ساق رقيق الحال بمقهى الميناء ، يدور حوار بين البطل - رمضان - وكل من الأشخاص الثلاثة ، ويقوم التوتر فى الحكاية على عدم قدرة البطل على فهم أسلوب الحديث بالفارسية لدى اثنين من النزلاء ، فيحاول المثقف أن يقنع البطل بأن الآخرين يتحدثان الفارسية أيضًا ولكن بأساليب مختلفة ، ويطلق سراح الأشخاص الأربعة ، وفى حين يبقى البطل بالميناء يغادر المثقف والشخصان الآخران المكان ، وفى الطريق يرى المثقف رئيسًا جديدًا للجمارك متجهًا صوب الميناء .

يرى كل النقاد تقريبًا فيمال يشبه الإجماع أن محمد على جمالزاده هو الكاتب الذى قدم القصة القصيرة كفن قصصى أوربى إلى الأدب الفارسى ، ويعتبرون هذه الحكاية على وجه الخصوص - فارسى شكراست - أول أعماله فى هذا النوع الأدبى ، وأرى من جانبى أن

فارسى شكراست لا تنتمى إلى القصة القصيرة الأوربية تماماً بل تندرج تحت نوع المقامة أو قصص الصعاليك فى آداب الشـرق الإسلامى ، أو بعبارة أخرى فإن فارسى شكراست أقرب إلى المقامة التقليدية المحلية منها إلى القصة القصيرة الأوربية .

ظهر فن المقامة فى الأدب العربى فى القرن العاشر الميلادى على أثر ظهور مجموعة مقامات بديع الزمان الهمذانى (توفى عام ١٠٠٨) ، وقد نشأت فى الأدب العربى كثورة على النفاق وازدواجية القيم بشكل عام فى المجتمع العربى وكدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى ، وكل وحدة مقامية هى حكاية قصيرة مستقلة كاملة تنسج حول شخصيتين خياليتين ، أحدهما نموذج للشخص الظريف المغامر إلا أنه بطل عاجز لا بطولى يطوف العالم الإسلامى بحثًا عن المعرفة ، والآخر « راوٍ » .

تحتوى فارسى شكراست على كل العناصر الأساسية للمقامية تقريباً :

١ – الإطار القصصى والبنية العامة .

٢ – البناء الهامشى للشخصيات .

٣ – شخصيتا : الراوى والبطل وما بينهما من علاقة تلميذ بأستاذه أو خادم بسيده .

٤ – اللغة كعنصر أساسى وكموضوع بالحكاية .

٥ – الإصلاح الاجتماعى كغرض أساسى .

٦ - السخرية كتكنيك أساسى .

٧ - النهاية المفتوحة .

يحدد الناقد الأدبى عبد الفتاح كيليتو (١) خطوات محددة تتبعًا بنية الحكاية فى فن المقامة وتتمثل معظمها بصورة شبه ثابتة فى تكنيك كل مقامة فى حين يختلف الموضوع من مقامة إلى أخرى وهذه الخطوات هى :

(أ) الراوى يحل بمدينة .

(ب) الراوى يتعرف على بطله .

(جـ) البطل يستعرض بلاغته أو ذكاءه .

(د) الراوى يلوم بطله على التخفى أو الاحتيال .

(هـ) البطل يبرر موقفه .

(و) الراوى يغادر المدينة أو المكان ويترك البطل وحده .

حين نطبق هذه البنية القصصية الموحدة فى التتابع المتباينة فى الموضوع على حكاية فارسى شكراست نجد ما يلى :

(١) Kilito, Adb el Fattah. " Le genre " Séance" : Une introduction", in : Studia Islamica, 43 (1976), PP. 25 - 51 .

(أ) الراوى ويقوم بدوره المثقف الذى يفد من أوربا إلى إيران ويهبط بميناء إنزلى .

(ب) يتعرف الراوى ببطله رمضان فى زنزانة الجمرك .

(جـ) يعبر رمضان عن إحساسه بالظلم مستخدمًا أسلوبًا فارسيًا « خالصًا » من لغة الحوار اليومى .

(د) المثقف يلوم البطل على سوء فهمه لأسلوب حديث النزيلين الآخرين وهما الفارسية المعربة لدى الشيخ والفارسية المفرنسة لدى المتفرنج .

(هـ) البطل يبرر إحباطه بغموض لغتى حديث النزيلين .

(و) بعد إطلاق سراحهما يرحل الراوى ورمضان ، فيغادر الأول الميناء بينما يبقى الآخر .

٢ - بناء الشخصيات : فيما عدا الشخصيتين الأساسيتين وهما الراوى والبطل لا يتم التركيز على تكوين الشخصيات كعنصر أساسى فى فن المقامة ، يلتقى البطل فى هذا الفن بالعديد من الأشخاص توظف فى مشهد أو اثنين تختفى .

والبطل فى فارسى شكراست هو رمضان وليس المثقف كما يبدو لأول وهلة ، أما المثقف فهو الراوى ، وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار كذلك أن البطل هو الشخصية الوحيدة المميزة باسم علم فى الحكاية ، أنه بطل مقامى أصيل ، فهو شاب فقير يعانى من ضربات القدر وظلم الآخرين ،

فيلقى به مأمور الجمرك فى السجن لغير سبب بين ، ويتضح اضطرابه النفسى من خلال خوفه من النزلاء الذين يستخدمون فى لغتهم الفارسية ألفاظا « غريبة » على سمعه من اللغتين العربية والفرنسية والتركية ، وفى الوقت نفسه يستخدم البطل كأداء لانتقاد بعض العيوب الاجتماعية وعلى الأخص تباين الأساليب اللغوية بين مختلف فئات الشعب مما يفرق بين الطبقات ويعرض الوحدة والتماسك الوطنى للخطر ، فتبرز مشكلة التباين فى أساليب الحديث بالفارسية كعرض من أعرض مشكلة أكبر واجهت المجتمع الإيرانى فى أثناء الفترة الدستورية وما تلاها ألا وهى انقسام المجتمع بين التقليدية والحداثة بين القديم والجديد ، بين الأصيل والوافد .

وإذا كانت شخصية المثقف (بلا اسم) تؤدى دور الراوى فى الحكاية المقامية وتقابل شخصية عيسى ابن هشام فى مقامات بديع الزمان الهمذانى فإن شخصية رمضان ترادف شخصية البطل أبى الفتح الإسكندرى ، أما الشخصيات الهامشية فهى رجل الدين (بلا اسم ولكنه يدعى باسم « الشيخ ») والمتغرب (أيضًا بلا اسم ويدعى « المتفرنج ») . والحملون بالميناء وحراس السجن وشخص من سلماس وآخر من اسطنبول ، ويقتصر دور هذه الشخصيات على عبارات موجزة دون مشاركة فعالة فى الأحداث ، ورغم أهمية شخصيتى : الشيخ والمتفرنج فى القصة إلا أنهما لا يشاركان فى الأحداث إلا فى حدود ما يمثله كل منهما ، أى أسلوب حديث كل منهما ، فيمثل الشيخ ضرباً من ضرب اللغة الفارسية مطعما بوفرة من الألفاظ والتعبيرات

العربية الأصل ، ويمثل المتفرج اللغة الفارسية المطعمة بألفاظ فرنسية ، أما البطل فيتحدث الفارسية الدارجة « الخالصة » ، ويقف الراوى بين ثلاثتهم كمثقف يجمع بين الأصيل والوافد ويلم بمختلف أساليب اللغة الفارسية إلا أنه يتحدث اللغة « الخالصة » ويدعو إلى تبنيها من جانب كل الإيرانيين باعتبارها عنصراً رئيسيًا يجمع بين مختلف طوائف المجتمع .

٣ - يقوم الراوى بدور الأستاذ الذى يوجه تلميذه « ويهديه » ، فيرشده إلى أن النزلاء الآخرين ، ليسوا بجن ولا مجانين ، بل « إخوة إيرانيين » وأن اللغة « التى يتحدثونها هى أيضًا فارسية ... » ، ويسعد البطل بدوره بوجود رفقة يسهل فهمها كشخصية المثقف الذى « أرسله الله استجابة لدعواتى » .

٤ - تمثل اللغة جزءًا جوهريًا من الحكاية وهى سمة من سمات المقامة بشكل عام ، فإظهار الفصاحة والمهارة فى استخدام اللغة العربية يمثل هدفًا رئيسيًا فى فن المقامة وفى فارسى شكراست تقوم الحكاية أساسًا على اللغة الفارسية والتباين بين أساليب الحديث لدى فئات المجتمع الإيرانى ، وبإظهار مهارة رمضان فى استخدام فارسية « خالصة » يستهجن كل من الأسلوبين الفارسيين المتعرب والمتفرنس وتبرز الدعوة إلى إصلاح لغوى يوحد بين مختلف الأساليب . ويتمثل فى الأسلوب « المحلى » .

٥ – إذا كان الإصلاح الاجتماعى أمرًا جوهريًا تقوم عليه الحكاية المقامية من الناحية الموضوعية فإن إصلاح اللغة يبدو كموضوع رئيسى فى حكاية فارسى شكراست باعتباره دعامة من دعامات حفظ الهوية الإيرانية المحلية .

٦ – يستخدم الهزل فى القصة كأداه للإصلاح الاجتماعى ، فتوضع شخصيتا كل من : رجل الدين والمتفرنج موضع السخرية باعتبارهما نموذجين لفئات اجتماعية تشذ عن الكيان الاجتماعى العام ، فيمثل مظهر رجل الدين ولكنته العربية الاتجاه التقليدى ، ويمثل المتفرنج بلغته الفرنسية اتجاه التغريب ، وبين هذين النقيضين يمثل البطل الهوية الإيرانية « الحقيقية » حسب رأى الكاتب .

٧ – وقد تركت نهاية القصة أيضًا مفتوحة ، فيرحل الراوى بينما يظل البطل فى الميناء فى الطريق يرى الراوى مأمور جمارك جديد فى طريقه نحو الميناء ، وهكذا يبرز احتمال أن يخضع البطل لجولة جديدة من الظلم والحبس على يد المأمور الجديد مما يعنى مغامرة جديدة للصعلوك .

وهكذا تشترك فارسى شكراست مع فن المقامة فى كل عناصرها الأساسية ، ولمزيد من الإيضاح نتخير إحدى مقامات الهمذانى كمثال ، فى المقامة القريضية تبدأ القصة بالراوية عيسى بن هشام يحكى وقائع رحلة له إلى جرجان الأقصى ، حيث بدأ تجارة وقد جعل من حانوته مقصداً لتدارس الشعر ، وذات يوم جلس عيسى مع جماعة من رفاقه

« نتذاكر القريض وأهله وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى إذا مال الكلام بنا ميله ، وجر الجدال فينا ذيله ، قال : قد أصبتم عذيقه ، وأوفيتم جذيله ، ولو شئت للفظت وأفضت ولو قلت لأصدرت وأوردت ، ولجلوت الحق في معرض بيان يسمع الصم » [1] . وهكذا يعرض الشاب فصاحته ويدلل على تفوقه في مناظرة الجماعة في الأدب واللغة ، ثم يقول عيسى بن هشام : « فأتلته ماتاح ، وأعرض عنا فراح ، فجعلت أنفيه وأثبته ، وأنكره وكأني أعرفه ، ثم دلتني عليه ثناياه ، فقلت : الإسكندري والله ... » .

في هذه المقامة نجد الراوية عيسى بن هشام - وبطله أبا الفتح الإسكندري يجتمعان دون أن يدرك الراوية حقيقة بطله المتخفي ، وكذلك في حكاية فارسي شكراست نجد الراوية - الشاب الإيراني المثقف - وبطله رمضان يجتمعان في السجن دون سابق معرفة ، وبينما يشارك بطل المقامة في مناظرة شعرية أمام جماعة تضم الراوي ، وينشغل بطل فارسي شكراست بأمور اللغة مع سائر نزلاء الزنزانة بما فيهم الراوي ، وإذ يدرك عيسى بن هشام حقيقة بطله المتخفي ، يدرك الإيراني المثقف مدى « أصالة » بطله رمضان ولغته الفارسية الخالصة .

* * *

(١) مقامات بديع الزمان الهمذاني . شرح محمد عبده ، ص ١ ، ٢ ، الدار المتحدة للنشر بيروت ، ١٩٨٣ .

(٥)

المقدمة الأدبية لمحمد على جمالزاده

(مقدمة مجموعة يكى بود ويكى نبود ، ١٩٢١)

صار الحديث عن الإسكندر عتيقًا

هـــات جـديدًا فللجـديد طـلاوة

«فرخى»

إن إيران المعاصرة قاصرة عن اللحاق بأغلب شعوب الدنيا فى مضمار الأدب ، ففى سائر الشعوب طرأ العديد من التغييرات على الأدب بمرور الزمن ، وقد انعكس شعاع هذه التغيرات على روح طبقات الأمم كلها ، فرغب كل إنسان من نشاء ورجال وأغنياء وفقراء ، من التلاميذ الصغار إلى الشيوخ الكبار فى القراءة مقبلين عليها ، مما كان باعثًا على السمو بمعنويات أفراد الأمم ، أما فى إيراننا فقد عد الخروج عن طريق الأولين هدمًا للأدب ، وعلى أية حال فإن روح الاستبدال

السياسي الإيراني الذي طبقت شهرته الآفاق قد انعكس على الأدب أيضًا ، أي أن الكاتب حين يمسك بقلمه يضع نصب عينيه جماعة الأفاضل السابقين والأدباء الأولين ولا يعر أي التفات إلى سواهم : وحتى أولئك الذين يتقنون القراءة والكتابة ويستطيعون قراءة الكتابات المبسطة غير المتكلفة ويفهمونها حق الفهم وهم كثر لا يكلفون أنفسهم الاطلاع عليها ولا يقربون كل ما يمت « للديمقراطية الأدبية » بصلة .

ولاشك أن المرء ليأسف لذلك الأمر خاصة في دولة كإيران حيث حال الجهل وتعامي بعض الناس دون المضي خطوة إلى الأمام على طريق التقدم ، أن أولئك الذين لهم كشف الحقائق وسعوا في سبيل كسب قوتهم الروحي ، أما من حق عليهم القول « كالأنعام بل هم أضَلّ » فسيظلون حتى قيام الساعة يتخبطون في جهلهم وذلتهم وظلماتهم حيارى لا يهتدون إذا لم يأخذ البعض بأيديهم ويرعاهم .

كانت هذه الأفكار باعثًا في أغلب الدول المتحضرة على إنشاء التعليم العام الإجباري ، فأراد أرباب العلم والبصيرة والفضل للعامة أن يحوزوا من درجات العلم والمعرفة نصيبًا أما إذا لم يفكر أهل العلم في ذلك متصورين أن العامة سيسعون بأنفسهم إلى إدراك ما للمعرفة من فوائد وينشطون للعلم والتحصيل ولا حاجة لأن يبذل الجهد وما عز من الوقت في هدايتهم فالله وحده يعلم متى يقضي الله للعامة بإدراك ذلك .

ولو كان هذا صحيحًا لكان كافة الإيرانيين الآن قد محيت أميتهم ، ولما كانت نسبة القادرين على القراءة والكتابة واحدًا بالمائة حسبما

يجرى الظن ، بل لكان ثلث شعب إيران أو ربعه غير أميين ، فى حين أن كلا منا نحن معشر الإيرانيين يعرف عدداً من الأعيان وكبار التجار وذوى المكانة من بنى قومنا ممن لم يكلفوا أنفسهم مشقة بذل شهر واحد من وقتهم فى سبيل تعلم القراءة والكتابة إلى الآن رغم توفر السبل أمامهم إلى ذلك .

ولا يزال حملة الأقلام فى بلدنا يستبعدون العامة من أذهانهم حين يكتبون ، فيدورون حول نفس الأساليب العتيقة التى لا يفهمها الناس ، فى حين أن الكتابة المبسطة غير المتكلفة والمفهومة لدى الناس قد غلبت على كافة الأساليب الأخرى فى الدول المتقدمة التى أمسكت بزمام الرقى فى يدها ، ورغم أن مواطنى تلك الدول قد درسوا بالمدارس ويعرفون القراءة والكتابة ولا يعجزهم فهم ما شق من الأساليب إلا أن الأسلوب السهل هو المستحسن عندهم ، ويسعى كتابهم دوما إلى إلباس اللغة الدارجة لأهل السوق والحارات بما تحويه من تغييرات واصطلاحات شائعة لباسا أدبيا ويزينونها بالبلاغة على الورق ، بل ويحاول كبار علمائهم أن يدونوا كتاباتهم بلغة ميسرة قدر الإمكان ، كما أن كثيراً منهم يقدمون الحقائق فى صورة حكايات لتيسير فهم الموضوعات العلمية ، ومثالنا على ذلك « فلاماريون » عالم الفلك الفرنسى الشهير ومن أشهر علماء العصر الحاضر وقد أخرج العديد من المسائل الهامة فى علوم الهيئة والفلك والرياضيات فى ثوب رواية أو حكاية ، وقد ترجمت هذه الحكايات إلى معظم لغات العالم وحازت القبول وعممت

الفائدة ، بينما لو أراد أن يوجه كلامه إلى أنداده لوفر على نفسه الوقت ، ولكن صوته ما كان ليصل إلا إلى عدد معدود من العلماء المهتمين بعلوم الهيئة والنجوم ، واليوم قد ملأ صوته أسماع الدنيا وأضفى المتعة إلى نفوس ملايين من البشر بمعرفة أسرار الطبيعة وخفايا الخليقة .

إن المرء إذا ما نظر إلى الأدب الأوربى المعاصر لظن لأول وهلة أنه قد أضحى فريسة التدهور والانحطاط لوفرة الروايات التى تشكل غالبيته ، والحقيقة أن رقى الأدب لم يبلغ ما بلغة اليوم فى أوربا من رقى فى أى عهد أو مكانٍ آخر فى الدنيا ، ونظرة سطحية إلى حياة أهل أوروبا التى أصبح الكتاب فيها من ضروريات الحياة مثله كمثل السكين والشوكة والجورب والمنديل تقريبًا تكفى للتدليل على ذلك ، ولا شك أن السبب الرئيسى فى ذلك هو يسر الأسلوب الأدبى فى الرويات والحكايات .

بالإضافة إلى الفوائد المذكورة فالرواية فوائد هامة أخرى : أولاً هى فى الحقيقة مدرسة لمن لا تترك لهم المتاعب اليومية فى سبيل كسب العيش وقتا أو فرصة للالتحاق بمدرسة أو إتمام دراستهم أو اكتساب النذر اليسير من المعنويات الدائمة التطور ومن لا طاقة لهم ولا مجال لقضاء الليل فى قراءة كتب علمية وفلسفية ، بينما الرواية تقدم لنا الكثير من المعلومات الضرورية والمفيدة بلغة عذبة وأسلوب جذب ممتع ينعش الروح ويبث الأفراح فينا ، فتغذينا بالمعارف سواء التاريخية أو العلمية أو الفسفية والأخلاقية ، كما أنها تعرف طبقات الأمة ببعضها البعض

حيث تجهل كل طبقة أحوال الطبقة الأخرى وأفكارها وحتى أدق جزئيات حياتها اليومية بحكم اختلاف المشاغل والأعمال والصحبة ، فابن المدينة مثلاً لا يدرى كيف تحمل العروس إلى دار زوجها فى القرية وابن القرية لا يعلم كيف تصل نساء المدينة النهار بالليل ، وفقراء المدينة لا علم لهم بشئون الموسرين والأعيان بنفس مدينتهم وكذلك الأغنياء بحال إجرائهم وخدمهم ، وفى إيران لا يصل إلى أسماع أهل المدن الكبرى شئ عن أوضاع بعضهم البعض وأخلاقهم وعاداتهم ، فالناس فى « قوتشان » مثلاً ربما لا يعلمون كيف يحتفل أهل طهران بعيد الأضحى وما إلى ذلك ، فالرواية تعرف فئات الشعب المختلفة وتقربها بعضها إلى بعض فتعرف الحضرى بالقروى ، والخادم بالتاجر والكردى بالبلوتشى والقشقائى بالكيلانى والفقيه بالصوفى والمتصوف بالزرادشتى ، والزرادشتى بالبابى والتلميذ بالرياضى والموظف بالبائع ، إنها تقرب بينهم وتزيل وتمحو ما قد ينشأ بينهم من خلافات متعصبة نتيجة جهلهم ببعضهم البعض ، ولمن يريدون التعرف على الحالات الاجتماعية والداخلية والروحية لسائر الشعوب والدول ولا طاقة لهم على الاطلاع على كتب التاريخ التى لا تشير إلا إلى حياة الشعب السياسية والعسكرية وبصورة ناقصة لا تكفى ليس هناك أفضل من قراءة الروايات المتعلقة بتلك الدولة وذلك الشعب ، فالشخص الكردى الذى يسكن سفح أحد جبال كردستان يستطيع من خلال الرواية أن يتعرف على الكثير من تفاصيل حياة جزيرة أيسلانده وعادات أهلها وهى واقعة فى الجانب

الآخر من العالم فى وسط المحيط وربما لم تطأ أرضها إلى اليوم قدم إيرانى ، والعكس صحيح أيضاً .

يمكن القول إن الرواية هى أفضل مرآة تعكس أحوال الشعوب والأقوام الأخلاقية وسجاياهم الخاصة ، فالتعرف على الشعب الروسى من بعيد ليس أفضل من قراءة كتب تولستوى ودوستويفسكى ، وللأجنبى الذى يود التعرف على الإيرانيين لا شيء يفوق كتاب حاجى بابا لموربيه أو جنكك تركمان وقنبر على لكونت غوبينو ، ولما كان الإنسان بوجه عام يميل إلى قراءة محتويات الرواية فإنه من الممكن بث مختلف ضروب الدعاية « بروباجندا » سياسية وغير سياسية ، فلا شك أن الجزائر مثلاً لديها عدد من الكتاب المهرة الذين تشتهر أعمالهم ورواياتهم نفس شهرة روايات ستكيوبتش الهولندى فى أوروبا وأمريكا ، كل من رواياتهم هذه كان لها نفس شأن عدة أفواج من جيش ومئات من الخطب البليغة الغراء حيث اجتذبت تعاطف العالم إلى تلك الدولة وشعبها وكانت سنداً له وعوناً .

ومن أهم مزايا الرواية والكتابة الروائية هى الميزة المتعلقة بلغة الأمة ، فمجرد الكتابة القصصية التى تهدف إلى تدوين قصة أو حكاية سواء على صورة كتاب أو عمل مسرحى أو رسالة وما إلى ذلك يمكن أن تصنع معجما للألفاظ والتعبيرات والأمثال والاصطلاحات ومختلف ضروب الكلام واللهجات فى زمن ما ، بل ويمكن أن تكون وعاء يحفظ لكنات مختلف الطبقات والفئات فى أمة ما ، بينما لا تستطيع الكتابات القديمة (الكلاسيكية) والعلمية وغيرها أن تؤدى هذه المهمة ، فنادرا

ما يمكن لهذه الكتابات أن تدل على طريقة استخدام الألفاظ خارج نطاق الألفاظ والاصطلاحات الخاصةبها ، فعلى سبيل المثال نادراً ما يحدث أن يترك شاعرنا فن الغزل والقصيدة وهما أوسع أشكال الشعر انتشاراً فى إيران وينبرى ليجمع كل الألفاظ والتعبيرات الخاصة بالنوروز والصيد فى قصيدة أو قطعة عن النوروز والصيد أو غير ذلك ، وإذا فرض أن فعل ذلك فإنه يضطر إلى تنحية جانب هام من الألفاظ والتعبيرات المذكورة مما يتعارض مع الوزن الشعرى والفصاحة وقد أدت محدودية دائرة الكلمات والتعبيرات وما إليها بالأجانب الذين يريدون تعلم اللغة الفارسية عن طريق الكتاب والدرس إلى أن يلفظوا لغة بهذه السهولة بطريقة تجعلنا نحن - الإيرانيين - نغرق فى الضحك أن سمعناها ، فالعثمانيون الذين فرض عليهم تعلم اللغة الفارسية وتعليمها فى مدارسهم كانوا يحفظون عدداً من الألفاظ المرادفة للفظ « الحبيبة » ، « مثل » ، « دوست » ، « يار » ، « دلدار » ، « جانان » ، « دلبر » ، « نكار » وغير ذلك لكنهم لم يكونوا يعلمون أن هذه الحبيبة كانت توقد النار بملقاط أو أن ضربة من كفها على وجه متغزل وقح كانت تسمى « صفعة » (جك ، كشيدة) ، حدث أن ألقى كاتب هذه السطور بواحد من مشاهيره أدباء العثمانيين كان يحفظ عدة آلاف من الأبيات من دواوين شعراء إيران عن ظهر قلب ورغم هذا كنا نضطر إلى عرض حديثنا البسيط باللغة الفرنسية وإلا ما كان ليفهم فارسيتى وقليلاً ما كنت أدرك فارسيته ، وسبب ذلك معروف : عدم توفر كتاب مدون بلغة إيران المعاصرة الدارجة يدرس متنه ، وكتابنا بوجه عام يعتبرون كتابة

النثر بأقلامهم على الورق تحقيراً لمكانتهم وأن أرادوا أن يكتبوا نثراً فمحال أن يتدنوا عن كلستان سعدى درجة واحدة .

كتب باربيه دو مينار (Barbier de Meynard) المستشرق الفرنسى الشهير فى مقدمة ترجمته لتمثيليات ميرزا فتحعلى آخوندوف بشأن افتقاد الكتاب المكتوب باللغة الفارسية الدارجة فى متناول الطلاب الأوروبيين الراغبين فى تعلم الفارسية يقول : « مطلوب من أهل الشرق أنفسهم أن يأتونا بنموذج من لغتهم المتداولة ، ولكنهم للأسف لا يملكون من ذلك الكثير ، وليس ذلك غريباً على من هم على علم بالقواعد الأدبية بالعالم الإسلامى ، فإذا أراد أحد الناس فى العالم الإسلامى أن يكتب مثلما يتحدث مستخدما الألفاظ المتداولة وأبنية الكلام الدارجة وأسلوب الحديث الجارى فى كتاب كان ذلك من دواعى التدنى وتحقير الذات وتدنيس المقدسات ويرمى بخيانة المعانى والبيان وعلى أية حال يصير كلامه لغوا باطلا يستوجب الذم واللعنات ! » .

ومما يدعو إلى الدهشة أن كتابا وأدباء من أمثال حسنعلى خان أمير نظام وميرزا أبو القاسم قائمقام وميرزا عبد الوهاب نشاط وغيرهم ممن اتبعوا البساطة فى كتاباتهم ونأوا بأنفسهم عن تقليد السابقين قد حظوا بالاستحسان العام فى العهود الأخيرة ومن كتاباتهم ما أعيد طبعه مرات عدة ، ومع ذلك لم ينتبه أدباؤنا إلى هذا بعد ولم يمنح خوفهم ورهبتهم .

خلاصة القول إن الكتابة القصصية هى أفضل الكتابات لاستخدام الألفاظ ، ومن ثم فإن ألفاظ اللغة وكلماتها حين تحفظ ويتحدد موقع استخدامها تصبح الراوية والقصة أفضل الكنوز إذا ما اندثرت الألفاظ والكلمات بمرور الزمن لتحل محلها ألفاظ وتعبيرات جديدة ، بل ويكون لها الفضل على المعاجم والقواميس ، فالمعجم مهما دق شرحه وتفصيله إلا أنه لا يورد المواضع المختلفة والمتعددة لاستخدامات اللفظ والاصطلاح كما ينبغى ، فى حين أن الرواية تؤدى هذه التبعة حق الأداء ، كما أن هناك كثرة من الألفاظ والتعبيرات والاصطلاحات والإشارات اللغوية لا ترد أصلاً فى المعاجم من قبيل الألفاظ المتداولة بين « المعلمين » والأوباش وما يشيع فى أوساط خاصة من الشعب مما يستحيل أن يجمعه ويضبطه معجم ، فعلى سبيل المثال حين يسمع المتحدثون بالفارسية اليوم أو حين يقرءون تعبير « سيد على رابيا » خلى بالك » فى حضرة شخص ما محل اللمز » فإنهم يدركون على الفور ما يقصده القائل أو الكاتب ، ولكن تحت أى لفظ يندرج فى المعجم مثل هذا التعبير .

جمع كاتب هذه السطور فى آخر هذا الكتاب (يكى بود ويكى نبود) العديد من الألفاظ العامية المتداولة بين الطبقات الدنيا وأهل السوق مما يطلق عليه بالفرنسية اسم « أرجون » وقد نظم عدد من مشاهير شعراء فرنسا أمثال فرانسوا دى ڤيون F. de Villion) وجان ريشبان (J. Richepin) وهما اليوم عضوان فى مجمع اللغة الفرنسية أشعاراً ودونوا كتبا بهذه اللغة ، إن هذه الألفاظ يجب أن تحفظ وتضبط

بمعانيها الثابتة والدقيقة مثل ألفاظ « الخبز » المعروفة لكافة المتحدثين بالفارسية ، فذلك يؤدى إلى الأدباء وذوى الفضل أن يستخدموا صفوة هذه الألفاظ فى كتاباتهم حتى تدخل نطاق اللغة الأدبية شيئًا فشيئًا ، كما يحدث فى سائر الدول . خاصة وأن كثرة من هذه الألفاظ مثل « بامبول » (خدعة) و« دبه دراوردن » (يخلف وعدا) و« خل » (صمولة) وغيرها هى أصلاً بلا مرادفات أى لا وجود لكلمات أخرى تؤدى نفس المعنى الدقيق لها ، فالكاتب حين الضرورة إما يضطر إلى التغاضى عن ذكر فكرته أو لا يجد بدا من استخدام هذه الألفاظ إذا شاء الإصرار على فكرته ، وربما يعتقد البعض أنه لا يجب استخدام الألفاظ والتعبيرات التى كان الأقدمون يحجمون عن استخدامها ، ولكن اليوم ثبت علميا أن الأفكار والمشاعر والأذواق تخضع ككل شىء فى الدنيا لسنة التطور ، ولما كانت الألفاظ والكلمات تظهر إلى الوجود بعد ظهور المعانى والأشياء فلابد أن تظهر إلى الوجود ألفاظ وتعبيرات جديدة ، ومعروف أن الإحجام عن استعمال هذه الكلمات يوقع الكاتب فى مشكلات ومصاعب ، وبَدَهِى أنه فى هذه الحالة لا الفكرة تنضج نضجًا طيبا ولا العبارة تخلو من التصنيع والتعقيد ، والحقيقة أن الإعراض عن الجديد من اللفظ والقناعة بالقديم منه لما يستحدث من أفكار ومعانٍ هو فى حكم من يود أن يلبس رداء طفل رضيع لفتى يافع قوى ، يقول فيكتور هوجو الشاعر الفرنسى الشهير فى هذا الصدد :

« إن اللغة لا تتوقف أبدًا ولا تنتظر ، وفكر الإنسان دائمًا فى تطور أو بعبارة أخرى فى حالة حركة ، واللغات وراءه أيضًا فى تطور وحركة ،

تلك سنة الحياة ، حين يتغير البدن كيف يظل الرداء دون تغيير ؟ إن اللغة الفرنسية بالقرن التاسع عشر لا يمكن أن تظل هى فرنسية القرن الثامن عشر ، أو فرنسية القرن السابع عشر ، فلغة مونتين[١] تختلف عن رابولية[٢] (F. Rabelais) ولغة باسكال[٣] غير لغة مونتين ، وليست لغة مونتسكيو[٤] كلغة باسكال ، مع ذلك فإن كلا من هذه الفرنسيات الأربع غاية فى السمو فى حد ذاتها ، إذ لكل منها سمتها الميزة ، لكل عهد مجموعة من الأفكار والمعانى الخاصة ولابد من وجود الكلمات والألفاظ التى تدل عليها ، إن اللغة كالبحر فى دوام حركتها وتطورها ، وفى كل حين تبعد عن شواطئ عالم فكرى لتطوى شاطئا آخر تحت أمواجها ، وكل ما يتخلف عن الأمواج يجف تدريجيًا ويندثر ، بنفس هذه الطريقة يطوى النسيان الأفكار والألفاظ فتنمحى ، فاللغة مثلها مثل أى شيء فى الدنيا ، فى كل قرن من الزمان تقل هاهنا قدراً لتزيد هاهنا مقداراً ، ذلك قانون الحياة ولا حيلة فيه ولا ينبغى السعى هباء إلى تجميد جسد اللغة المتحرك فى قالب محدد ، أن هذا هو ديدن أتباع يوشع[٥] فى الأدب الذين يحكمون على شمس اللغة بالتوقف والجمود ، فاللغة كالشمس لا توقف لها ولا جمود ولا تتوقف إلا حين ينتهى أجلها وتموت[٦] .

إن أبناء وطننا ممن يبدون وجهة نظرهم فى النقاط السالفة الذكر يظنون بصورة عامة أن إصلاح الأدب الفارسى منوط بتشكيل جمعية أو لجنة من الأدباء وذوى الفضل من العلماء يأتمرون لمناقشة ما يلزم ويفيد إيران من اصطلاحات فى عالم الأدب ، وأى نوع من الألفاظ والتعبيرات

يستطيع كل كاتب أن يتخير وأيها لا ينبغى استعماله ، فيكون للجنة المذكورة من سيطرة على أدب الدولة ما لمجلس الشورى القوى من سلطة تشريعية ، ويرى كاتب هذه السطور أن هذا الرأى مبعثه أن السادة المذكورين قد سمعوا بتأسيس لجنة فى فرنسا باسم « أكاديمى » ترعى شئون الأدب ، وتصوروا أن رقى الأدب فى تلك الدولة يعود الفضل فيه إلى تلك اللجنة ، ومن ثم فقد رأوا أن وجود لجنة مثلها أمر ضرورى لإيران أيضًا ، ونحن لا ننكر فضل مثل هذه اللجنة ، ولكن ينبغى أن نعلم أن مهمة الـ « أكاديمى فرانسيز » لا تتعدى وضع المعاجم اللغوية الفرنسية ، ولا اختيار لها غير طريق الترغيب والتشجيع لا أكثر ، كما أن هناك العديد من الدول المتقدمة الكبرى لديها آداب راقية بينما ليست لديها لجنة أدبية مثل الـ « أكاديمى فرانسيز » ، وقد تنبه إلى هذه النقطة السيد محمد على خان ذكاء الملك فروغى ، وفى خطابه بتاريخ رجب من عام ١٣٢٢ (هجرية) فى مناسبة تخريج الدفعة الثالثة والعشرين بالمدرسة الأمريكية بتهران قال فيما يتعلق بالأدب الفارسى :

« وهناك كذلك من الأفكار الغربية التى تراود بعض الإخوة ما يختص بضرورة إنشاء لجان علمية وأدبية أو أكاديميات بغرض تطوير اللغة الفارسية ، تكون مهمته وضع الألفاظ واشتقاق التراكيب الجديدة ، فظنوا أن أكاديميات والجمعيات العلمية والأدبية فى الدول الأجنبية تقوم بذلك غافلين عن أن وضع الألفاظ واشتقاق التراكيب ليس من شأن اللجان بل أن أهل العلم والفضل يتخيرون حين الضرورة اصطلاحات

ضمن كتاباتهم وحسب قدراتهم ومواهبهم ، ولما كانوا يتخيرون تلك الاصطلاحات حسب قواعد منظمة فإنها بالطبع تحوز القبول وتنتشر ، وإذا كانت اللجان العلمية والأدبية تعمل فى طرق تطوير العلم والأدب ففى مجالات أخرى ومهمتها فى الغالب هى تشجيع أهل الكمال وترغيبهم وتسهيل مهامهم .

(صحيفة « عصر جديد » العدد ٣٥ عام ١٣٣٣)

إننا إذا قسنا تطور آداب الأمم الأخرى ورقيها وأردنا أن نرى أى سبيل اتبعته تلك الأمم للرقى بآدابها بغرض توجيه إيران إلى نفس السبيل من السهل أن نلاحظ أن أفضل سبيل للارتقاء بالأدب الإيرانى المعاصر هو أن أدباءنا الذين يجددون شبابهم الأدبى كل عام أو كل عدة أعوام من خلال معارضة قصيدة أو غزلية شهيرة لأحد الشعراء الأقدمين أو الأحدث بمناسبة عيد أو حفل أو ما إلى ذلك يوسعون ميدان صولات أقلامهم ويقتحمون مختلف أفرع الأدب من شعر ونثر وخاصة النثر القصصى الذى أصبح اليوم مرآة آداب أغلب الأمم وبمؤلفاتهم وكتاباتهم هم ينفثون روحًا جديدة فى جسد أدبنا المتبلد ويهبون سوقه الكاسدة رواجًا وزينة جديدة بدرر بيانهم وفكرهم السامى ، وإذا ما أولى أهل العلم والبصيرة اهتمامهم للكتابة تجد الكلمات والاصطلاحات الجديدة طريقها إلى اللغة تدريجيًامن خلال أذواقهم السلمية وحسهم الوضاء مع مراعاة القواعد والضرورات وبحيث لا تتنافى مع روح اللغة ، كما أن اللغة تصقل وتتهذب ضمنا ، وكما تجرى الرياضة الجسمانية دما وقوة جديدين فى عروق الإنسان تجرى الرواية فى عروق الأدب دما

جديداً وشيئًا فشيئًا يتألق أدبنا ويزدهر ويصبح مدعاة فخر كل إيرانى كما كان أدب الأقدمين .

لكل ما ذكرناه وبتشجيع عدد من الأصدقاء النابهين وخاصة حضرة العلامة الكاتب الفاضل الشهير آقا ميرزا محمد خان قزوينى الذى أدين له بدوام العرفان على نصائحة الأدبية فقد نوى كاتب هذه السطور أن يطبع عدداً من الحكايات والقصص التى كنت قد دونتها على مر الأيام لمجرد التسلية ، عسى أن يكون صوتى الضعيف كصياح ديك السحر يوقظ القافلة الغافلة وأن يكون بداية خير فينتبه الأدباء والعلماء فى بلدنا إلى ضرورات العصر فلا يدعون بدائع فكرهم كالشمس خافية وراء غيوم واهنة أو كالدر الثمين تحجبه أصداف عقيمة ، وإنه ليحدونى الأمل أن تحوز هذه الحكايات الهاذية بكل ما بها من اضطراب وتهافت قبول أصحاب الذوق وأن تفتح طريقًا جديداً أمام صولات القلم المقتدر فى أيدى كتابنا الحقيقيين ولا أمل لى سوى أن أحوز هذا الجزاء عوضاً عما بذلت من نصب .

سيد محمد على جمالزاده

برلين ، غرة ذى القعدة ١٣٣٧

الهوامش

(١) M. Montaigne الفيلسوف الفرنسى الشهير (٩٣٩ - ١٠٠٠ هجرية) .

(٢) F. Rabelais الكاتب الفرنسى القديم الشهير (٩٤٣ هجرية) .

(٣) B. Pascal عالم الرياضيات الشهير والفيلسوف الفرنسى الشهير (١٠٣٢ - ١٠٧٢ هجرية) .

(٤) Ch. Montesqueiu الكاتب الفرنسى الشهير ومؤلف كتاب « رسائل إيرانية » وكتاب « روح القوانين » .

(٥) يوشع Josuê قاد العبرانيين بعد موسى واستولى على أرض كنعان ، وتذكر التوراة إنه فى زمن الحرب مع ملك بيت المقدس أمر الشمس بالتوقف حين جن الليل ولم يحقق النصر بعد .

(٦) نقلا عن المقدمة الشهيرة التى كتبها فيكتور هوجو لكتاب « كرمول » وقد أصبحت دستور الأدباء التجديديين (الرومانسيين) .

الفارسی سكر

محمد علی جمالزاده

لا مكان فی الدنيا يُبطش فيه بالخبيث والطيب على السواء دون تمييز مثل إيران. بعد خمس سنوات من الغربة وتجرع الألم، لم تكد عيناى تقعان على تراب إيران الطاهر من فوق سطح السفينة حتى ترامت إلى سمعى أصوات حمالى (ميناء) أنزَلى بلهجتهم الجيلانية وهم ينادون: «اطلع يا حبيبى، اطلع!» وكالنمل إذ يحيط بجرادة ميتة أحاطوا بالسفينة يلقون بلاءهم على الركاب. فوقعت ذقن كل راكب فی قبضة حفنة من المراكبية وأصحاب القوارب والحمالين. ولكن من بين كل المسافرين كان أمرى أشد عسراً؛ إذ كان الآخرون عامة من التجار ذوى اللبادة الطويلة والطاقية القصيرة من أهالى باكو ورشت ممن لا يفتحون حافظة نقودهم ولو بقوة العصى والهراوات ويسلمون أرواحهم لعزرائيل ولا يرى أحد لون مالهم. أما أنا التعس المسكين فلم أجد فرصة لكى أخلع القبعة الافرنجية، فظلت على رأسى من أوروبا إلى هنا. فظن إخواننا إياهم أننى «ابن ناس» و «لقمة طرية»، فأحاطوا بى يصيحون «يا خواجة»، «يا خواجة» فصارت كل قطعة من عفشى من نصيب عشرة

رءوس من الحمالين وخمسة عشر من المراكبية الظلمة وبالقوة. وعلا الصياح والصراخ والعراك دون سبب واضح. وقفت حائرًا مذهولاً أحس بالدوار. فبأى حيلة أخلّص رقبتى من قبضة هؤلاء المغيرين وكيف أفلت من حصارهم. وفى هذه الأثناء انشقت الصفوف عن اثنين من موظفى الجوازات المتغطرسين العابسين ويرفقتهما عدد من السعاة. كانوا يرتدون ثيابًا حمر وعلى رءوسهم طرابيش عليها رمز الأسد والشمس ووجوههم عابسة مكفهرة وشواربهم كثة تصل إلى عوارضهم وتهتز مع نسيم البحر كأنها بيارق الجوع. هبطوا جميعًا علينا كالقضاء. وما إن وقعت عيونهم على جواز سفرى حتى كانوا كمن ضربتهم الصاعقة أو تلقوا نبأ اغتيال الشاه أو جاءهم أمر عزرائيل المطاع. حركوا شفاههم وأفواههم وهزوا رءوسهم وآذانهم ثم نظروا إلىّ وقاسوا قدى وقامتى من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى عدة مرات كأنهم «يفصلون لى عباءة» كما يقول أهل طهران. وفى النهاية قال أحدهم: «كيف؟ هل أنت إيراني؟». قلت ما شاء الله سؤالك غريب. إذن من أين تريدنى أن أكون. طبعًا إيرانى، وسابع أجدادى كان إيرانيًا أيضًا. فى حى سنكلج بأكمله أشهر من نار على علم ولن تجد فيه من لا يعرف «محسوبك».

ولكن «المعلم خير» لم يدخل رأسه هذا الكلام وبات واضحًا أن المسألة ليست مسألة قرش أو مئة جنيه، فأصدر أوامره إلى السعاة بالتحفظ الفورى على «السير الخواجة» حتى «تجرى معه التحقيقات اللازمة». أحد هؤلاء السعاة على رأسه عمامة مخططة يبرز منها غصن

خشبى يبدو كقبضة سيف، مد يده وقبض على مرفقى وقال «امش أمامى». فقدرت الموقف وسكت خوفًا.

فى البداية أردت أن أصرخ وأحدث ضجة، لكنى رأيت أن الجو غير مناسب وأن الصلاح فى المعقول. ما ألقى الله حتى بكافر فى قبضة جيش السعاة! ولك أن تتصور ما فعل بنا هؤلاء - سامح الله آباءهم - فى الحال. الشيئان الوحيدان اللذان استطعت أن أخرج بهما سليمين من أيديهم قبعتى الإفرنجية وإيمانى. كان واضحًا أن أحدًا لم يكن بحاجة إليهما. وفيما عدا ذلك لم يبقوا على جيب أو إبط أو ثقب إلا أخلوه فى غمضة عين. وحين رأوا أنهم أدوا واجبهم الميرى على خير وجه ألقوا بى فى زنزانة معتمة خلف جمرك ساحل أنزلى تبدو أول ليلة بالقبر نهارًا منيرًا بالمقارنة بها، ونسج فوج من العناكب على بابها وجدرانها ستارًا، وأغلقوا الباب وراءهم ومضوا وأسلمونى لله.

فى الطريق حين كنت آتيًا بالقارب من السفينة إلى الساحل كنت أدركت من حديث الناس والمراكبية أن اشتباكًا وقع مرة أخرى فى طهران بين الشاه والمجلس النيابى وبدأ النزاع من جديد، وصدر قرار خاص من العاصمة بإحكام الرقابة على تردد المسافرين وبات واضحًا أن كل هذه الضجة ترجع لهذا السبب، خاصة أم مأمورًا غير عادى كان وصل صباح اليوم من رشت لهذا الغرض، فأخذ يبطش بالخبيث والطيب دون تمييز لمجرد إظهار الكفاءة والحنكة والقدرة على العمل. فأطلق كالكلب المسعور على أرواح الأبرياء. وضمن بطشه أخذ يناهض المحافظ المسكين إذ كان طامعًا فى حكومة أنزلى لنفسه. ومنذ صباح ذلك اليوم

لم يترك لخط تلغراف أنزلى - طهران دقيقة واحدة للراحة من طول إظهاره لأدائه لواجبه.

فى أول الأمر ظللت فترة لا ترى عيناى شيئًا، فبلغ بى الضيق مبلغه. ولكن بعد أن تعودت عيناى شيئًا فشيئًا على عتمة الزنزانة تبين أن ثم ضيوفًا آخرين برفقتى. وقعت عيناى أول ما وقعت على أحد هؤلاء المتفرنجين إياهم ممن سيظلون فى إيران حتى قيام الساعة نموذجًا ومثالاً للخلاعة واللغو والجهل، ويقينًا سيظل سلوكهم وأفعالهم تجعل مسارح إيران (كفى الله الشر) تتقيأ أمعاءها من الضحك لمئة سنة أخرى.

أخونا المتفرنج كانت ياقة قميصه فى ارتفاع ماسورة السماور[١] ودخان ديزل القوقاز يكاد يشبهها فى لونها؛ كان جالسًا على حافة النافذة، وتحت ضغط هذه الياقة المشدودة على عنقه كالأصفاد كان مستغرقًا فى قراءة «رواية» فى هذه العتمة.

أردت أن أتقدم نحوه و «أسبك» عليه «بون جور موسيو» وأبين للأخ أننا أيضًا «فاهمين اللعبة»، لكن صوت صفير بلغ مسامعى من أحد أركان الحجز، فالتفتّ ناحيته. وفى ذلك الركن استرعى انتباهى شيء ظننته لأول وهلة ذيل قطة بيضاء براقة تكورت غافية على جوال من تراب الفحم. ولكن لا؛ تبين كان شيخًا احتضن ركبتيه على عادة الكتّاب وجلس القرفصاء لافًا عباءته حوله حتى أذنيه وكانت القطة البيضاء البراقة عمامته المائلة وقد أفلت رباط ذيلها فاتخذ هيئة ذيل قطة، وكان هذا الصفير صوت تسبيحه.

ثم اتضح أن الضيوف ثلاثة، فأخذت هذا الرقم على محمل الفأل الحسن وأردت أن أفتح الكلام مع الزملاء لعلنا نواسى بعضنا البعض ونبحث عن وسيلة، فإذا بباب الحجز ينفتح على مصراعيه ويلقّى منه إلى داخل الحجز بشاب تعس على رأسه طاقية لباد ويسبقه صياح وضجيج، ثم يغلق الباب. تبين أن المأمور الذى جاء خصيصًا من رشت ألقى إلى السجن بهذا الصبى البرىء بغرض ترهيب أهالى أنزلى، وكل جرمه أنه قبل سنوات وفى بدايات اضطرابات الحركة الدستورية والاستبداد كان يعمل خادمًا لدى أحد أهالى القوقاز. وعندما وجد «الأخ» الجديد أن البكاء والعويل والأنين لا تشفى ألمًا مسح عينيه بطرف عباءته القذرة. وحين أدرك ألا أحد من الحراس وراء الباب أطلق على آباء الجميع وأجدادهم سيلاً من الشتائم الفاحشة التى لا تجد مثلها إلا فى إيران كالبطيخ الكركاب والتبغ الحكان، أتبعها بعدد من الركلات بقدمه الحافية إلى الباب والجدار. وعندما رأى مدى قذارة الحجز وأنه أقذر من قلب المأمور بصق على الأرض بصقة تسليم وألقى نظرة على زنزانة الحجز وأدرك أنه ليس وحده. أما أنا فكنت «خواجة» ولم يكن له شأن بى. ولم تستسغ عيناه منظر المتفرنج أيضًا؛ فسار حسيسًا نحو«سيدنا الشيخ». وبعد أن نظر إليه فى دهشة لبعض الوقت قال وصوته يرتعد: «يا سيدنا الشيخ، أستحلفك بالله وبحضرة الشاه عباس،[٢] ما جريمتى؟ والله الواحد يقتل نفسه ويستريح من ظلم الناس!».

سمع سيدنا الشيخ هذه الكلمات وتحركت عمامته كأنها سحابة بطيئة فبدت من ثناياها عينان ألقيا نظرة واهنة على ذى الطاقية اللباد.

ومن منفذ الصوت الذى كان يُفترض أنه يقع أسفل هاتين العينين والذى لم يكن ظاهرًا، بلغت مسامع الحاضرين الكلمات التالية هادئة وفى غاية القوة والوضوح: «يا مؤمن! لا تسلم عنان نفسك العاصية القاصرة لسورة الغضب. فالكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ...».

ذهل الصبى ذو الطاقية اللباد لدى سماعه هذا الكلام ولم يفهم من كلام حضرة الشيخ سوى كلمة «كاظمين» فقال: «لا يا فندم، اسم خادمك ليس كاظم، بل رمضان. كل قصدى ليتنى أفهم بأية تهمة ندفن أحياء فى هذا المكان».

مرة أخرى وبنفس القوة والوضوح صدرت من ذلك الركن المقدس هذه الكلمات: «جزاك الله يا مؤمن، أدرك العبد الفقير مقصدك. الصبر مفتاح الفرج. أرجو أن ينجلى سبب الحبس عما قريب. وبلا أدنى شك وبأى نحو كان وسواء عاجلاً أو آجلاً سيبلغ أسماعنا. وحتى ذلك الحين وفى وقت الانتظار فإن أفضل الأمور وأنفعها ذكر الخالق، فهو على كل حال نعم الاشتغال».

لم يفهم رمضان المسكين الغلبان كلمة من فارسية حضرة الشيخ. ويبدو أنه ظن أن الشيخ يتحدث مع الجن والعفاريت أو أنه منهمك فى تلاوة أوراد وتعازيم. فبدت آثار الخوف والهلع على وجناته، فهمس بالبسملة وأخذ يتراجع شيئًا فشيئًا. إلا أن جناب الشيخ انطلق لسانه المبارك وبدون أن يوجه حديثه إلى أحد بعينه ركز ناظريه على أعلى الجدار وهام فى أفكاره وقال بنفس وضوحه المعهود: «ربما تم القبض

علينا لمصلحة أو عن غير قصد أصلاً. ولأجل ذلك يحدونى الأمل الواثق أن يُرفع البلاء عما قريب. ولعلهم ظنوا أن العبد الفقير لا قيمة له فعرضونى للتهلكة والدمار التدريجى دونما مراعاة للمقامات والمراتب. وبناء عليه ينبغى علينا أن نطلب الغوث من الجهات العليا بأى نحو كان بواسطة الغير أو بلا واسطة، كتابةً أو شفاهةً، علنًا أو فى الخفاء، وبلا ريب ومصداقًا لقول «من جد وجد» سيتحقق المرام ونبلغ المراد وستثبت براءتنا ما بين الأماثل والأقران كالشمس فى وضح النهار».

استولى الذهول على رمضان المسكين فجال ببصره فى زنزانة الحجز ثم نظر كمن أغشى عليه إلى الشيخ نظرات مذعورة وأخذ يستعيذ من الشيطان همسًا وتلا ما يشبه آية الكرسى وأخذ ينفخ حوله. كان واضحًا أن أفكاره تشتتت، وساعدت حلكة الظلام على ذلك، فلانت مفاصله من الهول. انفطر قلبى اشفاقًا عليه. أما جناب الشيخ فلم يتوقف عن الكلام وكأن لسانه لان أو «أصابه سلس القول» كما يقول المشايخ أنفسهم. فشمر عن ساعديه حتى المرفقين وكانا من كثافة الشعر عليهما يشبهان – كفاكم الله السوء – قوائم الخروف. ونهض على ركبتيه وطرح عمامته إلى الخلف وبدون أن يرفع عينيه عن قمة ذلك الجدار المسكين. كان يوجه كلامه إلى المأمور غيبًا بإشارات غريبة وصيحات زاجرة. وكمن يريد أن يكتب إليه التماسًا أخذ فى سرد ألقاب وصفات من قبيل «العلقة مضغة» و «فاسد العقيدة» و «شارب الخمر» و«تارك الصلاة» و «ملعون الأبوين» و «ابن الزنا» وغير ذلك مما لم يعلق من كثرته شىء فى ذاكرتى وما يكفى لاستباحة النفس والمال وتحريم

النساء على بيت كل مسلم. وظل لفترة يتحدث بكل اطمئنان ووقار وحرقة وحسرة عن «الاستهانة بأولى العلم وخدام الشريعة المطهرة» وما يلاقون من «إهانة وإذلال في كل ساعة». وألقى عليهم «عاقبة السوء في الدنيا والآخرة». وشيئًا فشيئًا أخذ وعظه يشتد غموضًا وتداخلاً حتى بلغ درجة يستحيل معها على رمضان أو جد رمضان أن يستوعب منها كلمة واحدة. حتى أنا لم أفهم من كل ما قال الشيخ شيئًا مع أنى كنت أتقعر باللغة العربية وقضيت من عمرى الغالى سنين عدة أضرب زيدًا في عمرو وأظل باسم الدرس أستذكر من الصباح إلى المساء مختلف أسماء مصادر الضرب والشجار وسائر الأفعال الذميمة والصحيح والسالم والأجوف، ووعد مختلى العقول ووعيدهم فى هذا الصدد وذاك وأفنيت ردحًا من شبابى فى ليت ولعل ولا ونعم وحروف الجر ودرس المعلوم والمجهول.

فى هذه الفترة ظل الأفندى المتفرنج جالسًا فى مكانه على حافة النافذة منهمكًا بكل حواسه فى قراءة روايته المسلية دون أن يولى أدنى اهتمام لما حوله. كان تارة يحرك شفتيه ويقضم بأسنانه طرفًا من شاربه المشهر على جانبى فمه كذيل عقرب ويأخذ فى مضغه، وتارة أخرى يخرج ساعته وينظر فيها وكأنه يريد أن يرى إن كان موعد القهوة باللبن حان أم ليس بعد.

أما رمضان التعس فغاض قلبه وكان فى حاجة للمواساة، إذ لم ير من الشيخ خيرًا. ورأى النجاة فى فرد واحد، فحمل قلبه على كفه ودنا من المتفرنج كطفل جائع يلتمس الطعام عند غير أمه. ألقى السلام وقال

بصوت مرتعد: «سيدى، قل لى بالله عليك! فأمثالى من ذوى الياقات القذرة لا يفهمون. واضح أن حضرة الشيخ من الجن والمهرفين ولا يفهم لغتنا أصلاً. فهو عربى. فهل لك بالله أن تقول لى بأى ذنب ألقى بنا فى سجن الموت هذا!».

لدى سماعه لهذه الكلمات، قفز المتفرنج من فوق النافذة وطوى كتابه ودسه فى جيب فضفاض بمعطفه ثم توجه باسمًا إلى رمضان ومد إليه يدًا بالسلام وقال: «أخى، أخى!» لم يستوعب رمضان الأمر فتراجع قليلاً. فاضطر جناب الخان إلى سحب يده تلقائيًا إلى شاربه. ولمجرد عدم الحرج أخرج يده الأخرى إلى الميدان ثم وضعهما معًا على صدره وصابعى الإبهام فى ثقبى كم الصديرى وبأصابعه الثمانية الأخرى أخذ يضرب على صدره المنشى وقال بلهجة عذبة: «يا صديقى وابن بلدى العزيز؛ لماذا وضعنا هنا؟ قضيت ساعات طويلة أحفر رأسى* ولكنى لم أفهم شيئًا، آبسولومان، لا بوزيتيف ولا نيجاتيف ! أليس هذا شيئًا كوميك أن يلقى القبض علىّ باعتبارى كريمينِل من أجل ... أنا الشاب الحاصل على دبلوم ومن أحسن فاميل أعامَل كالآخرين؟ ولكن لا عجب، فهذه ثمار آلاف السنين من الـ ديسبوتيسم وانعدام القانون والـ اربيترير. إن الدولة التى تباهى بذاتها وتسمى نفسها كونستيتوسيونِل ينبغى أن يكون بها تريبونال قانونى حتى لا يؤخذ أى من أفراد الرعية بظلم. أخى فى التعاسة! ألا توافقنى فى الرأى؟!».

أنى للمسكين رمضان أن يفهم مثل هذه الأفكار العالية أو أن يستوعب هذه الألفاظ الافرنجية؟! كيف يدرك مثلاً أن عبارة «كلما حفرت

رأسى ... » ترجمة حرفية لتعبير فرنسى بمعنى «إعمال الفكر» ونظيره فى الفارسية يعنى «كلما قتلت نفسى ... » أو «كلما ضربت رأسى فى الحائط ... » أو أن «رعيت بظلم» أيضًا ترجمة حرفية لمصطلح فرنسى معناه «وقوع الظلم من الطرف الآخر». عندما سمع رمضان لفظى «رعية» و «ظلم» تخيل بعقله المحدود أن المتفرنج ظن أنه «مزارع»[٣] وقع عليه «ظلم» من صاحب الأرض، فقال: «لا سيدى، خادمك ليس مزارعًا؛ أنا صبى قهوجى فى الجمرك القريب».

هز جناب المسيو أحد كتفيه وأخذ يدق بأصابعه الثمانية على صدره وبدأ يمشى وهو يصفر هائمًا فى خيالاته دون اهتمام برمضان ثم قال: «رفولوسيون بدون إفولوسيون شىء لا يتصوره عقل. نحن معشر الشباب تقع علينا تبعة إرشاد الشعب. وكتبت ارتيكل طويلاً عن هذا الـ سوجيه أثبتّ فيه بصورة واضحة أنه لا ينبغى للفرد أن يتواكل على الآخرين، بل على كل فرد أن يؤدى واجبه تجاه وطنه فى حدود ... فى حدود الـ بوسيبيليتيه؛ وهذا طريق التقدم، وإلا فإن الـ دِكادانس يتهددنا. ولكن لسوء الحظ، كلامنا لا يؤثر فى الناس. يقول لامارتين بحق فى هذا الصدد ...» وبدأ حضرة الفيلسوف فى تلاوة قدر من الشعر الفرنسى كنت بالمصادفة سمعته من قبل وكنت أعلم أنه للشاعر الفرنسى فيكتور هوجو ولا شأن له بلامارتين.

بهت رمضان لسماعه لهذا الكلام العميق العجيب، فجرى مذعورًا إلى ركن من الزنزانة وأخذ يبكى. وسرعان ما تجمع الحراس وراء الباب وصاح صوت فظ قبيح من وراء الباب كان صوت الشيخ حسن شمر

أقرب بالمقارنة به إلى أعذب الأنغام قائلاً: «ماذا يؤلك يابن الـ ... حتى تصرخ هكذا؟ هل سحبوك من ... ك؟ ما هذا الضجيج؟! إن لم تقلع عن «كهن اليهود» وشغل الغجر هذا سيأتونك ويحطموا فكك ...!». أخذ رمضان يتوسل ويتضرع بصوت ذليل بائس ويقول: «أيها المسلمون، ما جريمتي؟ إن كنت لصًا إليكم يدى فاقطعوها، وإن كنت مجرمًا فاجلدونى أو اخلعوا أظافرى، أو اسحقوا أذنى فوق بوابة، أو اقتلعوا عينى واخلعوا حذائى وضعوا العصى بين أصابع قدمى أو صبوا علىّ شمعًا مذابًا، ولكن نولوا رضا الله ورسوله وخلصونى من هذا الكهف ومن قبضة هؤلاء المجانين والعفاريت! أقسم بالإمام وبالرسول، يكاد عقلى يطير من رأسى. وضعتمونى فى قبر بصحبة ثلاثة، أحدهم إفرنجى عبوس من ينظر إلى وجهه وجبت عليه الكفارة؛ انتحى جانبًا كالبومة ويريد أن يأكلنى بعينيه. والآخران لا يفهم المرء كلمة من كلامهما. فكلاهما من الجان. ولا أدرى ربما عنّ لهما أن يخنقانى. من يلبى نداء الله؟!». لم يعد رمضان التعس يستطيع الكلام؛ سد الحنق حلقه فأخذ ينشج بالبكاء. وعاد الصوت المنفر من وراء الباب يسدد إلى قلب رمضان الحزين سلسلة من السباب الموجعة. انفطر قلبى عليه، فتقدمت ووضعت يدى على كتفه وقلت:

«يا بنى، كيف أكون إفرنجيًا؟! أقسم بقبر أبى مهما تفرنجت فأنا إيرانى وأخوك فى الدين. ممَ تخاف؟ ماذا حدث؟ مازلت شابًا. لمَ كل هذه الحيرة؟!».

عندما رأى رمضان أنى أفهم الفارسية بحق وأكلمه «بالبلدى» أمسك بيدى وأخذ يقبلها وسر سروراً بالغًا كأنه ملك الدنيا وأخذ يردد «يسلم فمك. والله إنك ملاك، أرسلك الله لى نجدة». فقلت: «اهدأ يا بنى. فلستُ ملاكًا على الإطلاق؛ بل يساورنى الشك فى آدميتى أيضًا. يجب أن تتشجع؛ لمَ البكاء؟ لو علم أقرانك لسخروا منك، وحينئذ سيلحق بك العار». فقال: «أجارك الله من هؤلاء المجانين. والله كدت أموت هلعًا. أرأيت كيف لا يفهمان كلمة من كلامنا ويتحدثان بلغات العفاريت؟!». قلت: «يا أخى، هذان ليسا من العفاريت ولا من المجانين؛ بل هما إيرانيان وأخوانا فى الوطن والدين».

حين سمع رمضان هذا الكلام بدا وكأنه ظن أنى مثلهما. فنظر إلىّ وانفجر فى الضحك وقال: «أستحلفك بالشاه عباس يا سيدى ألا تسخر منى. لو كانا إيرانيين، إذن فلم يتكلمان بهذه اللغات التى لا تشبه أية كلمة منها لغتنا؟!».

قلت: «يا رمضان، إن اللغة التى يتحدثان فارسية أيضًا، ولكن ... » ولكن كان واضحًا أن رمضان لم يصدق. وأشهد الله أنه كان على حق وما كان ليصدق ولو بعد ألف سنة. ورأيت بدورى أن تعبى سيذهب سدى. فأردت أن أتحدث فى موضوع آخر. فإذا بباب السجن ينفتح فجأة على مصراعيه ويدخل أحد السعاة ويقول: «هيا، أعطونى الحلاوة واذهبوا فى أمان الله. أطلق سراحكم جميعًا».

عندمـا سـمـع رمـضـان هذا الخـبـر بدلاً من أن يفـرح التـصق بى وأمسك بطرف ثوبي وأخذ يقول: «أقسم لك أنهم يقولون ذلك كلما أرادوا أن يسلمـوا سـجـينًا ليـد الجـلاد، اللهم احـفظنـا». ولكن ثبت أن خـوف رمضان وارتعاده كانا بلا مبرر. تبدل مـأمور فترة الصباح وجاء مكانه مـأمور جديد آخر سخيف متعـجرف يستعرض قوته فى حكومة رشت. وبعد وصوله إلى أنزلى ولمجرد أن ينقض مـأمور العصر ما غزله مأمور الصباح كان أول قرار له إطلاق سراحنا. حمدنا الله وأردنا أن نخرج من باب الحجز فرأينا شابًا تدل لهجته وسيمـاه وملامحه على أنه من أهالى خوى وسلماس. كان الحراس فى طريقهم لإيداعه الحجز. وكان الشاب أيضًا يتحدث فارسيـة أدركت فيمـا بعد أنـهـا «مسـتوردة» من اسطنبول. فكان يتسول «استرحام» الناس ويرجوهـم أن يصغوا إليه. نظر إليه رمضان وقال فى دهشة: «بسم الله الرحمن الرحيم. هاك آخر «منهم». يارب ألا تلقى إلينا اليوم إلا بكل مخبول مجنون؟! حمداً لك على مـا منحت وما منعت». أردت أن أقول له : إن هذا أيضًا إيرانى ويتحدث الفارسية ولكنى خشيت أن يظن أنى أخادعه فينكسر قلبه. فلم أفض له بشىء، ومـضـينا نبـحث عن عـربة تقلنا إلى رشت. وبعـد دقائق لحق بى حضرة الشيخ والأفندى المتفرنج، فاشتركنا فى عربة استأجرناها. وحين بدأنا نتـحـرك، رأيت رمـضـان آتيًا يجـرى وأعطانى منديلاً به يامـيش وهمس فى أذنى قـائلاً: «اغـفـر لى جـرأتى ولكن أقـسم لك أنى أظن أن جنونهم أثر عليـك. وإلا مـا جـرؤت علـى السـفر برفقتهـم». قلـت: «يا رمضان، أنا لست جبانًا مثلك». قال: «كان الله فى عونك. كلما مللت الصمت كل من الياميش وتذكر خادمك».

ارتفع سوط حوذى العربة وتحرك بنا. لا أطيل عليكم؛ مر الوقت سعيداً، خاصة حين رأيت فى الطريق مأموراً جديداً فى طريقه إلى أنزلى، فانفجرت فى الضحك.

هوامش

(١) الشاه عباس أحد ملوك الأسرة الصفوية التي حكمت إيران بدءًا من سنة ٩٠١هـ ـ ١٤٩٥م) وفرضت التشيع مذهبًا رسميًا لإيران. وللشاه عباس مكانة سامية في قلوب الإيرانيين لصلاحه وإصلاحاته (المترجم).

(٢) سماور: وعاء في وسطه ماسورة طويلة للنار يتم فيه غلي الماء لإعداد الشاي. ومنظره العام يشبه الشيشة (المترجم).

(٣) إلى جانب معناه العام في الفارسية فإن لفظ «رعيت» يعني أيضًا «مزارع أجير» (المترجم).

لسان حال حمار يُحتضَر[1]

صادق هدايت

آه! آلام جسمي تصيبني بالرعشة. هذا جزاء ما بذلت من جهود في خدمة كائن ظالم لا يعرف المروءة. اليوم آخر أيامي. وهذا عزائي الوحيد. بعد حياة مفعمة بالمرار والمشقة وحمل الأحمال التي تنوء بها الظهور، وضربات العصي والجنازير وسباب المارة. ولكن لايزال ثم متسع للحمد بأني سأودع هذه الحياة المهيبة. هنا شارع شميران. اليوم بسبب إهمال صاحبي كسرَت عربة قائمي وأصابني ما أصابني. بعد ضرب وسباب سحبوا جسدي إلى جانب من الطريق وتركوني لحالي. لعلهم نسوا أنه لايزال من الممكن أن يفيدوا من حوافري وجلدي! ربما يأسوا مني تمام اليأس.

هل سيحضرون لي الغداء في موعده؟ لا ... على أن أموت في غاية الحزن والجوع إذ لم تعد ترجى مني أية فائدة.

(١) نشرت هذه القصة على صفحات مجلة وفا في سنة ١٣٠٢هـ.ش (١٩٢٤م).

آه! آلام جروحي تشتد، ولايزال الدم يدفق منها. أي كائن هذا الذي سلط علينا وأحال حياتنا عاراً وقذارة وآلاماً ومحناً، وجرح أحاسيسنا الطبيعية التي لا تصنّع فيها، وأعمل الجروح في أجسادنا وأحال حياتنا كلها مراراً في مرار؟! إنه يشبهنا في ظاهره شبهاً تاماً، وفي النهاية يموت كما نموت. من هذه الناحية لا فرق يذكر بيننا، ولكن كأن بدنه قدّ من حجر أو من خشب. فهو يلهبنا بسوطه ويظن أنا لا نحس. ولو كان يحس بالألم لأخذته الرحمة بنا.

هذه الأدوات التي يستخدم في تعذيبنا ليست طبيعية؛ بل من صنعه هو. هناك جمعيات أنشئت منذ زمن في أوروبا وأمريكا باسم «الإنسانية» بغرض رعاية حقوق الحيوان. فسُنت قوانين خاصة للدفاع عنا ورفع الظلم والعنت. هل هؤلاء أيضاً من نفس الكائنات؟ لا! لو كانت تلك الجماعة تنتمي لنفس النوع إذن فقلوبهم ليست من حجر.

إن علماء العلوم الطبيعية لا يرون فرقاً كبيراً بيننا وبينهم، ويصفون أنفسهم بأنهم على رأس فصيلة الثدييات. ولكن هناك فيلسوفاً معروفاً – ديكارت – يؤكد أن الحيوان آلة متحركة ليس إلا؛ بمعنى أنه كلما تقدم علم الميكانيكا أصبحت صناعة الحيوان ممكنة! وتعقيباً على هذا الفكر الملتوي قام ضده عدد من الفلاسفة الآخرين ممن انتصروا لنا ومنهم شوبنهاور الذي قال: «أساس الأخلاق الرحمة لا ببني النوع وحسب، بل أيضاً بكل الحيوانات، وقام بشرح أحاسيسنا وذكائنا إلى حد ما في كتابه عن الأخلاق. وقال آخر: «من تسالي الأمهات أن يرين أطفالهن يكسرون في لعبهم رقبة طائر أو يجرحون كلباً أو قطاً . هؤلاء جذور

الفساد ولب القسوة والظلم والخيانة. والحقيقة أن هذا الظلم الواقع علينا ناتج فى معظمه عن تربية الأمهات الظالمة للأطفال.

نحن للأسف لا نتكلم، وهذه سمة تهيئ لنا أسباب التعاسة. أرسطو وحده الذى تتبع حقيقة حياتنا إذ قال إن الإنسان حيوان ناطق. بهذا النطق وحده ابتلينا بجنون حفنة من الكائنات الجشعة المغرورة. لم لم يقتد الناس بهؤلاء الفلاسفة؟! بدهى أن أفكار الإنسان تقوم فى الأساس على المنفعة الشخصية. والحمارون على وجه الخصوص يتبعون فلسفة ديكارت اتباعًا تامًا ويفترضون أننا جسد بلا روح.

الرفق بالحيوان أصلاً فكرة نشأت فى الشرق. كما أن الأنبياء كلهم دون استثناء حرموا ظلم الحيوان. ويتفق فى ذلك العلماء والفلاسفة والأدباء الأخلاقيون بل الشعراء أيضًا. فيقول الحكيم الفردوسى مثلاً:

لا تؤذ نملة حملت حبة

فإن لها روحًا وما أطيب الروح!

ولكن نظرًا لعدم وجود قانون يمنع قسوة البشر والحد من جشعهم الشديد، راح هذا الكلام أدراج الرياح. لو كُسر قائمى فى الخارج لخلصونى من هذا الألم العقيم أو قتلونى. آه من الألم ... ويلى من الجوع. ما ضرهم لو كنت حرًا طليقًا فى المراتع حيث الماء والهواء أحيا بين بنى جنسى وأنفَق حين يحين الأجل؟! أما الآن فعلىّ أن أنفَق منهكًا جائعًا فى الأسر. يا لها من نهاية مفجعة لحيوان أبكم وقع فى يد جنس يمشى على قدمين! لابد أن نكتوى بناره. آه ... نفد صبرى ... !

الإنسان قاتل المظلومين. لم لا يستخدم الضوارى لخدمته فى الأسر؟! هذا ذنب الحيوانات الضعيفة التى لا تؤذى.

أسودت الدنيا فى عينى؛ كل بدنى شيئًا فشيئًا من فرط الألم والجوع. وقع أقدام آتية؛ لعله صاحبى رق قلبه لشقائى فأتى إلىّ بتعيينى من العليق! لا، إنه طفل ألقى علىّ حجراً وابتعد.

ليتنى أموت بسرعة فأطالب بثأرى على عتبات العدل السرمدى من هذا الجنس الظالم!.

حكاية لها نتيجة

صادق هدايت

كان هناك رجل عادى اسمه ذو الفقار، وله زوجة عادية اسمها الست ستارِة.

ما أن دخل ذو الفقار من الباب حتى أسرعت إليه جوهر سلطان - أمه - لتكيد للست ستارِة، قالت:

«يا عديم النخوة، مراتك فاجرة وعينها باكسة. ارفع رأسك واتشرف بيها! على أيامنا لو راجل غريب خبط عالباب كانت الشابة اللى ف البيت تحط تحت لسانها حصاية عشان صوتها يبقى زى صوت العواجيز. دلوقتى بيقولوا فى الجوامع، لكن مين يسمع! انهارده ستارة جريت لحد نص الحارة بقميص النوم عشان بتعريفة تلج. والصبح طلعت السطوح تلم الغسيل، طبيت عليها وشفتها بتتمايع مع على بتاع الصينى ف وسط الحارة. اسم الله عليها اللى وشها يقطع الخميرة م البيت! شبه الميت الهربان م التربة! جتنى نيلة على خيبتى اللى ما خدتلكش بنت ماشا الله أفندى اللى كانت زى الوردة وكل صباع من أيديها بينقط

شطارة. منش عارفة دى بتتدلع على مالها والا على جهازها! موتّ نفسى عشان أعلمها تخمر العيش، فكرك نفعت؟! بوظت اتنين كيلو ونص دقيق، حمض ورميته. عملت عجين من تانى وخمرته. وكل ما اكلمها ترد تقول: «انا جاية هنا أتزوق مش جاية عشان ارقّع وأخيط ...»

إلى أن بلغ الغضب بذى الفقار مبلغه، فطار كالمجنون إلى غرفته وتناول السوط من فوق مسمار الحائط كعادته اليومية وانهال به على بدن الست ستارة المسكينة وأخذ يضربها. كان السوط يلتف بجلده الأسود حول جسمها كالثعبان، وأحال ذراعها إلى خطوط سوداء. لفت ستارة نفسها بعباءة وأخذت تئن ولكن ما من مغيث.

بعد نصف ساعة فتح الباب. كانت جوهر سلطان بوجهها الماكر وهى تجز على شفتيها وقد جاءت للتوسط. أمسكت بيد ذى الفقار وقالت:

«ده ما يرضيش ربنا. هى يهودى وقع ف ايدك؟ بتضربها كده ليه؟ قومى يا ست ستارة، قومى يا حبيبتى. أنا ولعت الفرن، شيلى ماجور الخمير وهاتيه نخبز سوا ...».

ذهبت الست ستارة وحملت الماجور من تحت السلة. وعندما وصلت عند الفرن وجدت حماتها منحنية تنفخ فى الفرن. وحدث قضاء وقدراً أن تعثرت ستارة فى دلو الماء وانكفأت على وجهها بماجور الخمير فوق جوهر سلطان، فغاصت حماتها فى الفرن حتى خصرها. وبعد نصف ساعة أفاقت الست ستارة من إغمائها الكاذب، وكانت جوهر سلطان قد

شويت حتى نصف جسمها.

نتعلم من هذه الحكاية أنه لا ينبغى ترك الزوجة وحماتها وحدهما أمام الفرن.

يوليو ١٩٣١

داود الأحدب

صادق هدايت

«لا لا. لن أفعل ذلك، يجب أن أصرف النظر عن ذلك تمامًا. قد يعجب الآخرين، أما بالنسبة لي فمؤلم وثقيل، لا لن يكون ...»

كان داود يتحدث الى نفسه ويضرب بعصاه القصيرة الصفراء الأرض ويمشي متثاقلاً وكأنه ينظر الى مركز ثقله بعناء. وكان وجهه الضخم فوق قفص صدره البارز غائرًا بين كتفيه النحيلين. كانت صورته من الأمام بائسة فظة ومنفرة؛ فله شفتان نحيلتان مضمومتان، وحاجبان مقوسان رفيعان وأهداب متدلية، ووجه شاحب ووجنتان بارزة عظامهما. أما من الخلف فيبدو قميصه الرث وظهره الأحدب. يداه طويلتان بلا تناسب، وقلنسوته فضفاضة غاصت رأسه داخلها. وكانت حالة الجدية والصرامة التي اتخذها، وعصاه التي كان يضرب بها الأرض بكل قوة تجعل منه شخصية هزلية.

دلف داود من شارع بهلوي الى شارع "بيرون شهر"، وأخذ يمشي باتجاه بوابة "دولت". كانت ساعة الغروب وكان الجو يميل الى الحرارة.

وعلى يساره كان آخر أضواء الغروب يلفظ أنفاسه، والجدران الطينية والآجرية تتجه نحو السماء في صمت، وعلى يمينه خندق ردم حديثًا، وبجواره ديار مبعثرة بنى نصفها من الآجر. كان المكان هادئًا نسبيًا، ومن حين الى آخر كانت تمر سيارة أو عربة يجرها حصان تثير الغبار في الهواء مع أن الأرض كانت ندية بالماء. وعلى ناصية الشارع كانت هناك شجيرات قد غرست حديثًا على ضفة جدول.

وأخذ يفكر ... رأى نفسه منذ الطفولة وحتى الآن؛ كان دائمًا موضع سخرية الآخرين أو شفقتهم. ومرت بخاطره أول مرة حين قال المعلم في حصة التاريخ إن أهل اسبرطة كانوا يقتلون الأطفال المعوقين أو المشوهين. حينئذ التفت التلاميذ بعيونهم إليه، فانتابته حالة غريبة. أما الآن فيتمنى لو ينفذ هذا القانون في كل مكان في العالم، أو على الأقل أن يصدر قانون يحظر زواج المعوقين والمشوهين، فهو يعلم أن أباه جنى عليه بكل ما يعانيه، بوجهه الشاحب ووجنتيه العظميتين البارزتين وجفنيه الغائرين الزرقاوين، وبفمه شبه الفاغر دومًا. ومرت أمام ناظريه لحظة موت أبيه كما رآها بعينيه؛ أبوه النحيل العليل الهرم الذي تزوج بفتاة صغيرة، وجاء بنوه جميعًا الى الدنيا عميان ومعوقين. وكان أحد إخوته قد أفلت من الموت وعاش متلعثم اللسان أبلهًا، ومات قبل عامين. وكان داود يقول لنفسه: «لعلهم أسعد حظًا مني».

لكنه ظل حيًا على أية حال؛ كان يضيق بالآخرين والآخرون يجفلون منه، لكنه تعود الى حد ما على حياة العزلة. ومنذ طفولته لم يتمتع بالرياضة والمزاح والعدو وألعاب "المدفع" و"القدمين المربوطتين" و"ثعلب

فى الهواء" وما الى ذلك مما يبعث السعادة فى نفوس أترابه. وفى أثناء اللعب كان ينطوى على نفسه وينعزل بركن من فناء المدرسة ممسكًا بكتاب يوارى به وجهه ويأخذ فى اختلاس النظر الى الأطفال. ولكنه كان فى الوقت نفسه يعمل بكل جد ويود أن يتفوق على الآخرين فى مجال الدراسة؛ فكان يستذكر ليل نهار. لذا فقد تقرب اليه بعض التلاميذ الكسالى لينقلوا عنه حل مسألة رياضية أو بعض الواجبات المدرسية. لكنه كان يعرف أن صداقتهم مصطنعة وليست إلا للانتفاع من ورائه، فى حين أنه كان يرى أن حسن خان، الصبى الجميل المهندم أكثر التلاميذ سعيًا لكسب صداقته. وكان من بين المعلمين اثنان أو ثلاثة يبدون اهتمامًا ظاهريًا به، ولم يكن ذلك أيضًا لجده واجتهاده، بل بدافع الشفقة عليه. لذا فإنه لم يتم دراسته بعد كل ما بذل من جد وجهد.

وهو الآن يعيش فقيرًا، الكل يجفل منه ويتجنبه. وكان رفاقه يخجلون من السير معه ، وكانت الفتيات يقلن حين يرينه: «انظرن الأحدب!»، وكان هذا يزيده إمعانًا فى العزلة. ومنذ بضع سنوات، تقدم مرتين لخطبة فتاتين، وفى المرتين كانت الفتاة تسخر منه. وكانت إحداهما تسمى زيينده، وكانت تسكن منزلاً مجاورًا له بحى "فيشر آباد". تقابلا ذات مرة وتحدثت اليه، وكانت تأتى اليه لتراه فى طريق عودتها من المدرسة عصرًا. ولا يذكر منها سوى الشامة السوداء بجانب إحدى شفتيها. ثم أرسل خالته لخطبتها فسخرت منه الفتاة وقالت: «وهل انقرض الرجال حتى أتزوج الأحدب؟!». ولم تقبل الزواج به على الرغم من محاولات والديها لإقناعها بقبوله، فكانت تقول: «وهل لم يعد

هناك رجال؟!». لكن داود كان لايزال يحبها، إنها أحلى ذكريات شبابه. وهو الآن يمر كثيراً بذلك المكان ليستعيد ذكرياته الماضية. إنه يائس من كل شيء ، يهيم وحيداً معظم الوقت ويميل الى العزلة عن الناس وعن الزحام. وكلما رأى شخصاً يضحك أو يهمس لرفيق له كان يظن أنهما يسخران منه. وبعينيه المعروقتين الجاحظتين وبحالته البائسة حين يدير رقبته بمشقة بالغة ومعها نصف جسده يلقى بجانب عينيه نظرة احتقار ويمضى فى طريقه. وفى الطريق، كانت كل حواسه تتجه الى الآخرين، وعضلات وجهه مشدودة يود أن يستطلع آراء الآخرين فيه.

أخذ يمشى متثاقلاً على حافة الجدول يشق الماء بعصاه أحياناً وهو شارد الفكر. ورأى كلباً أبيض شعره يتهدل فوق جسده، رفع رأسه اليه على أثر اصطدام العصا بحجر. رمقه الكلب بنظرة العليل حين يحضره الموت ولم يستطع أن يتحرك من مكانه، وهوى برأسه على الأرض مرتين. وانثنى بصعوبة، وتلاقت نظراتهما فى ضوء القمر، فساورت داود أفكار غريبة؛ أحس أن هذه أول نظرة صادقة يتلقاها. كلاهما بائس منبوذ، وكلاهما مطرود من مجتمع البشر دون ذنب جناه. كان يود أن يجلس بجوار الكلب الذى حمل شقاءه معه الى خارج المدينة يتوارى عن أعين الناس، وود لو ضمه الى صدره، الى صدره البارز، ولكنه تردد؛ فإذا مر أحد من هنا ورآه فلابد سيهزأ به.

وجن الليل، فأقل داود عائداً من ناحية بوابة يوسف آباد. نظر الى قرص القمر المنير وهو يصعد من شاطئ السماء فى أول الليل حزيناً جذاباً، وأخذ ينظر إلى البيوت القصيرة وإلى أكوام الطوب المكدسة فوق

بعضها، وإلى المشهد البعيد للمدينة الناعسة والأشجار وأسطح الديار والجبل الأزرق. كانت تمر أمام عينيه الأستار الرمادية المطوية. لم تقع عيناه على أحد، وكان صوت أبي العطا البعيد المختنق يأتيه من ناحية الخندق. فرفع رأسه بصعوبة، فقد ناله التعب وكان مفعمًا بالأحزان والهموم، وكانت عيناه محترقتان وكأن رأسه قد ثقلت على جسده فنأى بها.

ترك داود عصاه على حافة الجدول ومر من فوقها ومشى مسلوب الإرادة فوق الصخور وجلس على جانب من الطريق. وفجأة التفت فرأى فتاة ترتدي عباءة وقد جلست على مقربة منه على حافة الجدول. زاد خفقان قلبه فأدارت الفتاة وجهها بلا مقدمات وقالت باسمة: «هوشنج؟! أين كنتَ حتى الآن؟». تعجب داود من نغمتها الرقيقة. كيف رأته ولم تجفل منه؟ إنه كمن ملك الدنيا وما فيها. يبدو من سؤالها أنها تريد أن تتحدث إليه، ولكن ماذا تفعل ها هنا في مثل هذا الوقت من الليل؟! ترى أهي فتاة ليل أم عاشقة؟! وفي النهاية واتته الشجاعة وقال لنفسه : ليكن ما يكون، فقد عثرت على من أتجاذب معه أطراف الحديث علها تواسيني. وبدأ حديثه كمن فقد سلطته على لسانه وقال: «سيدتي؛ هل أنتِ وحيدة؟ أنا أيضًا وحيد، دائمًا وحدي، أعيش وحيدًا طوال حياتي». ولم يكد داود يتم حديثه حتى التفتت اليه الفتاة مرة أخرى بعيون حزينة وركزت نظرها عليه وقالت: «إذن من تكون؟ ظننتك هوشنج. فهو دائمًا يريد أن يداعبني كلما رآني».

لم يفهم داود شيئًا من هذه العبارة الأخيرة ولم يدرك مقصدها، لكنه لم ينتظر. فهو لم تكلمه امرأة من زمن بعيد. ورأى أن الفتاة على قدر من الحسن، فانساب عرقه باردًا، وقال بعد لأى: «لا يا سيدتى؛ لستُ هوشنج، اسمى داود».

أجابته الفتاة مبتسمة: «إنى لا أراك؛ فعيناى كليلتان. آه .. داود .. داود الأحدب ..» (ثم عضت على شفتيها) أحسست أنى أعرف هذا الصوت. أنا زيبنده .. أتعرفنى؟» واهتزت جديلتاها الناعمتان اللتان وارتا نصف وجنتيها، فرأى داود الشامة السوداء الى جانب شفتيها، وأحس بغصة فى حلقه وانسابت حبات العرق على جبينه. وتلفت حوله فلم يجد أحدًا. اقترب صوت أبى العطا فخفق قلبه وازداد خفقانه حتى لهثت أنفاسه ودون أن ينطق بكلمة نهض من مكانه وقدماه يرتعشان. خنقت الغصة حلقه، فرفع عصاه وقال لنفسه هامسًا بصوت جريح: «هذه زيبنده. لم تكن ترانى ... ربما كان هوشنج هذا خطيبها أو زوجها ... من يدرى؟ لا .. يجب أن أنسى الأمر برمته .. لم أعد أحتمل».

وتحامل على نفسه حتى وصل الى مكان قريب من الكلب الذى رآه فى الطريق، وجلس وضم رأسه إلى صدره البارز. لكن الكلب كان نفق.

المحلِّل

صادق هدايت

أربع ساعات قبل الغروب، كان حى «بس قلعه» هادئًا وسط الجبال. مقهى صغير، فوق مائدة أمامه فرشت أكواب لبن السلَطة والشربات وأخرى متعددة الألوان. وفوق مصطبة وضع جراموفون عتيق بإسطوانات حزينة.

النادل بأكمامه المشمورة يهز سماور الشاى النحاسى ويلقى بالثفل ثم يرفع صفيحة البنزين الفارغة من مقبضها الضخم ويتجه صوب النهر.

كانت الشمس مشرقة. من أسفل، كان يترامى صوت الأمواج الرتيب وهى تتدحرج فى النهر وتضفى على المكان انتعاشًا. على إحدى الدكك التى مدت أمام المقهى، رجل فرد منديله المبلل فوق وجهه وطوى صندله ووضعه بجانبه. وعلى دكة موازية وفى ظل شجرة توت، جلس شخصان متجاورين انهمكا فى حديث بينهما فبديا كأن كلاً منهما يعرف الآخر لسنوات.

مشهدى شهناز نحيف هزيل له شارب غليظ وحاجبان مقترنان، انكمش فى ركن من الدكة، فرك يديه المخضبتين بالحناء وقال:

«ذهبت بالأمس إلى حى «مرغ محله» عند ابن خالى. لديه بستان هناك. قال لى إنه باع فى السنة قبل الماضية محصول بستانه من البرقوق والمشمش بثلاثين تومانًا. وهذه السنة لفح البرد الشجر فسقط كل ما عليه. كان فى حالة بائسة. وزوجته أيضًا مريضة وطريحة الفراش منذ ما بعد الشهر المبارك وإلى الآن وكل النفقات تضيع عليها».

حرك ميرزا يدالله نظارته وهو يسحب دخان النرجيل بتفنن، وحك لحيته الرمادية وقال:

«الخير والبركة انعدمت فى كل شىء أصلاً »

هز شهناز رأسه مصدقًا وقال:

«يسلم فمك. كأنه آخر الزمان. الزمن انقلب. أذن الله أن كنتُ منذ خمس وعشرين سنة مجاورًا فى خراسان، وكان كيلوان ونصف الكيلو من الزيت بعباسيين، وكان الدجاج يباع العشرة بمئة دينار. وكنا نشترى الخبز بطول رجل. ومن ذا الذى كان يحمل همًا للنقود؟! رحم الله أبى اشترى حمارًا معتبرًا كنا نركبه معًا. كنت ابن عشرين سنة وكنا نلعب البلى مع أولاد حينا. الشبان الآن يفتقدون الصبر ويشيبون فى صباهم. رحم الله أيامنا حيث قال أحد المغفور لهم: إن كنتُ شيخًا أرتعش فإنى أساوى مئة شاب.»

نفخ يدالله نرجيلة وقال:

«كل سنة يتحسر المرء على السنة التى قبلها» .

قال شهناز:

«الله يجعل ختامها خير على كل عباده» .

اتخذ يدالله سمة الجد وقال: «وحياتك جاء وقت كان لدينا فى بيتنا ثلاثون شخصًا يرزقون. الآن أفكر من أين أحصل على ريال واحد يوميًا ثمنًا للدخان والشاى. قبل سنتين كنا ندرّس فى ثلاثة أماكن وكنتُ أحصل على ثمانية تومانات شهريًا. أول أمس فى عيد الأضحى ذهبت إلى دار أحد الأعيان كنت معلمًا فى بيته من قبل، فطلب منى أن أذهب لأكبّر على الخروف، فرفع الجزار عديم المروءة الحيوان الأخرس وطرحه أرضًا وأخذ يشحذ سكينه، وأخذ الحيوان يتململ حتى يفلت من تحت قدمه. لا أعرف ماذا كان على الأرض، ورأيت عينه انفجرت وأخذ الدم يتدفق منها. رق قلبى لحاله وعدت أدراجى متعللاً بالصداع. وظلت رأس الخروف الدامية تلوح أمام عينىّ طوال الليل. فنطق لسانى بكلام يحاسبنى الله عليه ... لا، قُطع لسانى. لا شك فى رحمة الله. ولكن هذا الحيوان الأبكم أى ذنب اقترف؟ يا رب يا خالق، أنت أعلم. فالإنسان سمته النسيان على أية حال» .

واستغرق ميرزا يدالله فى التفكير ثم عاد وقال: «آه، لو كان بوسعى أن أبوح بكل ما بقلبى ... ولكن ليس كل شىء يقال. أستغفر الله، يُقطع لسانى» .

نفد صبر شهناز فقال: «فكّر فى الخبز والعيش» .

قال يدالله فى فتور: «نعم، وماذا بيدنا؟ هكذا الدنيا منذ بدايتها!».

قال شهناز: «نحن أهل الزمن الماضى أصابنا الوهن كما يقولون وصرنا أحياء من قلة الأكفان. كم نتحايل على زماننا هذا! ... فى وقت من الأوقات كان عندى دكان بقالة فى طهران، وكانت الأيام تمضى وكنت أدخر ستة قرانات فى اليوم» .

قاطعه ميرزا يدالله: «كنتَ بقالاً؟ أنا لا أحب الجماعة البقالين» .

- «لم؟»

- «هذه حكاية طويلة. أكمل كلامك أولاً» .

واصل شهناز كلامه وقال: «نعم، كان عندى دكان بقالة. كانت أمورى تسير وشيئًا فشيئًا كوّنا لنا بيتًا وعشًا. لا أطيل عليكم، ثم ظهرت لى امرأة سليطة اللسان. ومضت الآن خمس سنوات وهى تمرغنى فى التراب. لم تكن امرأة، بل جمرة نار. كنتُ كوّنت نفسى بعد لأى وبدأت حياتى تزدهر. كانت تنقض كل ما كنت أغزل! خلاصة الكلام، ذات ليلة عادت أم أحمد من مجلس الوعظ، وركبت رأسها قائلة : «سيدنا الولى طلبنى ولابد أن أذهب وأخفف عظامى». فضحتنى فضيحة لا تقال ولم يسمع عنها أحد ... تقول لى : هل أسلمت عقلى لهذه المرأة؟ مهما كان هناك من بشر سذج، وكنت رجلاً يقف على شواربه الصقر فسلبت عقلى امرأة ... أجارك الله إذا تسلطت امرأة على رجل. ليلتها أخذت

تقول: «هذه الأمور لا تدخل رأسى. مهرى حلال وأنا حرة. عندى سوار أو كردان، أبيعه وأذهب ... وعملتُ استخارة أيضًا وجاءت خيرًا. إما تطلّقنى أو أقسم بسيدنا الولى أخنق عيالك!».

لم أقدر عليها. لم تنظر فى وجهى لمدة أسبوعين. وظلت على هذا الحال إلى أن بعتُ كل ما عندى وما ليس عندى وجمعت النقود وأعطيتها لها. فحملت ابنى ذا السنتين ومضت إلى حيث يعيش العرب. وإلى الآن حيث مضت خمس سنوات لا أعلم ما حل بها!».

قال ميرزا يدالله: «كفانا الله شر العرب!» .

– «نعم، وسط العرب الحفاة الأغبياء طوال هذه المدة، فى الصحراء القاحلة والشمس الحارقة! كأنها ذابت وابتلعتها الأرض. يا حسرة على ما ضاع. صحيح أن النساء لهن ضلع ناقص» .

قال ميرزا يدالله: «ذنب الرجال أن يتركوهن هكذا ولا يفتحوا أعينهم وآذانهم» .

كان شهناز منهمكًا فى حديثه: «الغريب أن هذه المرأة كانت مكسورة الجناح أصلاً. ولا أدرى كيف صارت هكذا فانقلبت نارًا. أحيانًا كانت تبكى وحدها. ربما على زوجها الأول ...»

سأله ميرزا يدالله: «أكنتَ زوجها الثانى؟»

– «ثم. نعم، ... ماذا كنتُ أقول؟ نسيت كلامى» .

– «كنتَ تقول زوجها الأول» .

– «نعم؛ في البداية كنت أظن أنها كانت تبكي زوجها الأول ... على أي، كنت أحاول أن أفهِّمها باللين ولكني كنت كمن يكلم الحائط. كأنها شيء ضربه القدر. لا أدري ما فعلته بابني. هل يأتي يوم ترى فيه عيناي عينيه؟ ابني الذي وهبني الله بعد طول دعاء ونذور!» .

قال ميرزا يدالله: «كل من تراه يعاني تعاسة. خلاصة الكلام أن الناس ينبغي أن يكونوا رجالاً، ويكونوا متعلمين. وماداموا حمُراً سنركبهم. قلت ذات مرة من فوق المنبر : إن كل امرئ ذنوبه في حجم ورقة الشجر يحج إلى الأولياء يُغفر له ويكون مكانه الجنة» .

قال شهناز: «هل أنت من علماء الدين» .

– «هذه حكاية عمرها اثنتا عشرة سنة. أنت ترى أني لست معمماً. أنا الآن عندي عدة مهارات وعاطل» .

– «كيف؟ لا أفهم» .

لف ميرزا يدالله لسانه حول فمه وقال في فتور: «حياتي أنا أيضاً دمرتها امرأة» .

قال شهناز: «اللهم ارحمنا من النساء!» .

– «لا، هذا أمر لا شأن للنساء به. تعاستي من صنع يدي. لو ذهبتَ إلى طهران لسمعتَ اسم المرحوم أبي ... كنا من المعروفين.

كـان أبى من أصـحـاب المكانة. كـان كلمـا ذُكـر اسـمـه لـهـجت الألسن بسيرته. كان حين يعتلى المنبر لا تجد الإبرة مكانًا إذا ألقيت. كل ذوى الشأن كانوا يعملون له حسابًا. لا أقصد من ذلك أن أتباهى. فمهما كان من شأن المرحوم كان له» .

أبوك وإن كان فاضلاً .

فماذا يعود عليك من فضله؟

«على أى! بعد وفـاة المرحوم أبى، توليت مكانه وفتحت بيته. ترك لنا بيتًا فيه بعض الأثاث. كنت لاأزال طالبًا حـينئذ وكـان راتبى الشـهرى أربعة تومانات وعشرة كيلوجرامات من القمح . وبإضافة شهرى : محرم وصفر كـان عيشنا رغداً. كنا من الطفـيليين، إذ كـان سـر المرحوم أبى باتعًا. ذات ليلة أخـذونى إلى فـراش أحـد المرضـى لكى أرقـيـه. ورأيت صبية فى الثامنة أو التاسعة تجرى وتلعب عندهم. أسرتنى بنظرة واحدة يا مبارك. كانت شابة وناضجة ...!

قبلها تزوجت امرأتين زواج متعة وطلقتـهمـا، أما هذه فكانت شيئًا مـختلفًا. لابد من رؤية ليلى بعـينى المجنون، كمـا يقـولون! نهايتـه، بعـد يومين، أرسلت منديل نُقل وثلاثة تومـانات نقداً وعقـدت عليـهـا. وفى الليل حين جـاءوا بها كـانت صـغيـرة حـتى أنهم كـانوا يـحـملونـهـا. أحـسـسـت بالخجل. لا أخفى عليكم ظلت ثلاثة أيام ترتعش كـالكتكوت كلمـا رأتنى. كنت فـى الثـلاثين، شـاب جـاهل. ولكن الأدهـى من بلغـوا السـبـعين وبهم ألف مرض ويتزوجون طفلة فى التاسعة.

طفلة، ماذا تعرف عن الزواج؟ كل ما تعرفه طرحة عليها ترتر يضعونها على رأسها وثوبًا جديدًا تلبسه وبدلاً من بيت أبيها الذى تُضرب فيه وتُسب تجد زوجًا يدللها ويضعها فوق رأسه. ولكنها لا تعرف أن بيت الزوج ليس قِدرًا من الحلوى.

على أي؛ تعبت كثيرًا حتى روضتها؛ في الليلة الأولى كانت تخافني، ظلت تبكي. وكنت أتودد إليها وأقول: "وشرفك، لا تفضحينا؛ حسن، نامي بالغرفة العلوية وسأنام أنا هنا". كان قلبي يرق لحالها، وأحجمت تمامًا عن أن أسلك معها مسلك الإجبار. ثم إني كنت مجربًا وعيني مليانة. وعلى أية حال سمعت هي أيضًا نصيحتي. في الليلة الثانية حكيت لها حدوتة فنامت. وفي الليلة الثالثة لم أقل شيئًا إلى أن نادتني وقالت: "حكيتَ لي إلى أن خرج الملك جمشيد للصيد، فلم لا تكمل لي الحكاية؟". لم تسعني الدنيا من الفرحة. قلت لها: "الليلة رأسي يؤلمني، صوتي لا يخرج. فإذا سمحتِ اقتربي مني". وبذلك اقتربت منها واقتربت إلى أن تروضت ».

ضحك شهناز وأراد أن يقول شيئًا، ولكن منعته ملامح ميرزا يدالله الجادة وعيناه الدامعتان اللتان رآهما من وراء النظارة.

قال ميرزا يدالله بحرارة: «هذه الحكاية كانت منذ اثنتي عشرة سنة. لا تعلم أية امرأة كانت، مسلية، عياشة؛ كانت تتقصى عن كل أحوالي. آه، الآن تذكرت! ... كانت تمسك طرف عباءتها بأسنانها دائمًا وتغسل الثياب بيديها الصغيرتين وتنشرها على الصفصافة، وكانت

ترفي قميصي وجواربي، وكانت تضع القِدر مفتوحًا، وكانت تضع ذراعها تحت إبط أختي. كم كانت رقيقة وحنونة! كان الكل يفتتن بأخلاقها. كم كانت عاقلة! علمتها القراءة والكتابة، وكانت تتم القرآن كل شهرين، وكانت تحفظ أشعار الشيخ سعدي. عشنا معًا ثلاث سنوات كانت ألذ أوقات حياتي. وشاءت الأقدار أن وكلتني أرملة طروب مفلسة، وكانت أيضًا فاتنة. شحذت لها أسناني يا مبارك إلى أن فكرت في أن أوقع بها في حبائل الزواج. ولا أعلم من الظالم الذي أخبر زوجتي. ما أراك الله سوءًا يا مبارك، هذه المرأة التي كانت تبدو منكسرة في ظاهرها لم أكن أعلم أنها تضمر كل هذا الحقد. أردت أن ألف رأسها بحلو الكلام ولكني لم أكن ندًا لها. ومع أن هذه المرأة كانت مدينة لي بأتعاب المحاماة صرفت النظر عن ذلك وتصافينا، ولكن ما أراك الله ما فعلته بي هذه المرأة في غضون شهر.

ربما مسها جنون أو لعلها أكلت شيئًا. تبدلت تمامًا. وضعت ذراعها على خصرها وأخذت تكيل لي كلامًا لا وجود له في مكيال عطار. قالت: "إلهي يضعوا نظارتك فوق نعشك ويلفوا عمامتك الممتلئة بالمكر حول رقبتك. أدركت منذ أول يوم أنك لا تليق بي. أحرق الله أبي القواد الذي أعطاني لك. فتحت عيني فجأة ووجدتني مع ديوث مثلك. ثلاث سنوات بطولها بددتها مع شحاذ مثلك، ويكون هذا جزائي؟ ما رمى الله امرءًا في أيدي رجال عديمي الشرف. حرمت نفسي، أليس حرامًا؟ لم أعد أستطيع العيش معك. مهري حلالي وأنا حرة. و ديني لأمشي ... سأرحل وأعتصم بالجامع. والآن، حالاً".

«وقالت كثيراً حتى استشطت غضبًا وأظلمت الدنيا في وجهي، وكنت على مائدة العشاء فرميت بالصحون وسط الفناء. وحين جن الليل نهضنا وذهبنا إلى مكتب الشيخ مهدى وطلقتها بالثلاثة في حضوره» .

وربع يديه وقال: «وفي الصباح ندمت ولكن ما جدوى الندم حيث أصبحت امرأتي محرمة عليّ. وظللت عدة أيام هائمًا على وجهي في الحارات والأسواق كالمجنون. كنت إذا صادفت أحد معارفي لا أرد سلامه من شدة ما بي من اضطراب» .

«وبعدها لم أعد أطيق وجه زوجتي الأخرى. لم تكن صورتها تفارق عيني لحظة. جفاني النوم وزهدت الطعام. لم أكن أستطيع البقاء في البيت. كان الجدران والأبواب تسبني. وسقطت طريح الفراش لمدة شهرين. وكنت أردد اسمها في هذياني. وحين استعدت رمقًا من الحياة علمت أني لو طلبت لجيء لي بمئة فتاة، ولكنها كانت شيئًا مختلفًا. وفي النهاية صممت وعزمت على أن أستعيدها بأية وسيلة. انقضت عدتها. وطرقت كل الأبواب دون جدوى. بعت كل ما بقي عندي من متاع قديم وكتب ممزقة وأثاث وجمعت ثمانية عشر تومانًا ولم أجد بدًا سوى أن أعثر على محلّل يعقد على امرأتي لنفسه ثم يطلقها حتى أتمكن من ردها بعد انقضاء ثلاثة أشهر وعشرة أيام» .

«كان في حينا بقال عبيط خامل لو لعق سبعة كلاب وجهه ما شبعت. وكان ممن يرتكبون جريمة من أجل بصلة. ذهبت إليه وخططت معه أن يعقد على ربابة ثم يطلقها وأن أعطيه كل النفقات

وفوقها خمسة تومانات. ووافق. لا ينبغى للمرء أن ينخدع فى الناس. هذا الخسيس العاطل!».

أخفى شهناز وجهه الشاحب بين يديه وقال:

«أكان بقالاً؟ ... ما اسمه؟ أى بقال كان؟ فى أى حى؟ لا لا ... هذا شيء غير ممكن ...».

ولكن كان يدالله منشغلاً بالكلام وتجسدت الأحداث أمام عينيه فلم يقطع كلامه: «هذا البقال عقد على امرأتى. لن تصدقوا كيف كان حالى. امرأة ظلت لى لمدة ثلاث سنوات وإن أورد أحد اسمها على لسانه لبقرت بطنه. ما بالكم وعلىّ الآن أن أزوجها بيدى لهذا الوضيع العريض القفا. قلت لنفسى : لعله انتقام لزوجات المتعة اللائى طلقتُ آسفًا. نهايته، هرعت صباح الغد مبكرًا إلى باب بيت البقال، فلطعنى ساعة واقفًا مرت علىّ كأنها قرن من السنين. وحين فتح قلت له: "اوفِ بوعدك . طلق ربابة ولك عندى خمسة تومانات". لاأزال أذكر عينيه الشيطانيتين حين ضحك وقال : "هى زوجتى ولا أفرط فى شعرة من رأسها ولا بألف تومان!". فتطاير الشرر من عينى».

ارتجف شهناز وقال: «لا ... هذا شيء غير ممكن . قل الصدق ، هو ...».

قال ميرزا يدالله: «أرأيتَ الآن أنى كنت على حق؟ أفهمتَ لم لا أحب الجماعة البقالين؟! عندما قال : "لا أفرط فى شعرة من رأسها ولا بألف تومان" أدركت أنه طامع فى المزيد من المال، ولكن من ذا الذى

كان لديه طاقة للمساومة؟! لم أدرِ ما أنا فاعل. استشطت غضبًا وانقلب حالى حتى ضقت ذرعًا بالحياة كلها، ولم أحرِ جوابًا. رمقته بنظرة كانت أسوأ من كل سباب. وعدت من حيث أتيت إلى سوق البزازين وبعت عباءة ورداء لى واشتريت قفطانًا مقلمًا واعتمرت قلنسوة لبادية وشمرت عن ساعدى ومضيت. ومن ذلك الحين وإلى الآن أهيم على وجهى من هذه المدينة إلى تلك ومن قرية إلى أخرى. اثنتا عشرة سنة بطولهـــــا! لم يعد بوسعى البقاء في مكان. أعمل شاعرًا بربابة حينًا ومعلمًا حينًا آخر، كاتب تارة، راوٍ للشاهنامه أو عازف ناى على المقاهى تارة أخرى. أحب السياحة فى الدنيا ومشاهدة أهل الدنيا. أريد أن أقضى عمرى هكذا. فالمرء يتعلم الكثير. ثم إنى صرت شيخًا يطرق أبواب الفناء. رِجل فى الدنيا ورجل فى الآخرة. ولم يعد لى فى الدنيا ما آسف عليه وليس فيها ما يستحق. صدق سعدى إذ قال :

الرجل العاقل المجرب .

ينبغى أن يعيش فى الدنيا عمرين :

عمر يكتسب فيه التجارب

وآخر يطبق فيه ما تعلم .

وهنا تعب ميرزا يدالله، كأن فكيه توقفا من كثرة ما فكر وتكلم. مد يده ورفع نرجيله ونظر واجمًا إلى ماء النهر مصغيًا لصوت بعيد مختنق آتٍ من وراء الجبل.

رفع شهناز رأسه عن كفيه وتنهد وقال: «ما من اثنين لا يصبحا ثلاثة».

كان ميرزا يدالله واجمًا ذاهلاً فلم يلتفت إليه. فقال شهناز بصوت أعلى: «هناك رجل آخر خربَت بيته».

أفاق يدالله وسأله: «من؟» .

- «ربابة، احترقت روحها» .

جحظت عينا ميرزا يدالله وسأل في وجل :

- «ما قصدك؟» .

ابتسم مشهدى شهناز ابتسامة مصطنعة: «صحيح أن الزمن يغير الإنسان فيتجعد وجهه ويبيض شعره وتقع أسنانه ويتبدل صوته، فلم تعرفنى ولم أعرفك».

سأله ميرزا يدالله: «ماذا؟» .

- «ربابة، ألم يكن وجهها مجدراً؟ ألم تكن تصل ما بين عينيها؟».

صرخ ميرزا يدالله فى وجه: «من قال لك؟».

ابتسم شهناز وقال: «ألستَ الشيخ يدالله ابن المرحوم الشيخ رسول وكنتم تسكنون فى حارة حمّام المرمر؟ ألم تكن تمر أمام دكانى كل يوم؟ أنا المحلل بعينه» .

دنا ميرزا يدالله منه وقال: «أنت من أشقاني طوال اثنتي عشرة سنة؟! أنت شهناز البقال؟ جاء يوم لو وقعتَ فيه بيدى لصفيتُ حسابى معك. ولكن للأسف كبل الزمن يدىْ كل منا وراء ظهره!» .

ثم قال لنفسه كمن به مس: «ما شاء الله. انتقمتِ لى يا ربابة. صار هو أيضًا شريدًا يعانى تعاستى». ثم لاذ بالصمت راسمًا على شفتيه ابتسامة تنم عن ألم.

تقلب الرجل الذى كان نائمًا على الدكة المقابلة لهم ثم نهض وجلس، وتثاءب وفرك عينيه.

كان كل من مشهدى شهناز وميرزا يدالله يسترق النظرات إلى الآخر. كانوا يخشون أن تلتقى عيونهما. خصمان مسكينان خرجا من معركة الحب، ولا يشغلهما الآن إلا الفناء.

بعد صمت اتجه شهناز إلى النادل وقال: «اتنين سكر مكنة».

من مجموعة سه قطره خون (١٣١١هـ/١٩٣٢م) .

بائع الجاز (١)

صادق جوبك

باطمئنان وثقة ربطت عُذرا عقدة الحجاب وبه قطعة من فوطة دم الحيض بالضريح وأمسكت بأسنانها طرف عباءتها القطنية المزركشة ورفعت رأسها وركزت عينيها العجفاوين على القناديل المتربة المتدلية من سقف الضريح، وهمست بقلب ملؤه الخوف والرجاء: «سيدى، يا ابن الإمام موسى بن جعفر! أنلنى مرادى! لا تخجلنى أكثر من ذلك أمام القريب والغريب. افعل شيئًا يا سيدى لأعرف لنفسى بداية ونهاية، فألقى بيتًا يعج بالحياة ... اجعل من نصيبى زوجًا يأخذنى من دار أبى .. يأخذنى إلى حيث شاء، لا أريد منك غير هذا، زوج لا أكثر. هل هذا كثير على قدرتك الإلهية؟! .. هل أطلب الكثير؟! كيف تعطى لابنة عزيز خان «السائبة» التى تتزاحم القذارة على رأسها زوجًا بهذا الحسن؟! يا سيدى؛ أفديك بنفسى، نذر علىّ إن بلغتنى مرادى أن أذبح كبشًا سمينًا.

(١) من مجموعة خيمه شب بازى . طهران ، ١٩٤٥.

غير عذرا لم يكن بالمكان سوى قارئ كفيف يجلس بالرواق يدخن الغليون ويردد من حين لآخر آية قرآنية يحفظها، وكان صوته الميت المدوى يمتد فى فضاء الضريح.

كانت عذرا تقف ملتصقة بالضريح الخشبى البنى اللون وعلى جوانبه تدلت آلاف الأحجبة الملونة الأخرى. تهدجت أنفاسها وتجمعت دموعها حول مآقيها. استقر بقلبها أمل مؤلم وذلة يكسوها خجل. فتحت عينيها وأسبلتهما عدة مرات، ثم مالت بجبهتها على الضريح ناظرة فى حيرة إلى القناديل ومساند الكتب الموضوعة على الضريح.

كان الضريح يكتسى بكسوة صوفية خضراء أكلتها العتة وغطاها التراب. وكانت القناديل ومساند الكتب تهتز أمام عينيها، وكانت الأشياء التى تعلو الضريح تشغلها ظاهرياً. كان الضريح ضخماً ومهيباً، ما دل على أنه يضم جثمان رجل طويل القامة - هكذا تخيلت عذرا. تأملت القبر فى دهشة ودار بخلدها: «روحى فداؤك، يا له من قوام رشيد!». ولكنها استحت واحمر وجهها إذ كانت ترجو منه رجلاً يتزوجها.

نهضت من مكانها فى سرعة وخفة، وقبلت الضريح عدة قبلات متصلة رنانة ملؤها الرغبة والحسرة، وبدون أن ترفع يديها عن الحجر طافت بالضريح مرتين ثم عادت ووقفت حيث كانت. جذبت عقدة حجابها برفق وهزته برقة. وحين رأت حجاباً غليظاً من الستان الرمادى يتدلى فوق حجابها اعتراها الضيق، فجذبت عقدة الحجاب الستان الرمادى وهزته عدة مرات، وكالبستانى الذى يستطيع أن يميز الوردة الأصيلة

على الفور فى زحمة الورود ميزت ذلك الحجاب وأظهرته على غيره من الأحجبة. لكنها تنبهت فجأة وجال بخاطرها أنه قد يكون لرجل عقده لجلب الحظ، وقالت لنفسها: «ربما عقده رجل يريد زوجة. من يدرى بالنصيب؟! فلأعيده الآن كما كان لعله يتردد من وقت لآخر».

ونظرت فى ثورة من الرغبة إلى الحجاب الستان الرمادى الرجولى الخشن وهو معقود بجوار حجابها المزركش، فغاص قلبها لمرآه. أحست بحب بهيج لهذا الحجاب. بدا لها كمظهر لرجل قوى يُشتهى، فعشقته عشقها لزوج.

خجلت عذرا من سلوكها الفظ تجاهه. بدا الحجاب الرمادى فى عينيها فى هيئة رجل فمدت إليه يدها تريد أن تضمه إلى صدرها. اعتصر قلبها، استرقت النظر حولها ثم مالت بشفتيها على الحجاب الستان الرمادى وقبلته بشوق عارم.

كانت عيناها مسبلتين. أخذت تشم رائحة القماش العتيقة العطنة فى لهفة بينما تعتصر كسوة الضريح بين أصابعها المبللة بالعرق. تبدى أمام ناظريها رجل ذو ملامح مبهمة يرتدى ثوبًا رماديًا؛ كانت صورته تفر من عينيها. فتحت عينيها على مهل ووضعت الحجاب الرمادى فوق حجابها الذى يضم فوطة الحيض كما كانا من قبل، ثم هرولت خارجة من الحرم.

فى هذه الدنيا الوردية المتفتحة المزدحمة كانت عذرا تخشى الوِحدة؛ كانت تفكر فى الناس جميعًا، بينما لم يكن أحد يعلم أن لها

وجوداً فى الدنيا وأنها ملت الوحدة وتريد زوجًا. فى الدنيا آلاف الرجال يريدون زوجة؛ لو علموا بقلب عذرا المسكينة، ربما فعلوا من أجلها المستحيل، ولكن .. أنى لأحد أن يعلم. كم من نساء ورجال ينامون الليل يحدوهم أمل الوصال ولا يعلم أحدهم بحال الآخر. آه لو نطقت هذه الوسائد والأغطية! إذن لخاف الناس بعضهم بعضًا.

كانت عذرا تقضى ساعات حياتها تنتظر .. كأنها دائمًا فى انتظار من يطرق باب الحارة يخطبها، يمسك بيدها ويأخذها معه. كان انتظارها يتجدد كل صباح حين تستيقظ من نومها. ولكن لم يكن أمامها سوى بائع الجاز يتردد على دارها لسنوات يبيعها بضاعته. كان نفس الرجل الذى يأتى كل يوم بثيابه المشبعة بالزيت والتى يتلقاها زكاة، وشامته الغليظة على جفنه. كان يدخل البيت، يتناول الوعاء من يد عذرا، يملؤه حتى نصفه ثم يعيده لها ويمضى.

وأحياناً وفى أثناء انشغالها بالبيت يبلغ مسامعها صوت طرقات على الباب. وكانت تسرع إلى الباب لتفتحه فلا تجد أحداً. حينئذ كانت توقن أن الأوهام لعبت برأسها. كانت تختلق آلاف الأزواج يخطبونها، وكانت تعجب بهم جميعًا، حتى من كان منهم على شاكلة بائع الجاز، وعلى جفنه شامة غليظة.

كانت كل حياة عذرا شيئًا ورحلتها إلى قُم شيئًا آخر. كان لذكريات هذه الرحلة ارتباط عذب بحياتها. تعرفت فيها على أول يد خشنة رجولية فى حياتها، أمسكت بها من تحت إبطها قرب صدرها. لم تغب ذكرى

تلك الليلة عن ذاكرتها قط. كانت تستعيد تفاصيلها دائمًا وتتلذذ بها لذة شهوانية مجنونة.

كانت ليلة مظلمة دافئة حين نزلت عند كشك نصرت. هبط كل الركاب وهبطت عذرا أيضًا. ثمة رائحة رطبة عطنة تهب من ناحية البحيرة. بدت النجوم كأنها قتلت القمر وواريته؛ كانت تومض في سماء حالكة السواد. وكان صبي السائق يضخ البنزين، وكان السائق واقفًا عند سلم الحافلة يساعد النسوة على الركوب، إذ كان سلم الحافلة عاليًا. وحين قبض بيديه القويتين الغليظتين تحت أعلى ذراعها قرب ثديها، ملأت أنفها رائحة البنزين النفاذة، فأحست لذة لم تحسها من قبل، وتسارعت دقات قلبها وحارت فيما تفعل.

ألم بها دوار وخدر إلى أن دخلت الحافلة واتخذت مقعدًا. كانت كمن رأى منامًا لذيذًا لم يكتمل؛ طاردت بقاياه في لهفة ونشوة، تقلصت عضلات رقبتها عدة مرات حتى تبلع ريقها، إلا أن فمها وحلقها كان اعتراهما جفاف. ودون أن تدري كان ذراعها الأيمن لايزال قابضًا على جنبها؛ كانت تحاول أن تحول دون فرار اللذة التي بلغتها، خدرتها رائحة البنزين.

مدت عنقها إلى الأمام عدة مرات لكنها لم تر شيئًا، ولكن بدا لها السائق في الظلمة رجلاً غليظ العنق يرتدي رداء من الستان الرمادي. خدرتها رائحته النفاذة التي كانت لاتزال عالقة بأنفها ممتزجة برائحة البنزين واليد الغليظة.

ظلت عذرا بعد ذلك زمنًا تعتصر جنبها بيدها اليمنى فى نومها وفى صحوها فتتلذذ. كانت رائحة الحجاب الستان الرمادى النفاذة وعبق البنزين الحاد تبلغ أنفها فتتلذذ.

مضى بعض الوقت وعذرا جالسة فى حديقة الفناء تحت شجرة الرمان تنظر إلى زهورها الحمراء وتعود إلى التفكير فى زوج لها. علا صوت بائع الجاز من وراء الباب ينادى: «بائع الجاز .. جاز». نهضت عذرا من مكانها مسرعة، وتوقفت فجأة. وضعت يدها على جذع شجرة الرمان القصير المعوج وتوزع قلبها بين الذهاب إليه والإحجام. وأخذت تفكر بينها وبين نفسها:

«ليس فى الإمكان أسوأ مما كان (لا لون أكثر قتامة من السواد)، ليكن ما يكون .. ربما يريد زوجة، ليست جريمة، لم الخجل؟! ربما كان مثلى يريد قرينة».

بلغت الباب ومدت الوعاء الخالى إلى بائع الجاز. هذه المرة أبرزت يديها النضرتين من تحت عباءتها القطنية المزركشة أكثر مما اعتادت وأظهرت أساورها الزجاجية ليراها بائع الجاز. تناول بائع الجاز الوعاء من يدها بانحناءته المعهودة، وأخذ يصب الجاز. مرة أخرى تخترق رائحة البنزين أنف عذرا فتتسارع دقات قلبها.

«يا عم يا بائع الجاز، ألا تبيع بنزينًا؟».

«وفيم تريدين البنزين؟ حذار يا ست أن تصبى البنزين مرة أخرى فى المصباح فينفجر!».

«أنا أعرف أنه ينفجر .. ولكنى أريده لأغراض أخرى .. ».

«لأى غرض مثلاً؟».

«للسيارة .. حقًا، أليست لك زوجة؟».

«ثلاث».

«وأطفال؟».

«أنا عقيم».

«حلالك أربع منهن. ربما رزقت فيما بعد بطفل. ما أدراك؟! .. لا ينبغى للمرء أن يموت دون ذرية».

«لا يا ست، يكفينى ما أنا فيه. ومن له القدرة على ذلك؟! ماذا فعلنا لآبائنا ليفعله لنا أولادنا؟!».

كانت عذرا لاتزال واقفة بالباب تنظر حائرة إلى قطرات الجاز التى سقطت على الأرض. وقف بائع البصل بحماره أمامها وسأل بصوت ينم عن ضيق: «عندنا بصل خزين يا ست؛ ألا تريدين؟! .. بصل جيد، بصل أصفهانى».

من بعيد كان صوت بائع الجاز يطرق مسامعها: «بياع الجاز! جاز».

الحفل السعيد

جلال آل احمد

حين عدت من المدرسة فى الظهيرة، كان أبى يتوضأ على حافة الحوض . كانت تحيتى على لسانى حين بدأت الأوامر:

«تعال صب لى مية، واجرى هات لى الفوطة من فوق السطوح».

كانت هذه عادته. ما أن تقع عيناه على أحدنا، سواء أنا أو أمى أو أختى الصغرى، حتى يبدأ فى إصدار الأوامر. مددت يدى فى الحوض فغاصت الأسماك إلى القاع، وقال أبى:

«إيه يا جحش، اتلكع شوية!».

عدوت صوب سلم السطح. كان يحب السمك حبا شديداً؛ الأسماك البيضاء والحمراء فى الحوض. عندما كان يتوضأ لم تكن الأسماك تبرح مكانها، ولكنى لا أدرى لم كانت تغوص إلى القاع ما أن أدنو من الحوض. كانت تخفض رءوسها وتهز ذيولها بسرعة ثم تهبط إلى القاع. على السلم وجهت إليها سبة أو سبتين ثم صعدت إلى السطح. كانت

الشمس فى كل مكان. أما عن الصهد فحدث ولا حرج. كان جارنا يطعم الحمام. جذبت الفوطة من فوق الحبل ووقفت أشاهد الحمام؛ فهو على أية حال لا يخافنى. ألقيت التحية على جارنا الذى زوّج ابنته مؤخراً، وكان يعيش وحيداً بالبيت . كان لأحد الحمامات حلقة تحيط بكاحلها. كانت جميلة فى مشيتها وفى هديلها. قلت:

«حوالين رجل الحمامة دى عامل كده ليه يا عم أصغر؟».

قال: «ده مفيش حد عنده زيه، تعرف؟ امبارح قصقصت ريشه».

«قصقصت ريشه؟!».

«أيوه، واحد قل نوقه معايا فخميته ف حدايتين من بتوعه».

كان أبى حظر التحدث إلى هذا الجار «الهايف بتاع الحمام». ولكن هل كان من الممكن طاعة أبى فى كل أوامره ونواهـــيه؟! حدث مرتيـــن أو ثلاث أن سقط حجر من يد عم أصغر فى فنائنا فعلا صوت أبى. وذات مرة أيضاً ولسوء الطالع كان أبى يتوضأ فى الحوض فرمى عم أصغر حجراً وراء الحمام، فإذا بالحجر يسقط فى حوض بيتنا فذعر السمك. وكان يوماً ملؤه الصياح والوعيد. وجه أبى على الرغم من وقاره وهيبته إلى عم أصغر من السباب ما جعل شعرى يقف هولاً. أما عم أصغر فلم ينبس ببنت شفة . ومنذ ذلك اليوم حظى عم أصغر بإعجابى. كنت ألقى عليه السلام كلما سنحت الفرصة وأسأله عن الحمام على الرغم من أوامر أبى المشددة ونواهيه. قلت له:

«يعنى اسمه حداية؟».

حين سمعت صياح أبى: «أنت فين يا جحش أنت؟».

لطفك اللهم؛ ما جئت إلا لفوطة أبى. هرولت هابطًا الدرج. كدت أتعثر. وعندما مددت له يدى بالفوطة وأنا أرتعد مذعوراً سقطت قطرة ماء من يده على يدى وأصابنى الهلع، كأنى تلقيت صفعة منه تمامًا، فاستدرت ومضيت. دق باب الحارة:

«اجرى شوف مين. لو كان الحاج حسين قل له جاى».

كلما كان أبى يبتعد عن المسجد كانوا يأتون وراءه. فتحت الباب. كان ساعى البريد. سلمنى ورقة ومضى. لا كلمة ولا شىء. كان أصلاً يسىء معاملتنا. لم يكن أبى يعطيه بقشيشًا ولا عيدية. لذلك اعوج معنا. وكنت أدهش: لم إذن يحضر أوراق أبى ورسائله؟! وحتى لا تراوده تلك الأفكار قررت بينى وبين نفسى أن أدخر من مصروفى تومانًا وأعطيه له وأقول إنه من عمك الحاج، أى من أبى. كان كل أهل الحى ينادونه بلقب «عم الحاج».

«مين يا جحش؟».

أتى صوت أبى من داخل غرفته. دخلت الردهة مادًا له يدى بالرسالة وقلت:

«البسطجى».

«افتحه واقرأه. أما نشوف المدارس دى علمتكم حاجة والا لأ».

كان أبى جالساً على سطح الفرن يمشط لحيته. فتحت الرسالة. كانت أربعة سطور مطبوعة. سررت سروراً لا مزيد عليه، إذ لو كانت بخط اليد، خاصة بخط الرقعة لأسقط فى يدى وبهتّ، ولكان تقريع أبى بدأ. ومع ذلك كان اسم أبى مدوناً بخط اليد وسط السطور المطبوعة، وتحته إمضاء أحد شيوخ الحارات بحينا وأصبح أفندياً فى الآونة الأخيرة. وكان على صلة وثيقة بأبى حتى سنة مضت.

«اقرأ باه. ساكت ليه يا واد؟».

وقرأت: «بمناسبة ذكرى السابع عشر من ديسمبر السعيد وتحرير المرأة يقام حفل بمنزل ....».

جذب أبى الورقة من يدى وسمعته يقول:

«وريني يا جحش!».

وذهبت. الذهاب من أمامه أفضل حين تتوتر أعصابه. فى الفناء سمعته يقول بتنغيم:

«الزنديق ابن الكلب، الملحد ابن الملعون!».

كنت معتاداً منه على لفظ «زنديق». كان يقول لعم أصغر جارنا «يا زنديق» أيضاً. ولكن ما معنى «ملحد»؟ لم أكن عرفت معناها بعد. ماذا كان مكتوباً بالورقة أصلاً؟ من النظرة التى ألقيتها عليها أدركت أن

الأمر فى مجمله بطاقة دعوة. أذكر أن اسم أبى المكتوب بوسط الورقة بخط اليد كان مختصراً للغاية، فلم يرد بها ذكر ألقاب «آية الله» و «حجة الإسلام» وما إلى ذلك من ألقاب تعودت رؤيتها فى كل رسائله؛ اسمه ولقبه لا غير. وكتبت بعد اسمه كلمة «السيدة» وهى كلمة لم أفهم مغزاها. طبعًا كنت أعرف ما تعنيه كلمة «سيدة»؛ إذ كنت بالصف السادس على أية حال، وفى العام الماضى كنت أحصل على درجات عالية، ولكن لماذا بعد اسم أبى؟ لم أكن رأيت شيئًا كهذا حتى ذلك الوقت.

ما إن مررت بجوار الحوض حتى ذعرت الأسماك بأفواهها المستديرة وبرزت إلى الماء إلى النصف وأخذت تلوك فى هدوء. ثم أدركت أن غليلى لم يشف؛ فنثرت حفنة ماء عليها وعدوت نحو المطبخ. كانت أمى تقلى الباذنجان، وكان المطبخ معبأ بالدخان، وقد احمرت عينا أمى، كعهدى بها حين تعود من مجالس الروضة.[١]

«سلام عليكم. عندنا غدا إيه؟».

«أديك شايف ماما. عليكم السلام. أبوك خرج؟» .

لأ لسه ..» .

(١) الروضة : احتفالات التعزية عند الشيعة وتتلى فيها الروضة بكاء على آل البيت .

كان الباذنجان المقلى مرصوصًا على الطبق مقطعًا أنصافًا ونثر بجواره البصل المحمر. وضعت فى فمى عددًا من قطع البصل المحمر وقلت وأنا ألوكها:

«أنا جعان».

«روح أنت وأختك افردوا الطبلية. أنا طالعة حالاً».

وضعت قطعتين أو ثلاث أخر من البصل المحمر ذابت فى فمى قبل أن أخرج من المطبخ. كانت أختى جالسة مكان أمى بجوار ركن الفرن وأخذت تصنع دمية من بقايا الجوارب الممزقة ببقجة أمى؛ دمية قصيرة وبدينة ودميمة. قلت لها:

«يا براز الكلب. مدلعة أوى وطالعة فيها!».

وركلت أدوات لعبها بقدمى فصاحت:

«يا ربى! أدى عباس الذليل جا تانى. يا بذرة الكلب!».

لم أقو على ضربها. كنت جائعًا وكان الباذنجان أحمر ورديًا. ولو عاقبتنى أمى لانفطر قلبى. لذا لم أبق أمامها ومضيت منشغلاً بأدوات لعبى. نحيت كتبى جانبًا وتناولت ألبوم الطوابع ونظرت إليه خشية أن تكون أختى عبثت به. كنت مللت طوابع العراق وسوريا. ولكن ماذا أفعل؟ لم تكن تأتى إلى أبى رسائل إلا من هاتين الدولتين. من بين هذه المجموعة كلها كنت لا أحب إلا أحد طوابع العراق عليه برج ملتوٍ كالثعبان وحاد عند قمته، ووقف أمامه فارس فى حجم ذبابة. كنت أتمنى

أن أكون مكان ذلك الفارس، أو حتى بجانبه ...

«عباس!» .

صاح أبى مرة أخرى. يا ربى! ما شأنه بى؟ كانت واحدة من صيحاته التى كان يطلقها حين يريد أن يضربنى، فهرولت إليه:

«تعال يا جحش . روح الجامع وقول الحاج تعبان شوية ، وبعدين اجرى على بيت عمك قل له يسيب اللى ف إيده وييجى حالاً».

«ما تسيب الواد يتسمم له لقمة».

كانت هذه أمى. لم أفهم متى خرجت من المطبخ ولكنى كنت أعلم أن الخناقة على وشك أن تحتدم، ويتسمم غداؤنا.

«يا ولية يا قبيحة! برضه بتتدخلى فى شئونى؟! يعنى آخدك من أيدك دلوقتى رأسك ومؤخرتك عريانين وأوديكى الحفلة؟!».

احمر وجه أبى لدرجة أنى خفت. كم رأيت من عصبيته، علىّ أو على أمى أو مريديه أو على تجار الحى، إلا أنى لم أره على هذه الحال من قبل، حتى يوم أن قال لعم أصغر جارنا كل ما خرج من فمه. هاجت أمى وماجت ولم تدر ما تقول، وكنت أنا أسوأ منها حالاً. انتفخت أوداج أبى وغدت أغلظ من الحبال. لم يكن ثم معنى للبقاء بالبيت. بينما كنت أضع قدمى فى حذائى أتت أمى وفى يدها لقمة كبيرة وقالت:

«خد روح جرى للمنحوس».

كان نصف اللقمة لايزال بيدى حين طرت خارجًا من باب البيت. كان الصهد حاميًا، ولم يكن للشمس وجود. ألقيت ببقية اللقمة إلى أوزتين بالحارة. وحين بلغت المسجد كنت مسحت فمى أيضًا.

كانت الأحذية المهلهلة متناثرة على الباب، وكانت صفوف صلاة الجماعة أكثر اعوجاجًا وفوضوية من صفوف أطفال المدارس. كان مريدو أبى يتحدثون مثنى وثلاثَ ويرتلون الأذكار. لم تكن ثمة حاجة للكلام. ما أن رأونى نهضوا فرادى وتهيئوا للصلاة . كانت عادتهم أن يدركوا حين تقع أعينهم علىّ أن الحاج غير آتٍ.

عدوت باتجاه السوق. مررت بالكبابجى فتميع قلبى. كان دخان الشواء يملأ المكان. ألقيت نظرة على شعلة النار وأسياخ الكباب التى كان الحاج على يقلبها، وإلى الوعاء المترع بقطع الجرجير ودوائر البصل فوق المنضدة. ثم مضيت. لم تكن دكاكين الشواء تثير شهيتى بأبوابها الخلفية المغلقة، بداخلها تؤتى الفواحش ولم تكن لأكل الشواء. كان المسمط صامتًا يصفر وأوعيته فارغة؛ فهذا أوان البليلة على أية حال. كان سوق المسمط يزدهر فى أوقات الصباح؛ الصباح البارد الضبابى. كانت ثمة شاة صحيحة مسلوخة تكورت بأذان ضخم ورقبتها تشبه جذع شجرة. وعلى دكة بالناحية الأخرى أذان آخر ملىء بحبوب القمح وضع فوق مهراس كبير، كبير جداً . لا فائدة. كان علىّ أن أسرع الخطى وأخبر عمى وإلا فلا غداء.

على ناصية السويقة طباخ متجول وضع قدر حساء بين ساقيه وأخذ يغرف والزبائن يرشفون. كان معظمهم من الفعلة بطواقيهم اللبادية تحت

إبطهم. وفى قلب سوق الإسكافية اقشعر بدنى من رائحة الجلد فأسرعت وانعطفت إلى داخل السويقة. هنا لم يعد هناك صهد. التهبت أذناى؛ تحت قدمىّ ثم بساط من نشارة الخشب الناعمة، وفى الأركان وعلى الجوانب من الألواح الخشبية ما يهوى قلبك؛ كم كانت رائحتها زكية. تمنيت أن أمتلك ثلاثة من هذه الألواح وأن أجعل غرفتى زاخرة بها؛ أدق واحداً للكتب، وآخر للأشياء الصغيرة، وثالثًا أعلقه فوقهما وأخصصه للكراكيب التى لا أود ليد أختى أن تصل إليها. ها هو دكان عمى، ولكن ما من أحد به. وعلى باب الدكان ترددت برهة ودرت حول نفسى، فإذا بصبيه أتى لا أدرى من أين. كان يعرفنى. قال إن عمى يتناول غداءه بالمخزن، فاتجهت إلى المخزن. كان المنقل أمامه وهو جالس على أريكته الجلدية وعباءته على كتفه، وأخذ يلتهم اللحم بالياميش والأرز. ألقيت السلام وعرضت قضيتى. وبينما كان هو يلوك طعامه كنت أنا أقص عليه قصة الرسالة التى جاءت والحديث الذى دار بين أمى وأبى. قال : «عجب، عجب!» مرتين أو ثلاثًا، وأجلسنى ونثر لى ملعقة من اللحم على كسرة خبز فازدردتها ونهضنا. خلع عمى عباءته من فوق كتفه وطواها تحت إبطه وطوى طاقيته فى جيبه، وخرجنا من باب الدكان. كنت أعرف السبب فى ذلك. فى السنة الماضية، وفى نفس هذه السويقة، أمسك شرطى بخناق عمى لأنه لم يكن يضع الباريه على رأسه، ولم يتركه حتى تمزقت عباءته. لا أنسى ما حييت امتقاع لون وجه عمى يومها؛ صار بلون الجبس الأبيض، وأخذ يتحدث عن الكرامة ويتشفع بالله وبرسوله. لكن ذلك الشرطى أدخل إصبعه فى عروة كم العباءة وجذبه فانشق الكم فى يده فرماه ومضى. فى ذلك اليوم أيضًا وتمامًا كما حدث اليوم ،

لا أدرى ما حدث فأرسلنى أبى إلى عمى، وكنا فى طريقنا إلى البيت، فوقع ذلك الحادث.

فى الطريق سألنى عمى ما إذا كان أبى جدد جواز سفره، ولم أكن أعلم. كلما كان أبى يريد القيام برحلة إلى قُم أو قزوين، كنا نقيم هذه المراسم؛ كان يعطينى جواز سفره فأحمله إلى عمى الذى يأخذه بدوره إلى إدارة الجوازات ويؤدى المطلوب. لذلك سأل عمى ما إذا كان مدير الإدارة أتى إلى دارنا اليوم. قلت لا؛ كنت أعرف مدير الإدارة. التقيته مرة أو مرتين فى دارنا وأنا ذاهب إلى المدرسة فى أوقات الصباح. يبدو أنه أحد مريدى أبى؛ كان حين يأتى لا ينتظر بالباب؛ بل كان يفتح الباب قائلاً: «يا ساتر»، ثم يتجه مرة واحدة إلى غرفة أبى.

وعندما وصلنا إلى البيت، ذهب عمى إلى أبى ولم أنتظر. هرولت إلى الطبلية التى لم تترك أمى سوى ركن منها لى. كان يبدو من قطع الباذنجان الباقية أنها لم تأكل شيئًا. كانت تفعل ذلك كلما احتدم الجدال بينها وبين أبى. تناولت غدائى فى عجلة ومضيت. حين مررت أمام باب غرفة أبى، سمعت صياحه عاليًا، نفس ألفاظه: «الزنديق»، «الملحد»؛ لابد أنه كان يسب نفس الرجل الذى أرسل إليه الرسالة. كم كنت أود أن أصعد إلى السطح لأشاهد حمام عم أصغر ولو لمرة واحدة؛ إلا أن الجو كان غائمًا ولابد أن الحمام طار إلى مكان ما. ثم إنى تأخرت على المدرسة. لم أكن تأخرت كثيرًا؛ ولكن موقفى كان يحتم علىَّ أن أسرع بالذهاب. نعم، مرة أخرى نفس مسألة السروال القصير! على أى، لم أكن أستطيع أن أذهب إلى المدرسة بسروال قصير! وبصرف النظر

كل هذا، لم أكن أنا نفسي أحب ذلك. لا أحب أن أكون كهؤلاء الأطفال المدللين الذين يمشون صفوفًا والصفارات تتدلى من أعناقهم «وبالسروال والكاب ...». نعم، لم يعد أحد يعجب بهذا السخف. لذا طردنى الناظر من المدرسة: «يا تقصّر بنطلونك يا تروح ع الكتّاب». كان ذلك فى بداية السنة، أى فى أواخر سبتمبر. وفى ذلك الوقت خطرت لأمى فكرة؛ خاطت كبسولة برجلى السروال من الداخل، وخاطت عروتها أيضًا بأعلى السروال ومن الداخل، وعلمتنى كيف أرفع السروال من الداخل وأزرره حال وصولى إلى باب المدرسة، ثم أحله عند الخروج وأجذبه إلى أسفل. وقد كان. صحيح أن سروالى كان يتكور ولا أستطيع أن أجرى ولكن ... وفى ذلك اليوم أيضًا وفى رهان مع حسن «التخين» بحمام سباحة المدرسة، وصل الماء إلى رجلى سروالى فتبللت وسخر منى الأطفال. ولكنى على أية حال تخلصت من مضايقات الناظر. لذا كنت أحاول جاهدًا أن أصل إلى المدرسة قبل الكل وأغادرها بعد الكل. وحين يدق جرس المرواح، كنت أتعمد أن أتأخر بدورة المياه حتى يمضى الكل فلا يرى أحد حيلتى التى أحتال بها على سروالى. كان الأطفال يعرفون ولا يتدخلون، ولكنهم أطلقوا علىّ ولهذا السبب لقب «عم الشيخ». ضايقنى ذلك فى البداية، ولكنى حين فكرت فيما بعد وجدت أن الأمر ليس بهذا السوء؛ فهو لقب على أية حال، وأفضل من «أبو ريالة» لقب ألفة الفصل.

حين بلغت باب المدرسة، كنت غارقًا فى العرق من طول ما عدوت. كانت المدرسة مكتظة والناظر يقف بالشرفة يضرب بالسوط على

سرواله. ما كنت لأستطيع أن أرفع سروالى فى ساحة المدرسة، فانهمكت فى رفعه فى الحارة. وإذا بى أسمع قائلاً يقول:

«الله يلعنكم! شوف العيال ووجع القلب بتاعهم!».

رفعت رأسى. كانت عجوزًا على رأسها طاقية سوداء عريضة بارزة الطرف وربطت تحتها طرحة أدخلت أطرافها فى ياقة ثوبها الفضفاض الطويل. قلت لنفسى: «الولية دى مالها ومالى؟!». ثم عدوت إلى داخل المدرسة.

فى العصر، حين عدت من المدرسة، كانت أختى الكبرى جاءت إلى دارنا بطفلها الرضيع. كان بيتها بأحد الأزقة المجاورة لنا. كان بإمكانها زيارتنا والعودة فى أثناء النهار. وكانت تتسقط أخبار الحارة، وما أن يخرج زوجها تأتى مسرعة. كانت تلف رأسها بطرحة حمراء داكنة. لابد أنها عائدة من الحمّام الشعبى. كان وليدها يبكى ويزعق بصوت ممل. وكان الحاج حسين مؤذن المسجد يروح ويجىء بالنرجيل والشاى. لابد أن أبى لديه ضيف. كانت أمى تصب الشاى، وأختى تقول لها:

«وعارفة يا نينة! الكرارية وقعت على دماغه ... خسارة أنهم شالوا مدفع «لؤلؤ»! وإيه ذنب العيل اللى عديتيه من ماسورته مرتين وكان زى ما تكون مية دلقتيها على نار؟!».

تذكرت أنى حين كنت بالصف الأول كم صعدت فوق هذا المدفع! ولعبت بالأسدين على جنبيه. وكنا نلعب الاستغماية ونختبئ بين عجلاته،

وكنا ندحرج الحجارة على جوانب البركة المجاورة له وسط أشجار الصنوبر العالية بميدان أرك. كان الحجر يتدحرج فوق ماء البركة فيحدث سبع موجات، بل عشر . أية متعة كانت! رشفت شايي ومعه كسرة خبز.

- «ياللا يا بنتي شوفي لك صرفة تانية دلوقت. شيليه ووديه عند القسم وعديه من تحت ماسورة بندقية».

- «وهو حد يقدر يهوب ناحية القسم اليومين دول يا أمي؟! أعوذ بالله!».

- «طيب يا بنتي ليه ما تديهوش لجوزك يوديه هو؟!». يعديه من تحت ماسورة بندقية تلَت مرات، وبعدين يدّى صاحب البندقية حتة سكر نبات».

وظلتا تتباحثان عما إذا كان صاحب البندقية هو الحكومة أم الحرس حتى سكبتُ كوب شاى آخر فى جوفى وأسرعت إلى ألبوم الطوابع. ولم أكد أبلغ صفحة البرج الملتوى حتى بلغنى صوت أمي:

- «روح يا حبيبى، هات حزمتين تلاتة قش وحطهم جنب الحمّام. اجرى الله يبارك لك!».

تجاهلت الأمر وأخذت أقلب فى الألبوم وكأن أمى لم تقل شيئًا. فجاءنى صوت أختى هذه المرة:

- «اختشى على دمك يا عِجل. عايزها تروح هى تجيب القش؟! الكسل طالع على وشك ودماغك. انت اللى كنت طوع!».

كان هذا الحمَّام بطرف الدار، وتحول بدوره إلى مكان لمراسم التعازى. فمنذ أن أزيلت الخيمة من فوق رءوس النسوة بالحارة، قرر أبى إقامة حمَّام فعمُر دارنا سبعة أيام فى الأسبوع. أسوأ ما فى الأمر أن كل نساء العائلة كن يأتين. والأسوأ من ذلك أن إحضار القش كان علىّ أنا، من القبو القابع عند نهاية الفناء. كان علىّ أتى بما لا يقل عن عشر حزم من القش وأنثرها فى كانون الحمَّام بركن من المطبخ مرتين فى اليوم على الأقل. صحيح أنه منذ أن أقيم الحمَّام تخلصت من الذهاب إلى الحمَّام مع أبى، حيث كان يسلمنى إلى الحلاق كل مرة ليُعمل الموسى برأسى فيحفر جلدها لتصبح كرأس أبى؛ إلا أن هذا لم يكن بالأمر الذى يستحق انشغاله. كانت يدى تُجرح كل مرة فى موضع أو موضعين؛ إذ كانت أفرع القش معوجة وشائكة ومليئة بالقشور. وكان علىّ أن أصعد فوق كومة القش وأرفع من أعلاها حزمة حزمة، وإلا علت صيحات أبى معترضًا على سحب القش من أسفل الكومة.

حين وصلت إلى القش، فزعت الطيور الداجنة صائحة أمامى. كان الجو غائمًا فظنت الطيور أن الليل جن فأوت إلى أعشاشها مبكرًا عن عادتها. وفى أثناء التقاطى للحزمة الثانية، مر فأر بجانب قدمى وتسلل بين أعواد القش. كان ضئيلاً ضئيلاً. لابد أنه كان وليدًا. فخرجت وأحضرت ملقاطًا وحاولت طويلاً أن أخرجه ولكن دون جدوى. فما كان منى إلا أن تركته وعدت إلى أكوام الحطب. كنت ألتقط الحزمة الرابعة

حين سمعت طرقات على باب الحارة. لابد أنه الحاج حسين يفتح الباب ليخرج. لم أبرح مكانى. ثم حملت الحطب إلى داخل المطبخ. كانت أختى تصنع بعض الحلوى وأمى تعبئ مصابيح الكيروسين. قالت حين رأتنى:

- «أنت ما بتسمعش يابنى؟! اجرى أفتح الباب . الحاج حسين رايح الجامع» . أدركت أن أبى لم يكن يريد أن يذهب إلى المسجد. كان الجو يوشك على الإظلام حين بلغت الباب. كان ثم ضابط شرطة ومن خلفه امرأة على رأسها طرحة فى عمر أختى الكبرى؛ كانت طرحتها قصيرة ومنقوشة بالورد . لم تكن امرأة بمثل هذه الهيئة دخلت دارنا من قبل. كانت بيدها حقيبة وكانت تمشى على أطراف أصابعها. حييت وتنحيت جانبًا فدخلا. على كتفى الرجل كانت ثمة نجمتان، ولم أكن أعرفه. ترى ما شأنه؟ فى أول الليل مع هذه المرأة المحجبة؟! منذ الصباح وإلى الآن كانت تجرى فى دارنا أحداث كلها جديدة. لا أدرى لم خفت فجأة. كانت الردهة مظلمة فلم يلحظوا خوفى. ربما استجدت مشكلة تتعلق بمكانة أبى الدينية؟! لعله لم يذهب إلى المسجد اليوم لهذا السبب. أسرعت لأخبر أمى. جذبت طرحتها على رأسها وأتت إلى الردهة وألقت السلام وسألت عن الأحوال. قال الضابط لأمى كلمات فهمت منها أنه ليس غريبًا، فاطمأن قلبى. ثم قال الضابط:

- «هاسيب بنتى أمانة عندكم وأروح الحج».

دخلت أمى والفتاة، وتقدمت أنا ومن ورائى الرجل إلى غرفة أبى، ثم عدت لأحضر الشاى مع أن أبى لم يكن أمر، ولكن من الواجب أن نقدم

الشاى للضيف القريب. حين عدت بالشاى وجدت عمى معهما ومأمور القسم أيضًا ومعه شخص آخر. سويقة. جلسوا جميعًا حول المدفأة؛ عمى إلى يمين أبى، والآخرون كل فى ناحية. حين وضعت الشاى كان الضابط يتحدث باللغة الفصحى قائلاً:

- «نعم يا حاج؛ هى من صميم اختصاصك ولك أن تقوم بتنظيمها بنفسك».

خرجت. ما معنى «اختصاص»؟ كلمات جديدة عديدة سمعتها اليوم! أمى لا تعرف معانيها. لو كان أبى فى حالته العادية أو خالى البال لذهبت وسألته عنها. كان دائمًا يحب هذا النوع من الأسئلة، أو أن أعطيه بوصة يبريها لأكتب بها خطًا كبيرًا. وفهمت أيضًا أنه حين يكون لى طلب لديه أو أريد منه مالاً أن أذهب إليه بواحد من هذه الأسئلة أو ببوصة مكسورة السن. ثم قررت أن أذهب لأرى من تكون هذه الفتاة.

كانت أمى تفترش الأرض وأجلستها فوق الصفة، مكانها. ثم حذاء عالى الكعب عند الباب؛ تمامًا كأنه رجل طويل القامة وقف فى صلاة الجماعة وسط صف من الراكعين. ثم عطر بالغرفة لم أدركه لأول وهلة، ولكنى تذكرت فجأة؛ كان يشبه العطر الذى يفوح من مدرّسة الألعاب بمدرستنا، خاصةً فى صدر الصباح. نعم، كان عبيرًا من ذلك النوع. كانت شفتاها قانيتين، واتخذت ركنًا من الصفة وطرف اللحاف يغطى ساقيها. حين دخلت كانت تقول:

- «الهانم مزاجها مش رايق انهارده».

قالت أختى: «لا يا حبيبتى. ده بس الواد قلبه بيوجعه، قلت أدى له سكر مغلى يمكن يروق، لكن مفيش فايدة».

سألتها أمى: «وحضرتك عندك كام عيل؟».

طأطأت الفتاة رأسها وقالت: «أنا لسة فى الدراسة».

– «دراسة إيه؟».

– «بادرس توليد».

وهزت رأسها وضحكت. اتجهت أمى إلى أختى قائلة: «ومستنية إيه يا بنتى؟ قومى ورى عيلك للست. قومى لحد ما أروح أجيب لكم شاى» . ونهضت وخرجت. أحضرت ألبوم الطوابع من غرفتى وأخذت أقلب صفحاته بلا وعى، إذ كان انتباهى منصرفًا إلى أختى التى فكت لفة الطفل فوق الصفة، فتحسست الفتاة بطنه التى كانت تشبه بطن أسماك أبى البيضاء. ولم تكد تنطق حتى علا صياح أبى من غرفته. كان ينادينى. ألقيت ألبومى على حافة النافذة وعدوت. كانت أمى عائدة من عند باب غرفة أبى. قلت:

– «أنتِ اللى جيتى تقدمى الشاى للضيوف؟!».

– «قطع لسانك قليل الأدب».

دخلت غرفة أبى. كان يريد شايًا، وكان علىّ أن آخذ النرجيل لأغير الحجر. فى اللحظات التى قضيتها فى جمع الأكواب وحمل النرجيل

سمعته يقص حكاية حرب عمرو بن العاص على جيوش الروم. كنت أعرفها. لو كان ضيفه موظفًا لحكى له قصة رحلة الهند، ولو كان تاجرًا لحكى له عن رحلاته إلى كربلاء ومكة. وبالغرفة الآن ضابطان بنجوم على أكتافهما. خرجت وأحضرت الشاى وعدت. كانت أمي غيرت النرجيل أيضًا، فحملتها. كان أبى وصل إلى وقوع عمرو بن العاص أسيرًا فى يد الروم ومثوله بين يدى قيصر الروم. لم أطق صبرًا، ولم أكن أطيق أيضًا دخول حجرتنا فأرى عورة ابن أختي وساقيه المبللتين بالبول. كما أصابني الامتعاض أيضًا من عطر تلك الفتاة؛ فهو نفس عطر مدرسة الألعاب، فخرجت إلى الحارة. لم يكن ثم أثر للأطفال، لابد أنهم لم ينتظروني ومضوا. كنا نتجمع على ناصية الحارة ساعة الغروب ونقوم بعمل شيء؛ كنا نخرج إلى الشارع ونقلد الأفندية ونخطف الطواقى من فوق رءوس الفعلة ونلهو بها، أو نلعب بحارة دارنا، أو نتبادل الصور أو أشياء من هذا القبيل. كم كنت أود أن آخذهم لأعرض عليهم صورة لطرزان كنت رسمتها عصر نفس ذلك اليوم بالمدرسة ببوصة جديدة، بخنجره حول خصره وهو معلق بحبل يحيط بمعصمه ويده الأخرى على فمه يقلد زئير الأسد، ولكنى لم أجد منهم أحدًا. ماذا أفعل؟ جلست على الباب أرقب الناس. أكثر ما كان يستحق الفرجة صوت «هو الله» الذى كان يدوى من داخل الحارة؛ لابد أنه كان قادمًا على مهل كعادته كل ليلة يضرب الأرض بعصاه ورأسه متجه إلى السماء. وفى أعقاب كل دعاء واستعاذة كان يقول : «هو الله» ثم يعيد ما قال. وأتى بائع اللفت ومضى. لم يكن بآنيته شيء ظاهر؛ ولكنه كان ينادى. امرأة تتشح بعباءة سوداء أخرجت رأسها من داخل البيت

المقابل وألقت نظرة داخل الحارة، وبعد أن تلفتت حولها هرعت إلى الخارج وسارت مسافة ثلاثة بيوت ودفعت أحد الأبواب محاولة الدخول، لكن الباب كان موصداً. ظلت تتلفت حولها بينما كانت تطرق الباب طرقات متلاحقة. وفي النهاية فتح الباب وظلت مختفية بالداخل. وفجأة سمعت:

- «هوب، قفشتها!».

كان هذا أبو الفضل. أدرت رأسي. كان يبحث عن شيء في يده.

- «يا ملعونة؛ كويس إني قفشتك. طير سمين».

كان الجو مظلماً حالك الظلمة، ولم يكن بمصباح الحارة رمق. ولا أدري كيف كانت عيناه تريان الذباب في هذه العتمة وفي هذا البرد الزمهرير أيضاً. ربما كان يتوهم! كان جارنا على بعد بيتين، وكان عقله خف من زمن؛ كان يجلس بباب بيته من الصباح إلى المساء يتصيد الذباب. ويقال إنه كان يأكله، لكني لم أره يفعل. يبدو أنه كان يتوهم اصطياده ويتحدث إليه قائلاً: «هاعمل عليك شربة تمام» أو «امبارح قفشت دبانة اد العصفورة» أو «ماعندكش فكرة وراكها كانت لذيذة اد إيه!».

في بادئ الأمر كان وسيلة طيبة للضحك وكانت مشاكسته من ألعابنا وقت العصر. أما الآن فلم تعد السخرية منه ممكنة. كانت امرأته تغسل لنا الملابس، مرة كل عشرة أيام، وكانت تقول إنها تضربه باستمرار وتطرده. لكنها رأت أن هذا لا يرضى الله، فتعود وتهيئ له طعامه. قلت

أذهب وأتحدث إليه قليلاً. فذهبت وقلت له:

- «كان طعمها ازاى يابو الفضل؟».

قال: «زى طعم القمح. ما عندكش فكرة! كانت أد العصفورة».

قلت: «يمكن بيتهيأ لك! بتلاقى الدبان فين ف البرد ده؟».

قال: «وأنت إيه عرفك؟ أنا باقرأ تعازيم وهو بييجى لوحده. اصبر!».

ودس يده بجيب سترته الرثة وأخذ يبحث عن علبة الكبريت التى كان يخفى بها ذبابة، فلم أتحمل المشهد. لم أجد ما أقوله له، فنهضت عائداً إلى البيت. سمعت صوت الباب ووقعت عيناى على الضابط وابنته يخرجان. لابد أن الأمر كان سيبدو غير لائق لو أنهم رأونى بصحبة أبو الفضل المخبول. فاختبأت على الفور وراء ظهر أبو الفضل. وجال بخاطرى: «بتعمل كده ليه؟ وهم دول يعرفوا أبو الفضل منين؟!» ولكن كان فات الأوان وإذا خرجت فرأونى لازداد الأمر سوءاً. وعندما مرا أمام أبو الفضل كانت الفتاة تقول:

- يعنى إيه جواز متعة؟».

قال الضابط: «كلها مسألة ساعتين يا حبيبتى. يادوب تروحى معاه ضيفة».

- «آه، قفشتك! تعال شوف سمينة أد إيه!».

لم يدعنى أبو الفضل أسمع بقية كلام الضابط. عم كانا يتحدثان؟

هل تقرر أن يتزوج أبى من الفتاة زواج متعة مؤقت؟ ولم؟ آه ... آه ... فهمت.

نظرت فى علبة الكبريت وكانت خاوية، ولكنى لم أطق خداعه أكثر من ذلك، فعدت إلى البيت.

كان الباب مفتوحاً، وفى عتمة الردهة سمعت عمى يقول:

– «أما دى عجيبة. عجيبة! بنت العقيد؟!».

قطع وقع قدمىّ كلامه. وعندما اقتربت رأيت مأمور القسم أيضاً. ألقيت عليهم السلام دون وعى ومضيت مندفعاً إلى غرفتنا. كانت أختى الكبرى ذهبت، وكانت أمى تكافح بالمطبخ، وكان دخان الحمّام يتصاعد. كنت فى غاية الإرهاق، ولم تكن لدىّ القدرة حتى لانتظار العشاء. خلعت ثيابى واستلقيت بجوار الصفة. كانت رائحة الدخان تخترق أعماق أنفى، وكنت أفكر فى أبو الفضل وعلبة كبريته الخاوية والاكتشاف الذى توصلت إليه. وسمعت عمى يقول:

– «إيه يا مرات أخويا. العيار عدا من جنب دماغك، ها! كنا هنجيب لك بلوة على آخر أيامك...».

كان عمى ينادى أمى بـ «مرات أخويا» مثل : «مرات عمى». وسمعت صوت أمى وهى تقول:

– «أنت تقصد البت دى يا عمى؟ الله لا يقدر! إلهى تتقلب على بوزها!».

وقال عمى: «مش هاتحطى الدكك جنب الحوض؟ الدنيا بردت».

وفى صباح الغد، حين ذهبت إلى الحوض لأتوضأ، وجدت باب غرفة أبى مغلقًا، وكانت الأسماك لاتزال راقدة بقاع الحوض. أما العملات الملونة فكانت منثورة فى الأركان، متجمعة ومتفرقة. وعلى أحجار الحوض بقعة دم. أدركت أن أبى لابد سافر. كلما كان يسافر إلى قم وقزوين كان يوصد باب غرفته بالقفل. وفى كل ليلة يتغيب فيها عن البيت، كانت القطط تنتقم من أسماكه. وحين عدت إلى الغرفة سألت أمى:

- «الحاج راح فين؟».

- «مش عارفة يابنى. ده مشى الفجرية. عمك كان بيقول : إنه كان عايز يروح قم».

وعندما كنا نشرب الشاى قالت إن حمام عن أصغر سرقه لص ليلة أمس وإنه كان يولول. صعدت إليه على سطح البيت. كان أبى غائبًا ولم يكن ثم مانع فى لقائى بعم أصغر. كنت فى ضيق شديد. كان الجو غيمًا والبرد قارسًا. كانت الأعشاش كلها خاوية ولا صوت يصدر سطح الجيران. وكانت فضلات الحمام تميل إلى البياض.

هـوامش

(١) الروضة: أشعار تتلى رثاء لآل البيت فى تعازى الشيعة بشهر محرم.

موت بروين

جهانجير جليلى

قبيل طلوع الصبح. أجلس وحدى بجوار وسادة بروين أحدق فى وجهها الذى انطفأ نوره واتخذ حالة خاصة فى ضوء المصباح القرمزى، وأناجيها: «بروين؟ أنتِ ملاذى وسندى الوحيد فى الدنيا، لم مرضتِ وهزلتِ ولزمتِ الفراش عاجزة هكذا؟ بروين، لم لا تتكلمين يا حبيبتى؟ ألم تكن أنتِ التى كان حديثها العذب حكاية كل مجلس ويجتذب القلوب؟! بروين حبيبتى، انهضى، تكلمى، امشِ. كسرتِ قلبى!».

لم تعد بروين قادرة حتى على البكاء. كل ما تستطيعه أن تتضرع إلىّ بتحريك حدقة عينيها، وأن تضرع للسماء لتغيثها من هذا المرض. سكت لسانها وضافت أنفاسها وانطفأ النور فى عينيها. يارب، ماذا أفعل؟ بمن أستنجد سوى المعلمة؟ ولكنها لا تصحو من النوم وإن أغرق الأرض طوفان. لا تستيقظ من نومها إلا بمشقة. فلاَتِ بها إلى فراش بروين، فأمى مجربة وتعرف الدنيا إلى حد ما. تجلس إلى فراش بروين وتردد الأدعية على لسان بروين.

كـلام أمي وترديدها للأدعـيـة خنجـر يشق صـدرى بدلاً من أن يمنحني السلوان، فهي تقول إن بروين توشك أن تسلم الروح.

نور الصـبـاح طمس نور المصـبـاح ونسـيم عليل أخذ يهب ويداعب شعر بروين الذى ينم عن جمالها وشبابها وينثره حول وجهها ووجنتيها.

أبقت القدر على جمالها في عينيّ وكأنه يريد أن يثبت أن الدنيـا لا تخلو أبدًا من الجمال والحسن.

طائران صـغيران اتخـذا لهما عـشًا في الجدار المطل على فراش بروين، خرجا من عشهما وأخذ كل منهما ينبئ الآخر بزقزقته عن مكانه ويطيران من غصن لغصن.

بروين تفـتح عينيـهـا وتحدق بى في حيـرة، وتمسك بيدى بصـعوبة وتحاول أن تدنيها من شفتيها. سبقتها وأمسكت بيدها وضممتها إلى صدرى. استـجـمـعت قـواى وقلت لهـا: «تحـملى يا حـبيـبتى؛ اصـبـرى، ستشفين بإذن الله وسنستعيد حياتنا من جديد. بروين حبيبتي؛ ماذا تريدين أن تقولي؟ تكلمى واشكِ لى آلامك!».

عينا بروين تملأهما الدموع، ترفع رأسـها عن الوسادة وتضـعـها على ساقى. أنا أعرف لمَ تجمعت دمعتان في عيني بروين. أنا أعـرف ما يُبكى بروين. بروين لها حق فى أن تبكى؛ فالمسكينة لم تأخذ نصيبها من الدنيا بعد. عليها أن تلبى نداء ملك الموت بقلب ملءه الحسرة وتسرع إلى الدار الآخرة. لم تبلغ العشرين من عـمـرها بعد وعليـها أن تفـارق

الدنيا وما فيها عاجزة. من المسئول عن موت بروين؟ أية أمراض أعجزتها؟ السل والزهرى!!

أمسك السل بصدرها نتيجة للحزن والغم والألم، ولازم الزهرى القاتل جسدها نتيجة لبيع نفسها من أجل كسب قوتها. على المسكينة أن تموت، والمسئول عن موتها سوء أوضاع المجتمع ولا شيء غيره.

بروين تقول بلسان حالها: «خذنى، خذنى ... يا على ... أمى ... أمى».

بعد ارتجاف بدنها أطبقت عينا بروين. أحس أن يدها التى أمسك بها فى يدى تبرد شيئًا فشيئًا وتتوقف عن الحركة. جززت على أسنانى؛ الحزن يخنقنى ودموعى تنهمر كالسيل؛ أضع شفتى على عارض بروين البارد الشاحب وأناديها كى تتكلم.

أشرقت الشمس وأرسلت أشعتها الصفراء على أغصان الأشجار العالية، وانعكس نورها على وجه بروين فأضاء.

أنادى بروين وأهزها ولكن لا مجيب. أضمها إلى صدرى وأفتح عينيها دون جدوى. ماتت بروين!

أنتحب كمن ماتت أمها وأصرخ وأئن من أعماق قلبى. والمعلمة تصب ماء القبر فى حلق بروين وتبدأ فى ترديد الأدعية.

رأس بروين على ركبتى وجدائلها تدلت، فارقت الروح جسدها وانطلقت إلى عالم آخر. بروين التى كان قلبها يتألم. بروين التى كانت

تحدثنى ليلة أمس عن مغريات الدنيا. بروين التى كان جمالها موضع حسد أترابها. بروين زهرة الطبيعة ودليل قدرة الخالق. بروين التى كانت حتى سنة أو سنتين مضتا تصحو من نومها على مداعبة أمها لها وتنام على حنو أبيها وآمال الحياة. بروين التى كان حديثها حديث مجلس كل قريب وغريب. بروين التى أسرت آلاف القلوب بحنانها وسلوكها وسخرت أفئدة برقة أحاسيسها. بروين التى كانت صديقتى المخلصة الوحيدة، بروين هذه استغرقت الآن فى رقدة الموت ولم يعد ثم أمل أن تنهض. على صوت نحيبى تدافع الجيران رجالاً ونساءً إلى داخل البيت كالنمل والجراد ووقفوا يشاهدون من بعيد حالى أنا والمعلمة وهى تحاول أن تبعدنى عن فراش بروين.

لا أحد يبكى بروين. لا أحد يعتبر بروين تستحق أن تسفك عليها دمعة حزن. لا أحد يدنو من فراش بروين، لأن بروين كانت امرأة ساقطة. والساقطات لا أحد يعيرهن اهتمامًا فى حياتهن ولا أحد يذكرهن بعد الممات. لا أحد يرضى بأن يتلو القرآن على رأس بروين. لا حزن على بروين.

لم يعد بعينيّ دموع. انتزعت شفتيّ من فوق يد بروين الباردة وتملكنى الوهن والحزن والعجز والحسرة فلم أقوَ على فعل شىء.

حط الطير على الأغصان وترنم بالتسبيح باسم الحق. طلعت الشمس ونشرت نورها فى كل صوب فأضاءت الدنيا. الأصوات فى هذا

الوقت من الصباح هادئة، والحياة تجرى مجراها العادى وبروين راحت فى نوم أبدى.

وقع ضربات معول حفار قبور القرية على أرض المدافن يصل إلى الآذان رتيباً. بروين ليست لها جنازة عادية. لم يحضر دفن بروين سواى أنا والمعلمة والتربى.

يخيم الصمت والهدوء لدرجة تجعل المرء يحس فى داخله حزناً وأسى. وصوت الملقن وهو يردد الأدعية ويقول : «النار حق والجنة حق» . يضفى على حزن الطبيعة دهشة وعجباً. وكلما وهن صوت الملقن يصل إلى الأسماع صوت خرير ماء جدول صغير. رقدت فى نوم هادئ ومريح؛ نوم يلازمه النسيان وراحة الجسد.

«رقدة الموت راحة للمساكين». أما السعداء ومن أوتوا الحظ فى الحياة فيهابون الموت ويتعلقون بأهداب الحياة ويودون لو عاشوا مخلدين. فلم بكل ركن من أركانها صلة. والموت بالنسبة لهم أمر صعب عسير ولا يتصورون حدوثه. فهم يكرهون الموت ويريدون أن يعيشوا أبداً رغد العيش مع من يحبون. وكل شىء مهيأ لهم، الثروة والغنى، لا يعرفون الجوع، والمصائب التى تحل بالمساكين تفر منهم فراراً ...

يالإقبال الحياة بحلوها على هؤلاء المختارين. افرحوا أيها السعداء، إذ خلقتم للتمتع بالحياة، ونلتم من الحياة كل طيب وجميل، ولكن فى فرحكم وسعدكم وخوفكم من الموت خذوا فى اعتباركم حال هؤلاء

التعساء ممن يحيون فى ألم وحزن، فى فقر وبؤس، فى مرض وعجز، حتى تحلو لكم الحياة أكثر وأكثر.

أنتم ترهبون الموت وتريدون العمر الطويل. تتعلق قلوبكم بكل شيء فى الدنيا، أما راحة البؤساء فالموت ولا شيء سواه.

نساعد التربى ونودع بروين الثرى. ووضعنا عدة طوبات فوق قبر بروين بدلاً من الحجر الكبير، وهذه الطوبات الأثر الوحيد الذى بقى من بروين.

وكما ألقى فيكتور هوجو خطبة على قبر فولتير، وكما كان الشعراء ينظمون المراثى فى موت أبناء عصرهم، ناجيت تراب قبر بروين.

أيها القارئ العزيز: لا أريد أن أوجع قلبك الرقيق بما يعتلج فى قلبى من أحاسيس. لا أريد أن أسرد عليك هنا تفاصيل تعاسة بروين وشقائها. لا أريد أن أثير حنقك على من تسببوا فى موت بروين. كل ما أريد أن يكون لموت بروين نتيجة أخلاقية سامية وتطهير للنفس. أناجى التراب قائلاً: بروين يا أختى العزيزة، يا من رقدتِ اليوم تحت التراب والطين رقدة أبدية، يا من واراكِ الثرى فى عنفوان شبابك وميعة صباك وآمال قلبك، أنت ضحية سوء الأوضاع وسوء أعراف المجتمع وافتقاد التربية السليمة. أنت شهيدة الأعراف المغلوطة والتربية الخطأ. بروين عزيزتى: نامى فى راحة هنا والآن على الأقل إلى أن يُفصل فى أمرك بالحق فى يوم الحساب ويجازى الله القدير المسيئين بسيئات أعمالهم.

أريد أن أنهض من فوق القبر وأعود ولكن أنى لى أن أنزع قلبى من هذا الثرى! ألم تنم بروين فى قلب القبر! ألم تسكن الآن تحت أكوام الثرى!

نادراً ما كانت بروين تبارحنى فى حياتها. ربطت الصداقة بيننا منذ الصغر فى فناء المدرسة. كانت كل منا تشجع الأخرى على التحصيل. وبعد الدراسة كنا أفضل صديقتين. وعندما بدأت حياتنا فى العسر زادت الألفة بيننا وزادت محبة كل منا للأخرى. مالى كان مال بروين، وروحى كانت روح بروين، وحياتى حياة بروين. وفى الليالى التى كنا نفارق أحضان الشياطين ممن يدعون الإنسانية والتحضر كانت كل منا تضع رأسها على صدر الأخرى وتبكى تعاستها وشقاءها.

أناجى بروين وأقول باكية: إلى من أفضى الآن بآلام قلبى وإلى من أبوح ببؤسى! بروين حبيبتى؛ من بعدك يواسينى ويمسح دموعى؟ أرتمى باكية فوق القبر أريد أن أنتزع جسد بروين من التراب وأقبّل وجنتيها مرة أخرى.

أيتها الشابة اليائسة يا من انكمشتِ من شدة اليأس والبؤس فى ركن وبكيتِ عجزك! أيتها المريضة الميئوس منها يا من كان عليكِ أن تودعى الدنيا يائسة بعد أن أدركِ علتك وأن تسكبى الدموع على وجنتيكِ حسرة على بؤسك!

ويا أيتها الأم الثكلى؛ يا من أويتِ إلى فراشك ليالى بعينين ملؤهما الدموع وصحوتِ بآهة من قلب يحترق! أيتها الفتاة الحسناء! يا من قلبك

مسكن الحب ومنزله. يا من تستقر على وجهك الوردى دمعة كقطرة ندى كل صباح حين لذكرى حبيب طاهر صادق! أيها التعساء والمظلومين، أيها البؤساء العاجزين! يا كسيرى القلوب المتعبين، لكم يا من تجرعتم الحسرات وأضنتكم الآلام وسكبتم الدمع الثخين أقول: أنا أيضًا بكيتُ، أنا أيضًا سكبت الدمع سيلاً على تراب بروين. وأنتم خير من يقدر حزنى، فالحزين أدرى بالحزين.

***

بهذه القسوة ماتت المسكينة بروين. لم يعد هناك من يواسينى. ماذا أفعل وبمن ألوذ؟ وبمن أستغيث؟ وبمن أستعين على الدنيا؟ يمر بخاطرى أن نهايتى ستكون كنهاية بروين فأرتجف فرقًا ويتجسد الموت أمام عينىّ.

أنا غير راضية عن حياة العار التى أحياها لدرجة أنى مستعدة لاستقبال الموت وأن أموت بأسرع وقت. وإذا كنت أنا توليت بروين وأودعتها الثرى فمن سيرحم شقائى ومن سيوارى جثمانى تحت التراب؟ ظللت أفكر فى طريق العودة إلى بيت أبى.

أنا أعلم ألا أحد سيهتم بى فى بيتنا بعد كل هذه المدة. أعلم أن أمى لن تنظر فى وجهى حين تلقانى وتعرف عارى وسوء سلوكى. وأعلم أن أبى حين يعرف حالى ويعلم أنى لجأت إلى بيته سيسبنى ويلعننى.

أعلم أن فتيات عائلتنا سينظرون إلىّ بعين الكره والاحتقار وسيعتبروننى ساقطة وسيئة السمعة. وأعلم أن مرضعتى ستعتبر لبنها

حرامًا عليّ، وخادمنا العجوز سيعتبرني أنجس من لحم الكلاب. أعلم أنهم إن قبلوني فسأعيش كخادمة مريضة بركن من المطبخ أو حجرة الخزين. ولكني مع كل هذا أقنعت نفسي بأن أعود إلى بيت أبي وأرتمي على قدمي أمي وألقى عذاب أبي وأتحرر من هذا البؤس وهذا العار.

أقول لنفسي أنهم إن لم يرضوا في بيتنا أن يعتنوا بي ولو سرًا فأنا مستعدة لأن أعيش في المطبخ على فتات مائدتهم وأن أنام في ركن جوال الفحم على حد قول بروين. أي شيء فداء أن أرى عاقبة الشؤم هذه. لا شك أن الدنيا لن توقف نظامها الحقيقي وستجازي أهل السوء ومن تسببوا في سقوطي أنا وبروين وأمثالنا، وأشنع ألوان العقاب في الدنيا تلك الكراهية التي يبديها الناس تجاه اللصوص والغاوين والمساكين.

شيئًا فشيئًا قويت فكرة العودة إلى البيت في نفسي واستحالت عزمًا راسخًا. طلبت المعلمة أن أترك لها كل ثياب بروين وثيابي وودعتها مدعية أني سأسافر في رحلة طويلة وقضيت ساعة أيضًا على قبر بروين وبحت لها بمكنون قلبي، ثم اتخذت طريقي صوب المدينة.

ركبت العربة بفكر مشتت وعزم راسخ ووصلت إلى المدينة ومضيت نحو بيتنا بشمال غرب المدينة. أقترب من باب البيت، أوصالي ترتعد وقلبي يخفق وأسمع في أذني طنينًا وأوشك أن أقع على الأرض. وأعود لأقول لنفسي لو استطعت أن أعود إلى بيتنا القديم وأن أعيش كقطة في المطبخ فإلى من تلجأ غيري من التعيسات ممن لا ملاذ لهن؟

قرائى الأعزاء! عليكم أن تغفروا لهؤلاء وأن تبدوا شهامة وتهيئوا الفرصة لعودة هؤلاء البائسات. وعلى الشباب أن يصونوا أنفسهم ويصرفوا قواهم فى الخيرات وإعمار الأرض وتكوين الأسر. وعلى الفتيات أن يعتبرن جوهرة عفتهن أعز وأغلى من كل شىء وألا تقتلع كيانهن أية ريح عاصفة، بل أن يثبُتن كالجبال من أجل صون عصمتهن.

وعلى الأدباء والمترجمين ومربى المجتمع أن يبذلوا الجهد فى طريق تعليم الناس وهدايتهم بالكتابات والنصائح المفيدة .

***

لا أدرى أمن الشوق واللهفة أو من الحزن والحسرة تنساب دموعى على وجهى قطرات كالمطر. لا أدرى إن كنت فرحة بعودتى أم أن قلبى لايزال يحترق لموت بروين ولفقدان عفتى التى هى أعز ما أملك! أرفع مطرقة الباب بيد ترتجف وأطرق بهدوء باب بيتنا القديم وتعتمل فى نفسى دنيا من الأمل والشقاء.

التدريس فى ربيع بهيج(*)

بهرام صادقى

دعنا نتخيل – إن شئت – أن كلينا جالسان فى فصل مدرسى. لو بدا الأمر لك سخيفًا أو خفت أو كنت تريد للموقف أن يتسم بمزيد من الرسمية وبالقرب إلى الواقعية، فإننا نستطيع أن نفترض أننا جميعًا جلوس فى فصل مدرسى، كلنا؛ حسن! بهذا سيكون لدينا فصل له قيمته قبل أن يعرف الطلاب بعضهم بعضًا أو يتعارفون. كما أننا سنقيم فصلنا بغرفة نظيفة رحبة، بها ما يكفى من الهواء والنور، ومقاعد بسيطة مريحة. وربما نعلق على الجدار صورة كبيرة ومعها ممحاة وقدر كافٍ من الطباشير الملون. ولحسن الطالع أن فكرة إنشاء هذا الفصل خطرت لنا فى فصل مناخى محبب: فى هذا الربيع البهيج. من ثم لن نحتاج إلى مروحة أو مدفأة. خريطة ويضع صور لمواقع تاريخية ولعدد من العظماء تكمل الصورة. ودعنا نفترض أن أصدقاءنا ومعارفنا

(*) نشرت هذه القصة على صفحات مجلة كيهان هفته اى (٢٨ اسفند ١٣٤١هـ.ش (١٩٦٣م).

وعائلاتنا سيعتبروننا من المجدودين ويهنئوننا على أننا جزء من فصل كهذا ويتنبئون لنا أو يتمنون مستقبلاً باهراً ...

حقًا إننا لممنونون لهم، ولكننا حتى الآن لانزال حيث كنا حين بدأنا؛ لانزال فى الخيال هائمين. ومع ذلك فإن الموقف يتحول شيئًا فشيئًا إلى الجدية بالنسبة لنا. ليس من الواضح من نكون ومن أين أتينا. كل منا فى الفصل القيم الذى أحسن إعداده يرى الآخر ونجلس على مقاعد بسيطة مريحة. وكراساتنا وأقلامنا أمامنا، ونرعى قواعد السلوك والظروف تشجع على التعلم. نتبادل النظرات المتمعنة ونتمنى التعارف ونمهد السبل لصداقات مستقبلية. لكن المشكلة الأساسية أنه ما من دليل على وجود مدرس بعد ...

مر ربع ساعة منذ دق الجرس. فهرعنا إلى الفصل جميعًا، ولكن ما من دليل على وجود مدرس أو ناظر بعد. كما أنه ليس ثم كتاب مدرسى، ولم يتم تعيين ألفة للفصل ...

نعم؛ تبدو السبورة نظيفة لم تستعمل من قبل، ولكن ربما كان بعض الناس خارج المدرسة مستغرقين فى تهاويم مترفة خيالية يصعب تحقيقها؛ فيظنون مثلاً أن هذا الفصل رمز لأحجية أو لفكرة فلسفية ملغزة وأن طلابه نماذج إنسانية متنوعة وعقائد وأنماط حياة شتى. يا للهزل! أنتم أنفسكم شاهدون على أننا استحضرنا صورة هذا الفصل وتخيلنا مقاعده وخرائطه على هذا النحو وذاك، وزعمنا أيضًا ألا أحد منا كان يعرف الآخر. كما تخيلنا أن المدرس لم يصل بعد. والوقت يمر.

الأمر كله لعبة، تسلية بسيطة صممت لتزجية أوقات فراغنا. وكما تعلمون فالأشياء حين نقوم على افتراض يمكن لأى شىء أن يقال وينفذ دون ما هدف محدد فى الخاطر. بل لكم أنتم بالطبع أن تزعموا أن فكرة هذا الفصل ليست سوى حلم من أحلام المجانين ممن يجدون فى السخرية من الناس متعة. وحتى إن كان هذا ظنكم، فلكم بل عليكم أن تنأوا بأنفسكم عن مدرستنا وتكفوا عن التلصص خلل النافذة وعن إزعاجنا. والآن امضوا إلى حال سبيلكم.

فى الصف الأمامى ترون حسناء زرقاء العينين شقراء الشعر، يبدو أنها تعلم أن حسنها الأخاذ يكمن فى عينيها؛ إذ أنها تستدير من آن لآخر إلى الوراء وترمق الآخرين بنظراتها. جمال أنفها الدقيق ورقة شفتيها - على عكس الواقع القبيح من حولنا - خلب ألباب الطلاب جميعًا، حتى الإناث القليلات بالفصل. يتصور الطلاب لبرهة أن هذا ليس فصلاً دراسيًا وأنهم ليسوا بداخله؛ بل هو ليل قمره منير، وهبطت الملائكة على الكلأ الأخضر الناعم والحسناء الغامضة ترقص بثوبها الأبيض الفضفاض، وإن لم تكن ترقص فيبدو أنها على وشك أن تفعل ...

هل ندعها تواصل الرقص؟ للشيوخ والشباب والفتيات ممن أتوا إلى هذا الفصل مختارين أن يمنحوا الإذن بذلك أو يمنعوا، ولكن من مصلحتهم أن ينهضوا الآن إذ ثم وقع خطوات يُسمع؛ ينفتح الباب، يبدو أن أحدًا يريد أن يدخل الغرفة.

- «شكرًا، تفضلوا بالجلوس».

صمت ... صمت ... يخطو المدرس جيئة وذهابًا. رأسه على صدره. ليس من الطلاب من يراه بوضوح. حتى الجالسين بالصفوف الأمامية. يا للمأساة! إنهم لا يميزون معالم جسمه أو ملامح وجهه. من فضلكم، كونوا رحماء ولا تفترضوا أنى أكذب حين أقول : إنهم لا يرون إلا خطًا باهتًا بلا ملامح يتحرك أمام أعينهم، ويسمعون صوتًا ... نعم؛ لا يسمعون إلا صوته. هذه المرة لكم أن تتخيلوا صوته جهوَريًا شديد الوضوح.

فجأة، يتوقف المدرس عن الخطو (يظن الطلاب ذلك، إذ لم يعودوا يسمعوا وقع قدميه). «قبل أن أسجل الغياب، أود أن أعرف ما تودون دراسته اليوم، وما تريدوننى أن أناقش وما إلى ذلك. من فضلكم ارفعوا أيديكم واطلبوا الإذن قبل الكلام».

«أنا» انطلق صوت أجش من آخر الفصل.

ينظر المدرس فى اتجاه الصوت، ولكن وللغرابة كان هو أيضًا لا يكاد يستبين أيًا منهم بوضوح؛ كتل داكنة غامضة ذات أحجام وأشكال متشابهة صفت متجاورة أمام عينيه لا يمكنه أن يميز بينها.

يقول المدرس: «تفضل».

- «هلا فسرت لنا سر غيابك!».

بين المدرس وطلابه الستين أو السبعين لا تتردد سوى الكلمات فى الفصل الكبير. يرى الطلاب بعضهم بعضًا، والمدرس يرى نفسه. أما المدرس والطالب فلا يرى أحدهما الآخر. لا يعرف أحدهما مَن الآخر وما هيئته. عيل صبر الطلاب. يتبادلون النظرات بعيون متسائلة: «لم لا نرى المدرس بوضوح؟ هل العيب فى عيوننا؟ هل هذا خطأ الناظر؟!» والمدرس يتساءل ما إذا كان ضغط الدم العالى أم خلل عقلى أم ثمة علة أخرى حالت بينه وبين رؤية طلابه وأدت به إلى افتراض أنهم ظلال غامضة بلا ملامح.

«لم تأخرت؟ آه، نعم. آسف جدًا. كانت دعوة الناظر غامضة تمامًا. قضيت بعض الوقت أفكر فى الأمر. كان خلق هذا الفصل بهذه العجلة وبطلاب غرباء ودون ما هدف محدد أمرًا شديد الغرابة يثير الدهشة».

يرد الصوت الأجش من آخر الفصل. يدير الطلاب رءوسهم إلى ذلك الزميل الذى غدا المتحدث باسمهم. ربما لأنهم كانوا يرونه بوضوح. إلا أن حسناء الصف الأمامى تفضل ألا تعود للنظر إلى الوراء؛ إذ تقلصت عضلات رقبتها، فنظرت إلى السبورة.

«ولكن سيدى، رجاء أن تأخذ فى اعتبارك أننا اتفقنا على تكوين هذا الفصل بهدف زيادة معارفنا وربما عقد صداقات جديدة. بل اتفقنا على أن نطلب من الناظر أن يتخير لنا مدرسًا قديرًا. من ثم فإننا لا نرى ضرورة لكل هذا التفكير والعسف».

«آه، نعم. فهمت تمامًا. لكنى كنت بحاجة إلى مزيد من الوقت قبل أن أبذل الجهد فى تصور أن المرء يمكن أن يتقبل دعوة كهذه من الناظر ويقوم بالتدريس لفصل كفصلكم هذا. ربما كان هذا سر غيابى».

يفتح المدرس كتابه المخطوط وينادى: «يا سيد ... يا آنسة ...». ما الفرق عنده إن نادى الأسماء أم لم يناد؟ إنه لا يرى أيًا من الطلاب بما يكفى لأن يميز بينهم. فيطوى كتابه.

فجأة تنهض الحسناء (هل غدا كل شىء فى عينيها قبيحًا بلا قيمة؟) تنظر فى ساعتها؛ تستأذن الطالبين الجالسين بجوارها وتمشى نحو الباب وهى تفكر: «إنى على ثقة من أنه سيحاضر لمدة ساعة. كنت سأمكث لو لم يكن تأخر، ولكنى الآن لا أستطيع أن أتركه ينتظر أكثر من ذلك».

من هو؟ ... يبدو أن شئونًا عاطفية دخلت فى الموضوع. تمر الفتاة بحذى المقاعد وهى تفكر: «صحيح أن المدرس يرانى أغادر الفصل دون إذن، ولكن لا أظن أنى على خطأ. تنص اللوائح على أن الطلاب مخيرون فى أن يحضروا الدروس إن شاءوا أو لا يحضرون. عيناها الزرقاوان تودعان الفصل.

يبدأ المدرس: «حسن؛ سيداتى وسادتى؛ لم تنبئونى بعد بما تودون أن نناقش اليوم».

ثم لغط؛ العديد من الطلاب ينظرون فى ساعاتهم ويتبعون الحسناء ذات العينين الزرقاوين. هل أسرهم سحر عينيها؟ أم بدا الفصل

والمدرس جميعًا فى نظرهم بلا قيمة أيضًا؟ يمضون ولا أكاد أتصور أو أحدس وجهتهم . كان من الأفضل لكم أن تتبعوهم بأنفسكم بدلاً من التلصص خلال نوافذ الفصل. من يدرى؟ ربما حظيتم بموعد مع الحسناء ذات العينين الزرقاوين، أو بصداقات مع الطلاب المتهربين وتكتشفون سبب تهربهم.

يبدأ المدرس: «حسن؛ أرى أنكم عاجزون عن التوصل إلى قرار. لابد أن أبدأ ولو أن هذا أول لقاء بيننا. وأنا أجهل المستوى الحقيقى لمعارفكم ودرجة تشابه أفكاركم. ربما تتفقون معى أن أساس النجاح فى كل شىء ...».

ينهض الطلاب واحداً فى أثر الآخر ويغادرون الغرفة. لا يرى المدرس سوى ظلال تتبادل الأماكن تاركة الفضاء الفوضوى المضبب أمامه خاوياً. لكن الطلاب يتبادلون نظرات الاعتذار كما لو كانوا يلتمسون الأعذار لأنفسهم على هذا السلوك السخيف ويعدون بأن يكونوا أكثر اجتهاداً وتصميمًا فى المرة القادمة. بل يقترح البعض الذهاب إلى الناظر والمطالبة بمدرس غيره. ويرى آخرون ضرورة زيارة طبيب عيون أو أخصائى فى الاضطرابات العصبية والعقلية. كل يعبر عن وجهة نظره بحماس وكل يرى نفسه مجدوداً إذ نال فرصة التعارف على الآخرين ويؤكد الأكثر واقعية منهم لأصدقائه أن زيارة الطبيب ما هى إلا ضرب من الحمق والعبث، إذ ليس ثم فصل مدرسى أو مدرس يُرى؛ فالعيون سليمة وكذلك العقول والأعصاب.

ألم نتخيل كل هذه الأشياء؟! ولكن الشغوفين بالحصول على نتائج يصرون على الذهاب إلى الناظر والمطالبة ببرنامج دراسى أكثر انتظامًا وبمدرس مواظب، ثم يمضون زمرًا بالنسبة لمن عقدت أواصر الصداقة بينهم، وفرادى لمن عداهم. ثم يفكرون فى الطريق الذى سلكته الشقراء ذات العينين الزرقاوين. وتعود العجائز الفانيات القليلات بالفصل إلى ديارهن للطهى والتنظيف وشىء من الراحة إن أمكن.

فى الفصل، يقطع المدرس المكان جيئة وذهابًا وهو يتحدث بكل وضوح وثبات: «... حتى بعد أن أوصلنا التيار ظل النور مطفأ؛ ببساطة لأنه ربما لم يكن هناك تيار كهربى. لذا فأنتم دائمًا مدركون لاحتمال العتمة. ولكن إذا أضاء النور فعلى المرء أن يحسب مقدار الكهرباء المستهلكة. وهذا ممكن وبعملية بسيطة من خلال الوصفات التى تعرفون خيرًا منى. فأنتم تحفظونها عن ظهر قلب. وبعد حساب مقدار الكهرباء لابد من أن نحاسب عليها ... أترون؟ هذه المشكلة الأساسية: المال، إذا لم تدفع شهريًا يقطعون عنك التيار. وعلى أية حال فقطع التيار لا يقل سخفًا عن توصيله؛ إذ من الممكن أن يستمر النور بعد قطع التيار. نعم؛ هذا يحدث أحيانًا حين يكون ثم قصور فى موضع ما. حسن؛ فى هذه الحالة أما زلتم مضطرين إلى حساب الكهرباء المستهلكة؟ والآن يبرز سؤال: ماذا لو وضعنا كلتا اليدين على أسلاك عارية موصلة لتيار عالٍ؟ أرى من جانبى أن شيئًا هائلاً سيحدث. وهو الوضع الأمثل؛ ففى هذه الحالة لا يستطيعون تحصيل مليم منكم مهما استهلكتم من كهرباء ومهما حسبتم وبأى وصفات تحسبون. أترون؟ المال ليس دائمًا ضروريًا

... ولكن دعونا نتوقف عن تكليف أنفسنا بما لا نطيق. سأكف عن إملالكم. دعونا نفترض - إن شئتم - أن الناقوس يدق ....».

كان الناقوس مفاجئًا وصوته رهيبًا لدرجة روعت المدرس وأزالت الغشاوة عن عينيه. تغير كل شيء؛ زالت الحجب واتضحت الرؤية أمامه. لم يكن ثم أحد بالغرفة سوى شيخ هرم بآخر الفصل يغالب النعاس. مر الشيخ بنفس التجربة وطرأ عليه نفس التغيير؛ فكان يرقب المدرس وهو يدنو منه فى خوف وذهول. كان يستطيع أن يرى المدرس بوضوح: شاب، قوى، مجدوع الأنف والأذنين، شعره أشعث يلف رأسه ورقبته، أسنانه العليا ضخمة ومعقوفة وناتئة من فمه، عيناه صغيرتان براقتان باردتان ثاقبتان. اخترقت نظرته الحادة قلب الشيخ فانتفض.

سأله المدرس: «أذهب الجميع؟ كم أنا آسف. هل استفدت من الدرس؟». ثم أمعن النظر فى تلميذه الوحيد: شيخ ملتحٍ رث الهيئة عيناه دامعتان، أسنانه صناعية، يرتدى أسمالاً، وعلى سيماه وقار لا يعرف الحياء.

تمتم الشيخ: «لمَ ... لماذا أنت ...؟ لماذا أنت ... هكذا؟».

- «لا تستجوبنى. من الأفضل أن ترد على سؤالى».

فأجابه: «لا، لم تفدنى أية كلمة منه».

حدق المدرس فيه، فأضاف الشيخ: «ليتنى كنت مضيت معهم. بعد كل هذه السنين تخيلت أنى أخيراً سجلت اسمى بهذا الدرس. كم من أمانى راودتنى! لكنى الآن أرى أن الناظر كان يسخر منا».

فصفعه المدرس على وجهه وأخرج من جيبه دفتراً صغيراً وقال: «أعطني اسمك».

بكى الشيخ من الألم واحمر صدغه وأخذ أنفه ينزف وناشده: «اصفح عني، اغفر لي. أخطأت».

– «مستحيل! لابد أن آخذ اسمك. سأجعلك ولا شك ترسب نصف السنة. وإذا حدث أن تغيبت أو تبجحت مرة أخرى سترسب السنة الدراسية كلها».

نهض الشيخ وهو يجهش بالبكاء مرة أخرى وقال: «رجاء سيدى؛ إنى أعول زوجة وأطفالاً وأحفاداً. يعلم الله أنى لم أقصد التبجح. أعدك بأن أواظب على الحضور وتحضير الدروس. كان الدرس مفيداً للغاية».

– «بعد أن صفعتك؟! هل ذكرك الألم بأنه كان مفيداً؟!».

ولكن سيدى؛ ألا ترى أن الكل خرجوا؟ أنا الوحيد الذى احترم وجودك».

– «كم أنت لطيف! بقيت لتجلس فى ركن يغالبك النعاس. ما الفائدة لو أنك خرجت!».

– «ألم تر كيف ظلوا يحدقون فى الحسناء زرقاء العينين؟! كادوا يلتهمونها بأعينهم».

– «وهل خرجوا بسببها؟».

– «فى قليل أو كثير. لا تخبرهم بمصدر هذه المعلومة. ولكن صدقنى؛ غضضت بصرى طيلة الوقت».

– «أتحاول أن تؤثر علىّ بحسن سلوكك؟ لن يعوضك حسن سلوكِك وانتظامك عن دروسك العلمية. ولا أحد يعلم ما كنت تفعل لو كنت فى شبابك».

– «أنا راضٍ بما يحل بى».

– «وكذلك الكل، خاصة لتهربهم من فصل دراسى قررتموه على أنفسكم. لم؟ لم أتوا إلى هنا؟ ألم يقولوا إنهم كانوا يريدون زيادة معارفهم وأن يصبحوا رجالاً عظاماً؟!».

– «لكنك ... ماذا أقول لكى لا تضحك؟! لا، هذا سخف. لن تصدقنى ...».

– «ماذا؟ تكلم. هل كانوا يسخرون منى؟».

– «لم يكونوا يرونك».

– «إذن كنت تكذب. لم يتهربون خوفًا إذن؟».

– «أيًا كان الأمر، أنا شيخ لا أفهم. ما أنا إلا شيخ خرف».

– «أو لعلهم ظنوا ألا شىء آخر عندى أفعله. هل جاءوا لمعاكسة البنات؟ قلت لى إنها كانت فتاة حسناء؟».

– «من؟ الفتاة زرقاء العينين؟»

- «زرقاء العينين؟».

- «ماذا؟ ألم ترها؟ كانت بالصف الأمامى. هذا أمر غريب».

- «أيها الغبى! انتبه إلى من تتحدث. هل توقعت منى أن أحدق فيها أنا أيضًا؟!».

- «على أى، سلوكك محمود. كانت فاتنة بحق يا سيدى».

- «خسارة: خسارة أنها ... أيها الشيخ، لا تسء فهمى، أمدرك أنت ما أقصد؟ إنى نادم على أنى اضطررت إلى إنزال العقاب بطالب فى أول أيام الدراسة. هذا كل ما فى الأمر. لم أكن أقصد رؤيتها أو عدم رؤيتها».

- «إذن فأنت لن تصفح عنى!».

- «لا، سأجعلك عبرة لبقية الطلاب. سيحصلون كلهم على أدنى الدرجات، حتى الـ ... نعم، لم يكن لهم عذر للتهرب».

دوّن المدرس اسم الشيخ وأعطاه درجة راسب. فهوى الشيخ فى مقعده ووضع رأسه على كتابه وواصل البكاء. امتلأ قلبه فرقًا ورهبة.

دق الناقوس فبدأ الشيخ فى التضرع: «أما تستطيع أن تصفح عنى هذه المرة؟ إنى أعول زوجة وعيالاً وأحفادًا وأبناء أحفاد ... أؤكد لك ألا شىء سيحدث لو عفوت».

غادر المدرس الفصل.

صرخ الشيخ فى أعقابه: «إلى أين أنت ذاهب بهذا الوجه المتخفى؟ أيها الأحمق العابث. اذهب وافعل أسوأ ما عندك».

لا ندرى ما جرى للشقراء الحسناء وبقية الطلاب وأية درجات نالوا، ولكن لما كنا اتفقنا على التخيل فلم لا نتخيل المدرس يقابل الناظر فى الردهة ويتبادل معه النكات ويشتكى له طلابه الجدد ثم يمضى إلى درسه الآخر حسب الجدول؟!

١٩٦٣

سارقة البيض(*)

فريدون تنكابنى

كان ميدان شوش مزدحمًا يغص بالضوضاء. فى هذا الوقت من بعد الظهر المشمس، كان كل شىء عاريًا متميزًا عن سائر الأشياء. مع أن الزحام كان أقل مما كان فى الصباح والعصر، كانت عربات كثيرة لاتزال تتوافد إلى الميدان وتدور به ثم تمضى.

فى الشوارع المتفرعة من الميدان اصطفت الحافلات ذات الطابقين بطولها المديد ولونها القانى وهو ينعكس فى العيون تحت الشمس. كانت محركات حافلة أو اثنتين منها تدور هادرة بصوت متقطع، وتطلق الدخان. بداخل الممر اصطفت عربات اليد الخاصة بالباعة متجاورة فى صف منتظم، وفوقها كل شىء: شمندر مسلوق، لفت، فول مطبوخ يتقد تحته موقد بريموس ويتصاعد منه الدخان، سكر نبات من كل لون يغلب عليه الأصفر والأحمر، وبجانبه طبق من النقل الأبيض الجاف والفستق

(*) من مجموعة اسير خاك ، طهران، گلستان، ١٩٦٣م.

المقشور مصفوف في ركن ويباع بثمن أقل قليلاً، فستق شامي، لوز هندي، باميش مخلوط يباع الكيل منه بثلاثة ريالات وكان معظمه من الزبيب الأخضر الصغير.

بالركن الأدنى من الميدان، ثمة محطة بنزين أرضيتها زيتية سوداء، كان السائقون يتوافدون عليها، ويتسابقون فيختلسون الأدوار، يتشاجرون ثم يشترون البنزين ويمضون. وكان سائقو الدراجات لا يرفعون أيديهم عن أبواقهم وأجراسهم، كانوا يمرون بين العربات أو وسط الناس، وكانوا يسبون ويسبون.

على الجانب الآخر من الميدان، وعلى قطعة أرض خالية، تحلقت جماعة من الناس يشاهدون معركة. وكان الصوت يعلو من حين لآخر بالصلاة على النبي استحسانًا.

بأحد أركان الميدان الأقل ازدحامًا، وعلى ضفة ترعة فاضت على إحدى ضفتيها وتجري فيها مادة سوداء وتفوح منها رائحة عطنة، كان ثم رجل وامرأة يقفان.

كانت المرأة فارعة الطول نحيفة، والرجل قصيرًا بدينًا. كان وجه المرأة مسحوبًا شديد النحافة، ذقنها حادة ولوجهها ثلاث زوايا كأن ثقلاً ثقيلاً معلق بفكها، وعلى رأسها طرحة سوداء باهتة تناثرت خيوط أطرافها، ونقشت عليها أهلة صغيرة بيضاء كثيرة، كأنها فرشت على الأرض ونثرت عليها أظافر، أظافر بيضاء نظيفة كأظفار من خرجوا لتوهم من الحمّام. وكان للرجل وجه سمين ناعم نامت فوقه لحية قصيرة.

من يرى وجهه تداخله رغبة فى أن يمد يده إليه ليجس سمنته ونعومته بيده.

كانت بيد المرأة بقجة التصق الرجل بزاوية منها. ران عليهما صمت وسكون. كان وجه كل منهما لا ينم عن قدرة على التأثر. كانا كزوجين فى طريقهما إلى المأذون لإتمام الطلاق.

قبالتهما وقف رجل آخر وجهه مغضن ووجنتاه غائرتان. بأسفل لحيته السوداء بروز يغوص فى نظرة من ينظر إليه. هيئته تنم عن أنه عامل بمطعم. ربما لم يكن كذلك. على أية حال، كان بائعًا. سأل:

- «هتعمل فيها إيه دى يا عم الحاج؟».

قال عم الحاج: «هاعمل إيه؟ ودى عاوزة سؤال؟! هاوديها القسم، هارميها فى السجن، البلد مش فوضى، مش سوق للحرامية، بيقولوا فيه قانون، بيقولوا فيه دين وملة».

كانت المرأة صامتة لا تريم.

قال الرجل: «وأنت عرفت منين يا عم الحاج؟».

قال عم الحاج: «أنا كنت مكوم البيض ودى جت قالت كلمتين دوروا دماغى، وبعد ما مشيت لقيت البيض ناقص».

ضحك الرجل وقال: «ما شاء الله يا عم الحاج، عرفت من شكل البيض؟!».

بينما كان الرجلان يتحدثان، كانت المرأة تتابع الكناس وهو يدنو منهم.

كان الكناس قصيراً ونحيفًا كأقزام الأساطير أو كوتد الحظائر تربط إليه الخيل، أو كأنه طفل نبتت في وجهه بوادر لحية داكنة كثة. يرتدى سروالاً مفتوحًا فضفاضًا ويداه فى جيوبه، فتحول بشكل عام إلى شيء مربع رث فضفاض. وكان هذا الشيء المربع الرث الفضفاض يلهو في فراغ وارتياح، يجول هنا وهناك ويدنو من الرجلين.

جاء ووقف وبلا مقدمات سأل: «إيه اللى حصل؟».

إلا أن أحداً لم يرد عليه. فقال كمن أدرك من تلقاء نفسه: «يا با سيبها، ده ما يرضيش ربنا. ده بس الشيطان لعب بيها».

رمقه الحاج بنظرة نارية حادة وأمره بأن يلزم مكانه فلا يتدخل. ثم قال: «كلام إيه ده؟ والشيطان ده ما لعبش بى أنا ليه؟! على كل، بيقولوا فيه حساب وكتاب، بيقولوا فيه يوم قيامة ما ينفعشى فيه الكدب. إذا أنا سبتها، هتقول لربنا إيه؟».

ثم وقعت عيناه على الرجل الآخر بمعطفه الأبيض ونظارته البنية وحقيبته الضخمة. جذبت المرأة بقجتها، لكن الحاج لم يدعها تفعل، واتجه إليها وقال: «على فين ياختى. لازم نعرف راسنا من رجلينا». ثم تلفت حوله وزأر: «السبب ف خراب بيتى ده إن مفيش كبير».

قال الرجل ذو النظارة: «حصل إيه يا عم؟». فلم يرد عليه أحد. أدخل الحاج يده فى جيبه وأخرج ثلاث بيضات كبيرة وعرضها أمامه وقال: «أهم، أنا ما باهزرش».

قال الرجل: «طيب، ده مش كويس، لكن ... يمكن كانت محتاجة. جعانة، سامحها حضرتك!».

صاح عم الحاج: «يعنى إيه كانت جعانة؟! وأنا مالى بجوعها؟! هو أنا مسؤول انى أشبّع بطون خلق الله؟! والا فاتح جمعية خيرية؟! انا ما حيلتيش حاجة. أنا بياع غلبان. مفيش على كتفى لاسة».

بدون أن تتحرك المرأة لتجذب بقجتها، شدت طرحتها على رأسها ووجهها وجمعت شتاتها. اندفع البياع قائلاً: «يا عم الحاج؛ كل اللى بتقوله صح، لكن سامح يبقالك الثواب. دى ولية وناقصة عقل، ماتفضحهاش اكتر من كده!».

عاد الحاج ينظر إليها ثم قطب جبينه وقال: «إزاى ناقصة عقل؟! أمال إزاى عقلها وصلها أنها تعمل العملة دى؟! لما تيجى رجليهم كلهم يبقوا ناقصات عقل وضعفا وغلابة. دول كلهم واعيين وناصحين فى الحاجات دى. دول أوعى منى ومنك ميت مرة».

صاح الكناس من أسفل: «يا حاج؛ أنت بتتكلم صح. قفل بأه ع الغاغة دى».

لم يكن الحاج يريد أن يوليه أى اهتمام، إلا أنه لم يستطع أن يدع هذه العبارة الأخيرة تمر دون رد: «غاغة إيه ياخويا! اللى بداها ينهيها».

قال البياع مبتسماً كمن يعلم أن عم الحاج يصغى لكلامه:

- «لازم حضرتك تسامح. لازم تتراضى».

غمغم الرجل ذو النظارة والمعطف: «ابن القحبة ده سمج سماجة!» ثم أراد أن يقول: «أنت زودتها أوى. الموضوع مش كبير أوى لدرجة ...» لكنه خاف الاصطدام بعم الحاج، فقال: «الراجل ده كلامه صح. لازم العفو ييجى منك أنت».

قال البياع: «كفاية عليها كده. ماتكسفهاش أكتر من كده. فايدته إيه لو حجزوها يومين؟! ما عندهاش فلوس تتصادر. وبرضه هترجع للسرقة تانى».

قال عم الحاج: «أنا ما عنديش كلام. ربنا شاهد أنى مايهمنيش التلات بيضات دول، لكن ...».

قاطعه البياع قائلاً: «خلاص. عم الحاج سامحك، ياللا ياختى. اشكرى الحاج، استسمحى عمك الحاج وروّحى».

اضطر عم الحاج من شدة خجله أن يترك البقجة. قال لنفسه: «دى اتفضحت. كفاية عليها. سيبها تمشى».

وكان البياع يفكر بينه وبين نفسه: «ده أنا اللى راجل لو كنت وقعت ف زنقة زى دى كنت دبت م الكسوف، أو كنت ضربت المعلم ده ضربة

موتته أو كنت موتّ نفسي. شوف الولية دي حالها إيه دلوقتي؟! تلاقي نفسها الأرض تنشق وتبلعها».

وأخذ الرجل ذو النظارة يفكر بينه وبين نفسه: «تلاقيها بتفكر ف عيالها اللي تلاقي أيديهم أطول من رجليهم. ويمكن تكون اتأخرت عليهم. وتلاقيها ف وسط الهيصة دي قلبها مش جايبها ليكونوا وقعوا في حوض المية أو اتلسعوا بنار الفرن. ده لو كان عندهم حوض أو فرن. ولو أن الشارع والأتوبيسات والعربيات واللواري ... والمعلم ده كمان لازق لي على دماغه برنيطة ما بيخلعهاش أبداً. ماتسيبها بأه. ده أنت ابن كلب صحيح. سيبها تروّح لنصيبها».

وكان الكناس يفكر بينه وبين نفسه: «أدي مصيبة جديدة زادت الطين بلة. دبور زن على خراب عشه. تلقاها نسيت كل حاجة وبتفكر إزاي تخرج م الورطة دي وتخلّص نفسها».

كان كل من البياع والكناس والأفندي ذي المعطف، وحتى «عم الحاج» يتصورون أنفسهم مكان تلك المرأة ويودون لو علموا فيم كانت تفكر في تلك اللحظة. كانوا يتخيلون أنها ما أن يطلّق سراحها ستولي الأدبار وتبتعد. ظنوا أنها ستنهض وتمضي، تجري، تهرب، تختفي عن الأعين. كان المفروض أن يحدث ذلك. إلا أن المرأة وقفت في هدوء وصمت ترمقهم بنظراتها، فلم يعرفوا ما كان عليهم أن يفعلوا. تحركوا قليلاً لكنها ظلت مكانها لا تريم. ثم قالت: «والبيض ... ويعدين ... البيض ده هيتم فيه إيه؟».

غمغم الحاج: «أما غريبة! بتاع الراجل اللى اتجـــرأتى عليــه ...»
ثم نظر إلي الآخرين.

فجأة انفجر البياع فى ضحك انتهى بسعال.

قال الكناس: «سيبك م البيض ياختى! طبعًا مش هيديهولك».

قال البياع بعد أن فرغ من الضحك والسعال: «ياختى احمدى ربنا إن المسألة ما كبرتش. ادعى للحاج أنه ما فضحكيش. بيض إيه بأه؟!».

رمقه عم الحاج بنظرة ملؤها الإكبار وكأنه يقول له: «لا ولا حاجة. كله لوجه الله ...» لكنه لم يفصح.

وقف الكل برهة صامتين يجيلون النظر فيما بينهم.

مضى الحاج أولاً، ثم تبعه البياع والكـــناس، وتلاهـــم الأفـــندى ذو المعطف، وبقيت المرأة. لم تكن تنظر إلى شيء أو إلى أحد بعيـــنه؛ بل لم تكن تنظر إلى من كانوا يمضون ويبتعدون. وأخيراً مضت فى طريقها.

فبراير ١٩٦١

القيد(*)

بهرام صادقى

قبيل ظهر أحد أيام الثلاثاء من شهر نوفمبر، ألصق الإعلان التالى على الجدران كل أرجاء مدينتنا:

لن يقبل المستشفى الحكومى المزيد من المرضى بعد الآن، وذلك لتكدس المرضى بها. ويعلن المستشفى أنه بمقتضى القرارات الصريحة لمجلس المدينة وأوامر فخامة السيد المحافظ، لن يقبل أيضًا أى نوع من التوصية أو الوساطة. وعلى جميع الأهالى الشرفاء الغيورين بالمدينة مراعاة ما ورد بالإعلان وتنبيه المرضى المحترمين».

وبعد ظهر نفس اليوم مس الجنون اثنين من أهالى المدينة «الشرفاء الغيورين» ممن أصابتهم سابقة القلق المادى والمعنوى والوراثى ولاحقة المشكلات الأسرية، ولو أن الحالة فى هاتين الحادثتين تتفاوت فى أسرة كل منهما – أسرتى السيد «وحدانى» والسيدة «شيرين هانم».

(*) من مجموعة سنكر وقمقمه هاى خالى ، تهران ، زمان ، ١٩٦٩.

كان السيد وحدانى سليمًا معافى حتى الظهيرة؛ عاد متعبًا منهكًا كعادته من شارع «جردى» و رد تحية بناته وبنيه وامرأته الوفية الحنون ودخل غرفته. بعد نصف ساعة استدعى خادمته العجوز وأخذ يحدثها همسًا لبعض الوقت، ثم أذن لها بالخروج من الغرفة. وحين خرجت الخادمة كانت تمسك بورقات كلفت بتوزيعها على كل ساكنى البيت.

أخذت زوجة السيد وحدانى إحدى الورقات. ولما كانت على غير إلمام بالقراءة والكتابة، لجأت لأولادها. كان ابناها وكذلك بناتها الثلاث لايزالون فى عجب من الأمر. وأخيرًا قرروا أن يقرءوا نص الورقات التى صيغت على نسق واحد. فأمسك الابن الأكبر - بكر العائلة - بإحدى الورقات التى طبع أعلاها خاتم المتجر السابق لأبيه، بينما حدق الآخرون بعيونهم على فمه:

«أفلست منذ مدة. تعلمون ذلك. لكن لماذا؟ أجيبونى! فقدت مكانتى وكرامتى وحياتى منذ عشر سنوات. من كان يتصور أن يضيع يومًا متجرى بكل أقسامه الضخمة المنظمة؟ أنى لكم من هو أصدق وآمن منى؟! تعبت سنوات واستنفدت طاقتى كالكلب. حين كنت فى شبابى، كنت آكل وجبة وتفوتنى وجبة. حرمت نفسى كل لذة حتى أرتقى بحق وعدل يليقان بى. وقيت امرأتى وأطفالى عثرات البؤس والتعاسة. أنا من كان يومًا مجرد شخص تعس يقتات على الجوع ببيت أبيه، بلغت بتعليمى المتوسط ونشاطى الدءوب إلى درجة أن انشغلت بمنافسة أكبر تجار العاصمة. كان ذكائى واستعدادى الفطريان سببًا فى أن أوجه كل حادثة مهما صغرت لصالح تجارتى. باختصار، تضاعفت ثروتى فى

غضون سنتين أو ثلاث. بلغت أموالى أرقامًا فلكية. وأحييتكم حياة رغد وترف بلا منغصات. ولكن قولوا لى، لم أفلست؟ اذهبوا واسألوا الحكومة والغرفة التجارية ووزير المالية ورئيس جمهورية ألمانيا! هل هذا جزاء عمر من النشاط والكفاح الصادق؟!»

«في هذه السنوات العشر من البطالة، كنت دائم التفكير فى سبب شقائى. هل طرأ خلل ما على استعدادى وذكائى ومعدل فعاليتى؟ مطلقًا؛ كان لكل شىء أثر عكسى علىّ؛ كنت أنام الليل، أديت فريضة الحج، كنت أستيقظ فى الصباح نشيطًا، وأؤدى الزكاة، باعوا عماراتى وسددوا بأثمانها ديونى؛ صادروا بضائعى، استولوا على أموالى. وكان كل الناس يهنئوننى على أنى لم أدخل السجن. والآن وقعت فى ضائقة؛ أريد عملاً. دبروا لى عملاً. داهمتنى الشيخوخة وكذلك زوجتى. وأنتم يا أطفالى الأبرياء تحمر وجوهكم من اللطم؛ كفى! لا مزيد. قررت أن أكافح قدر طاقتى وأن أعبر عن آلامى ويؤسى بأعلى صوتى. لابد أن أقابل رئيس جمهورية ألمانيا ووزير الاقتصاد الأمريكى بصفة خاصة. لذا فأنا فى حاجة لمكبر صوت خشبى أصرخ فى وجوههم به. أود لو يعلم الكل أن لى اليوم صوتًا عاليًا».

إمضاء: وحدانى .

مع ذلك لم يبدُ على أى منهم أى قلق أو اضطراب فى اللحظات الأولى، ولو أن مقابلة رئيس جمهورية ألمانيا ووزير الاقتصاد الأمريكى كان يبدو ضربًا من الحمق بعض الشىء. وكان الصوت العالى شيئًا لا سابقة له فى حياة السيد وحدانى.

فى الواحدة والربع بعد الظهر، بلغ القلق والاضطراب فى قلوب الأسرة مبلغه حين تعالت من غرفة السيد وحدانى أصوات ثائرة. كان السيد وحدانى يتلو أبياتًا من شاهنامة الفردوسى بوضوح وقوة على طريقة جمعيات الفتوة ويدق على إيقاعها على صينية فضية كبيرة بقيت من عهد الثراء.

لم يعد الصبر جائزًا. ولما كانت هذه المدينة خلوًا من مصحة أو من طبيب متخصص فى الأمراض النفسية، استقر الرأى بينهم على أن يلحقوا الأب بمصحة الأمراض العقلية بأسرع وقت. كانت مدينتنا القصية هذه المدينة الوحيدة بكل هذه المنطقة الشاسعة أو - على حد قول الإداريين - الوحيدة بكل هذه المحافظة التى حظيت بنعمة وجود مصحة للأمراض العقلية. حتى مركز المحافظة لم يكن شىء كهذا. وفى العاصمة بدأوا مؤخرًا فى إنشاء واحدة. كان محافظ محافظتنا يختال مرحًا بهذه الميزة، ولو أنه أحيانًا يتحسر على وجوده فى هذه المحافظة الهادئة التى تلفها الأسرار والقابعة فى صحراء مترامية الأطراف منعزلة تفصلها عن المدن البهيجة الصاخبة التى تضج بالحركة والعمران النشيط أميال وأميال. كانت صحف المركز تطلق على مدينتنا ونواحيها اسم «المنطقة المنبوذة»؛ وكانت تورد على صفحاتها من حين لآخر حكايات عن بلاهة قاطنيها وغبائهم.

ربما كان الأمر كذلك؛ إذ لم تكن مصحتنا كسائر المستشفيات، فلم تكن أى من القواعد العلمية أو العملية متبعة بها. بل لم يكن معروفًا مدى إشراف الإدارة الصحية عليها. فى الحقيقة كانت تدير هذه المصحة

العظيمة الرمزية جماعة لم نر أيًا من أفرادها. ولم تكن تلك الجماعة تشارك فى اجتماعات المدينة، وكانت هناك شائعة سرت فجأة وذاعت فى المدينة والصحراء والقرى النائية فحواها أن مدير المصحة طبيب مجازى هرم يساعده عدد من أطباء مساعدين وممرضات أكثر هرمًا. أما المسائل الأخرى من قبيل ما إذا كانت المصحة حكومية أو أهلية وكم تضم من المجانين وكم تبلغ ميزانيتها وما إلى ذلك، فهى أشياء ظلت طى الغموض، وبالتالى أضحت غير ذى أهمية.

نفذت أسرة السيد وحدانى قرارها، فوصلت شيرين هانم برفقة الأسرة إلى باب المصحة متأخرة نصف ساعة.

تقع مصحتنا فى أبعد أحياء المدينة وأكثرها خرابًا. فى الواقع كانت أشبه بقلعة حربية؛ بابها الأسود الضخم موصد على الدوام، وتحيط بها أشجار الدلب العتيقة الضخمة من كل جانب.

جاءت أسرة السيد وحدانى وأقارب شيرين هانم، وقد أفاقوا لتوهم من تأثير الصدمة الأولى المشئومة المذهلة. جاءوا إلى باب المصحة الموصد يستطلعون الأمر. كان الابن الأكبر يتخذ موقفًا معارضًا، إذ اقترح الذهاب بالأب إلى العاصمة وإلحاقه بمصحة خاصة. وكانت الأم وبناتها يعتبرن هذا الأمر ضربًا من المستحيل مع ذكر الأرقام والشواهد، إذ لم يكن المال الكافى لتنفيذه متوفرًا. أما السيد وحدانى الذى كان ترك صينيته الفضية بالبيت فأخذ ينقر على بطنه نقرًا رقيقًا وينشد بصوت حماسى.

أصيب أقارب شيرين هانم - الذين اتخذوا ركنًا قصيًا يجترون شكوكهم وسوء ظنونهم - بالصدمة من جراء مواجهتهم لجماعة أخرى، وبسبب اطلاعهم على المضمون الصارم المرير للإعلان الملصق على باب المصحة، وهى نفس الصدمة التى نزلت على أسرة السيد وحدانى بدورها فى الدقائق الأولى. كان هؤلاء الأقارب الذين لا يحصون عددًا من سيدات وفتيات فى أعمار مختلفة: عجائز حدباوات لا تساوين شروى نقير، ونساء بدينات وفتيات يانعات حسناوات ذوات أعين سوداء لعوب. ولم يكن برفقتهن رجل واحد.

نشيت أسرة السيد وحدانى فجأة ولى نعمتها واستغرقت فى الفرجة على هؤلاء النسوة. هل لنا أن نقول إن هؤلاء النسوة كن جميعًا يرتدين ثيابًا وعباءات سوداء فاحمة وقد وسمن حواجبهن وطوقن أعناقهن وأذرعهن بأساور من ذهب؟ قالت امرأة السيد وحدانى لنفسها: «لنا عائلة دينية عريقة!».

جلست شيرين هانم على إحدى المصاطب الحجرية العريضة أمام باب المصحة فى مواجهة السيد وحدانى. وقبل أن تفرش منديلها على ركن منها صاحت:

- «أنا ثور! أنا معك أيها السيد المبجل! ألا تندهش؟! أنا ثور! هل تفهم؟!».

صمت السيد وحدانى فجأة عن انشغاله بشأنه ونظر إليها:

- «لماذا؟ لماذا؟ أنا مندهش. أنا لم أر ثورًا مثلك من قبل».

نهضت شيرين هانم ومضت باسمة نحو أقاربها، ثم قالت:

- «أخيرًا أدرك المرء حقيقة وجوده في هذه الدنيا. والأهم أن يندهش!».

عاد السيد وحداني إلى أناشيده على مصطبة المصحة، ولكن بصوت أهدأ وأكثر حذرًا وكان من حين لآخر يسترق النظر إلى شيرين هانم التي دخلت في زحمة النسوة من أقاربها.

بجوار المصحة ووراء طابور من أشجار الدلب، كان ثم طريق يؤدي إلى أرض بور لا زرع فيها ولا ماء خارج المدينة. كان ذلك الطريق يبدو في هذا الوقت من بعد الظهر عريضًا جافًا موحشًا؛ قطعان أغنام وماعز مسوقة إلى المذبح بالمدينة هجعت على مرتفعات الصحراء ووديانها طلبًا للراحة قبل الموت. كانت أغنامًا سوداء اصطفت متقاربة في عدة صفوف متقاطعة تهز أفواهها ولحاها القصيرة في سكينة. كانت تبدو من بعيد وكأنها جماعات من اللاجئين الجوعى والعطشى تلاصقوا خوفًا في انتظار الطاعون والكوليرا مرددين الأوراد والأدعية دون جدوى.

سرعان ما بلغت أحاديث شيرين هانم مراحل مخجلة دقيقة؛ فترك الثور مكانه للخنزير والحصان للإنسان، الإنسان الذي يعبر عن أدق دقائق أفكاره وعملية التزاوج. اصطبغت وجوه الفتيات بحمرة الخجل؛ الفتيات سود العيون اللائي كن يمنحن أولاد السيد وحداني ابتسامات أكثر من ذي قبل. وأرهفت النسوة والعجائز منهن السمع بآذان أكثر حدة كي لا تفوتهن كلمة. توالت عشرات الطرقات على باب المصحة

الحديدى العملاق بمقبضه الأسود المخيف دون جواب. وكانت صرخات النسوة القعيدات تطالب بحقوق لهم بدعوى مكانتهن وصيت عائلاتهن، وعلت أصوات أولاد السيد وحدانى الحادة تتحدث بحماس وإيمان عن الحرية النفسية وحقوق الفرد ومسئولية مديرى المصحة، ما دل على أن إعلان المحافظ لم يكن له أدنى تأثير وأن أحداً لم يصغ لتعليماته المشددة.

كانت شيرين هانم امرأة رثة المظهر فى الأربعين من عمرها طويلة القامة لها عينان جريئتان لا حياء فيهما، وكان وجودها يبدو غريباً مثيراً بين هؤلاء النسوة المتشحات بالسواد اللاتى كان لكل منهن حظ من الحسن والتوافق الدينى النسوى. كانت شيرين هانم لاتزال تفترش المصطبة وتروى حكاياتها التى لا تنتهى عن الأعضاء التناسلية والمسائل الجنسية. كانت أسرة السيد وحدانى وأقارب شيرين هانم - الذين ما كانوا ليتعارفوا ويتقاربوا فى فرصة غير هذه - جمعت بينهم التعاسة المشتركة (وهذا حدس من جانبنا) فتركوا مرضاهم وحدهم وجلسوا متحلقين تحت شجرة الدلب العجوز الظليلة يتواسون.

قالت امرأة إن شيرين هانم طلقها زوجها وتزوج بأخريات، التحق ولدها بالجيش، وفى إحدى حروب الوطن ذاق حلاوة الشهادة؛ وابنتها أيضاً أصابها السرطان بعد أن تزوجت، ولكنها توفيت وهى تضع وليدها.

وقالت إحدى الفتيات إن شيرين هانم كانت مصابة بالوسواس منذ بداية حياتها؛ وفى الليل كانت تخاف أن يلدغها ثعبان؛ وكانت أحياناً

تتخيل نفسها جالسة بمطعم تأكل الكباب، ولكن للأسف كانت قطع الكباب، تلك القطع المثقوبة المخيفة، لا تنتهى وكانت تتطاير من الطبق بلا انقطاع كأنها خيط لتهبط فى فمها.

فتاة أخرى لها يدان سمينتان بيضاوان انغرست فيهما أساور الذهب على رسغيها وحفرت عليهما أطواقًا، تحدثت قائلة إن شيرين هانم كانت تهوى الاطلاع وتقرأ الكثير من الكتب وإنها بدأت مؤخرًا فى نظم الأشعار العاطفية. ووجدت هذه الحسناء الفرصة لكى تزيد من استعراض يديها ورأسها ونهديها.

كان السيد وحدانى وشيرين هانم جالسين معًا على المصاطب بعيدًا عن عائلتيهما وقد انخفض صوتهما وخفت من الإرهاق، فأخذا يتبادلان النظرات. كانت العائلتان مسرورتين بأن أهل المدينة لم يعرفوا بالحادث بعد وأن كرامتهما لاتزال مصونة، ولا غرابة فى المجىء للفرجة على المرضى. فى نفس الوقت، كانت ثمة فكرة مقلقة تعذبهما: هل يمكن حتى وإن كان بالمصحة متسع أن يقبل هذان الكائنان وأن يعالجا؟

يعالجا؟! وهل ثم علاج؟!

أخيرًا وفى الرابعة من بعد الظهر، انفتح باب المصحة، ذلك الباب الأسطورى المهول، مواربًا وأثار فى الجو ضجيجًا عاليًا وترابًا وكأنه لم يفتح منذ قرون. برز قليلاً من وراء الباب شيخ مهيب بدين يرتدى رداء أبيض. خيم الصمت على الكل وتقهقروا عدة خطوات إلى الوراء. لا ريب

أن الشيخ البدين ذا الرداء الأبيض ظن أن النسوة المتشحات بالسواد حدأت أصابها الذعر لحضوره فتراجعت. وابتسم.

تقدم ابن السيد وحدانى البكر وقال:

- «سيدى الطبيب».

قال «الطبيب»

- «نعم؛ أرى، ولكن ألم تقرءوا إعلان المحافظ؟ أثرتم كل هذه الضجة بلا داعٍ. ما من متسع لدينا حتى للخطرين من المجانين ممن يقيدون بالسلاسل. لعلكم تدهشون حين أقول ألا مكان حتى لنا نحن».

- «مع كل هذا لازلنا متعلقين بهذه المدينة. أذللنا أنفسنا، أوليناكم كل احترام، كما أن عائلاتنا لا تسمح لها كرامتها بأن يطلع على أسرارها سواكم أنتم وتنظيماتكم».

- «لكم أن تحيلوها إلى المسئولين المختصين».

- «لا نريد أن نأخذ مرضانا إلى المركز؛ هذا يفوق طاقتنا. كما أننا نريد حقنا. ينبغى أن يكون كل شىء على المشاع، حتى المصحة».

- «كم هم؟».

فى تلك اللحظة أنفلت السيد وحداني من يد زوجته وخادمته واندفع إلى الأمام وصب صوته المصم للآذان على رأس الطبيب ووجهه":

– «إفلاس وبطالة ... هذا أمر يتعلق بصميم حياتنا . مقعد وفراش ... هما كذلك من صميم حياة أولئك السيدات».

وأشار إلى شيرين هانم وأقاربها . أخفى الطبيب جزءًا أكبر من جسمه وراء الباب وقال:

– «حالة مريضكم غاية فى السوء. علينا أن نتدبر الأمر».

أمسكت شيرين هانم بيد السيد وحدانى وانخرطت فى البكاء. وتقدمت الحدأت باسمات، فقال الطبيب:

– «نأخذهما ونفحصهما ونبلغكم بالنتيجة. قد نشفيهما تمامًا».

قالت إحدى النسوة:

– «ولكن يجب أن نعرف ما يجرى لهما . ربما احتجزتموهما . حينئذ ماذا يحدث لهما؟ لا أحد يعرف خبايا أموركم ...».

– «هذه مصحة ... ما ظنكم؟!».

– «ما من أحد خرج منه. ولا أحد يدرى ماذا يأكلون، وما دواءهم وكيف يعاملون! ألم تسمع ما يقال من أنكم تقتلون المجانين هنا؟! تلقونهم فى زيت مغلى أو تشنقونهم!».

لمعت عينا الطبيب وقال:

– «إننا نضحى هنا، ولكن ماذا عسانا أن نفعل؟ مثل هذا يقال دائمًا عن مصحة الأمراض العقلية».

قالت إحدى الفتيات: «لم لا تفتحون الباب إن كنتم صادقين؟ لم لا تفسحون لنا الطريق؟».

- «آه ، أما هذا فشأن وزارة الصحة لا شأنكم! عليكِ أولاً وقبل كل شيء أن تتزوجي».

قال ابن السيد وحداني الأصغر: «بل إنكم لا تنبئون العائلات بأحوال مرضاهم. أما يحق لنا إذن أن نرتاب؟!».

- «لكلٍ أن يظن ما يشاء، أما نحن فليس لدينا جهاز كبير. ثم ماذا لدى المجنون من أخبار ننبئ بها؟! لنعترف الآن أنكم معاصرون إذ تطلقون عليهم صفة «مريض»».

- «اطمئنوا؛ فلستم نوى قوم من الرعاع؛ فهم قوم نوو شأن وسيأتون يسألون عن مرضاهم. كنت أمزح بلا شك، ولكن سيدى الطبيب، لا صلاح فى شنقهم!».

- «آه، بعد أيام ستتنسونهم فيهلكون من تلقاء أنفسهم أو - وأنا أيضًا أمزح - يختنقون».

فى نفس تلك اللحظات الأولى، تملك الإنهاك الجميع. حسنٌ. ما جدوى كل هذه المفاوضات العقيمة الغبية؟ أليس من الأجدى أن نلحقهما بالمصحة ونمضى كلٌ إلى حال سبيله؟! وعلى أى فما قيمة السيد وحدانى وشيرين هانم حتى يهدر كل هذا الكلام فيما لا طائل من ورائه؟!

فجأة اختفى الطبيب. وخرج حارس البوابة المتين البنيان والذى كان يبدو كمن تحجر فى مكانه وأخذ السيد وحدانى وشيرين هانم إلى داخل المصحة. تتبعتهما العائلتان بالنظرات الأخيرة. دار الباب التاريخى الهائل على عقبه محدثًا صوتًا يقبض القلوب، وثار الغبار من ثناياه مرة أخرى. وفى نفس الفترة القصيرة التى كان الباب فيها مواربًا رأت امرأة السيد وحدانى صفصافة مجنونة ضخمة انتثرت أغصانها حول حوض ماء، ورأت أيضًا مقعدين خضراوين وتمثالاً حجريًا لأسد يضحك.

كان الوقت قرب الغروب، وكان النسيم العليل ينشر فى الجو الرائحة المتصاعدة من مطبخ المصحة، وكان راعى الغنم ينشد بصوت هادئ حزين. بعد ساعة، أى فى نفس اللحظة التى دقت فيها ساعة المدينة العتيقة بالميدان خمس مرات، انفتح الباب مرة أخرى. وفى هذه المرة كان الحارس المتين البنيان يخفى نفسه وراء حديد الباب. لم يكن ثم طبيب. ظن الجمع أن الباب فتح من تلقاء نفسه بوسيلة خفية. صف من أشجار البقس الصغيرة وبركة وعدد من المقاعد الخضراء وامرأة عجفاءِ مهوشة الشعر نصف عارية تستند إلى شجرة وحول معصمها أصفاد سوداء. كانت أشياء وقعت عليها عينا امرأة السيد وحدانى من زاوية أخرى.

قال الحارس بصوت أجش: «تم توقيع الكشف عليهما. حالتهما وخيمة ميئوس منها. لا حيلة لنا إلا أن نقبلهما».

قفزت النسوة المتشحات بالسواد وعائلة السيد وحدانى غبطة، وتبادلن التهانى على ما أحرز من نجاح. قال الابن البكر للسيد وحدانى: «ألا ينبغى أن نحضر لهما شيئًا؟ ثياب، غذاء؟! أليست هناك أوراق نوقع عليها؟ أما من مراسم؟».

– «لا».

أوصد الباب وعلت صيحات الرضا والسرور من العائلتين؛ فقد تخلصتا على الأقل من إهدار الكرامة ونظرات الجيران المنقبة ومن نفقات باهظة ورعاية مجنونين خطرين. ولكن لم تعد ثمة رابطة بينهما. لأن ... قد لا تشتركان فى التعاسة (وهذا حدس من جانبنا). لذا انفصلت كلٌ عن الأخرى. وفى هذه اللحظات الأخيرة وتبادل تحيات الوداع، امتزجت نظرات أولاد السيد وحدانى بنظرات العيون السود اللعوب للفتاتين الحسناوين البدينتين وتوقفت قليلاً. وثقوا العهود فيما بينهم.

كانت الشمس مشرقة على الأسطح ونشوة تموج فى الجو. عدد من أهل المدينة يمرون بجوار المصحة. ألقوا على الفريقين نظرات حادة مشوبة بسوء الظن. كان صوت الناى خمد. وفى الصحراء المحيطة تناثرت قطعان الغنم تاركة وراءها سحابة غامضة بلا شكل محدد من الغبار. كان الراعى يسوقها إلى مصيرها الدامى.

كلما كانت العائلتان تبتعدان عن المصحة كلٌ فى طريق، كان هذا الصرح الهائل يبدو وكأنه يكبر ويفقد محدوديته بدلاً من أن يصغر ويدق

حجمًا. وصلت أسرة السيد وحدانى بسرعة إلى البيت وبدأت حياتهم الرتيبة المملة. فى روحى ابنى الأسرة فقط ومض شعاع من أمل كمصباح خافت الضوء.

اضطرت قريبات شيرين هانم إلى قطع الطريق فى مدة أطول عبر حارات المدينة الضيقة المتداخلة. كانت ديارهن بعيدة بعيدة. كن يلففن رءوسهن بعباءاتهن السوداء فلا تبدو من كل منهن سوى عين واحدة دون الأخرى. فى تلافيف إحدى الحارات التقين جماعة يحملون على أكتافهم نعشًا فى الطريق إلى المدافن. انتحت النسوة المتشحات بالسواد جانبًا وقرأن الفاتحة همسًا، ثم استأنفن الطريق وسط غبار غروب الحارات.

لم نسمع عن أشياء خفية إلا فيما تلى من الأعوام؛ شائعات كانت تصدر من المدينة نفسها وتنتشر بالبلاد والقرى المحيطة، ثم تسرى بالمنطقة المنبوذة كلها، ثم تعود من جديد إلى حارات المدينة الترابية الضيقة، وفى الليل تتردد تحت الأسقف الخشبية وحول فرن المدافئ: تزوج ولدا السيد وحدانى من فتاتين من أسرة دينية ورحلا بهما إلى العاصمة ترافقهما أمهما والخادمة العجوز. أما الأخوات فرحلت كلٌ منهن إلى مدينة حيث بيت الزوجية وانشغلن بتربية أبنائهن. وقيل إن السيد وحدانى تزوج من شيرين هانم بالمصحة وإنهما شفيا. وقيل إن أحدًا لم يسأل عنهما قط طوال هذه السنوات الطويلة. وسمع أحد الناس بالعاصمة من ابن السيد وحدانى الأكبر خبر وفاة والده بمصحة

الأمراض العقلية، والسبب على ما يبدو فى الظاهر كان الالتهاب الرئوى وضعف القوى الجسمانية، وغير ذلك كثير.

وثمة شائعة سرت تقول إنه ذات صباح حزين مغبر فى الخريف حيث اكتست الدنيا بلون ترابى، وخلف مبانى المصحة، وفى نفس الفناء المشئوم الذى تحاصره أشجار الصفصاف والدلب والبقس المتشابكة الأغصان، وعلى منصة مشنقة مصحة الأمراض العقلية، شُنق كل من السيد وحدانى وشيرين هانم. وفى نفس المكان دفن جثمانهما.

كانت هذه الشائعة الأخيرة لا ريب كاذبة أو على الأقل مبالغًا فيها. أما الشىء المؤكد فكان أن أحدًا لم يحتج حتى الآن على المصحة ولا طالب بتقصى الحقائق أو جمع المعلومات حول كيفية موت هذين المريضين أو غيرهما من المرضى وعن الأوضاع الداخلية لهذه القلعة العتيقة الحصينة النائية.

لعل الكتّاب الصحفيين بجرائد المركز ومجلاته كانوا على حق، ربما كان الأمر من اختصاصهم هم.

الصبى بائع اللفت

صمد بهرنكى

قبل عدة سنوات، كنتُ معلمًا بإحدى القرى. كانت مدرستنا لا تزيد عن حجرة واحدة بها نافذة واحدة وباب واحد للخروج. وكانت تبعد عن القرية بمسافة لا تزيد عن مئة متر. وكان لدىّ اثنان وثلاثون تلميذًا، خمسة عشر منهم بالصف الأول، وثمانية بالصف الثانى، وستة بالصف الثالث، وثلاثة بالصف الرابع. وكنت قد أرسلت اليهم بأواخر الخريف. وكان الأطفال قد ظلوا بلا معلم لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر، ففرحوا بمقدمى وهللوا. ظلت الدراسة غير منتظمة لمدة أربعة أيام أو خمسة، وفى النهاية استطعت أن أجمع التلاميذ من الخلاء ومن مصنع نسج السجاد ومن هنا وهناك وأقتادهم الى الفصل. كان كل الأطفال تقريبًا يعملون فى مصنع الحاج قلى النساج فى وقت الفراغ. كان أمهرهم يتقاضى عشرة ريالات أو خمسة عشر فى اليوم. وكان الحاج قلى أتى من المدينة، حيث كانت القرية أوفر ربحًا له. كان عمال المدينة يطلبون أجورهم مقدمًا ولم يكن أحدهم يتقاضى أقل من أربعة تومانات. أما فى القرية فلم يزد أعلى أجر عن خمسة وعشرين ريالاً أو خمسة وثلاثين.

لم يكد يمر على قدومي الى القرية عشرة أيام حتى هطل الثلج وتحولت الأرض الى جليد؛ فحشرنا الورق في شقوق الباب والنافذة حتى لا يتسرب البرد الى الداخل.

ذات يوم، كنت أقوم بالإملاء على الصفين : الرابع والثالث، وكان الصفان الأول والثاني بالخارج. كانت الشمس ساطعة وكان الثلج قد لان وذاب. من النافذة كنت أرى الأطفال يطاردون كلبًا ضالاً ويقذفونه بكرات الثلج. كانوا في الصيف يطاردون الكلاب بالحجارة والحصى؛ وفي الشتاء بكرات الثلج.

وبعد قليل، علا من وراء الباب صوت رقيق ينادي: اللفت، اللفت يا أولاد! معنا لفت ساخن وحلو!.

سألت ألفة الفصل: من هذا يا كاظم؟

قال كاظم: لا أحد غيره يا أفندي ... إنه تاري وردي يا أفندي ... يبيع اللفت شتاءً .. أتريدني أن آتي به الى الفصل.

فتحت الباب ودخل تاري وردي بإناء اللفت. كان يلف رأسه ووجهه بكوفية قطنية قديمة، وكانت إحدى فردتي حذائه «كاوتش» والأخرى من نوع الأحذية الرجالي العادية. وكان يرتدي سترة رجالية تصل حتى ركبتيه. وكان كفاه مختفيين داخل أكمام سترته. وكان طرف أنفه محمرًا من أثر البرودة . كان يبدو أنه في العاشرة أو الثانية عشرة من عمره .

ألقى السلام ووضع قِدره على الأرض وقال: تسمح لى يا أفندى أن أدفئ يداى؟

جذبه الأطفال الى جوار المدفأة. قدمت له مقعدى فجلس وقال: لا يا أفندى؛ أستطيع أن أجلس فى مكانى هنا على الأرض.

كان الأطفال الآخرون قد دخلوا لدى سماعهم صوت تارى وردى. ازدحم الفصل، فأجلست كلاً منهم فى مكانه.

بعد أن أحس تارى وردى بقدر من الدفء قال: أتحب اللفت يا أفندى؟

ومضى دون أن ينتظر ردى فنحى منديلاً ملونًا قذرًا من فوق القدر، فتصاعد البخار من اللفت. كان هناك سكين فوق اللفت. انتقى تارى وردى ثمرة لفت وناولنى إياها وقال: من الأفضل أن تقشرها بنفسك يا أفندى ... فيداى قد تكونا ... نحن قرويون على أية حال ... لم نر المدينة ... ولا نعرف أصولها وعاداتها ...

كان يتكلم كأنه شيخ عرك الحياة. ضغطت على ثمرة اللفت فى كفى فانفصلت عنها قشرتها وبان احمرار قلبها الفاقع المحبب. تناولت قضمة، وكانت لذيذة بحق.

قال نوروز من آخر الفصل: يا أفندى ... ليس هناك لفت ألذ من لفت تارى وردى ... يا أفندى .

قال كاظم: يا أفندى ، أخته هى التى تسلقه، وهو يبيعه ... أمه مريضة يا أفندى .

نظرت إلى تارى وردى، وكانت على شفتيه ابتسامة رجولية حلوة. كان قد فك كوفيته القطنية من حول عنقه، وكان شعر رأسه يكسو أذنيه. قال: لكلٍ صنعته على أية حال يا أفندى ... وهذه صنعتنا .

قلت: مم تشكو أمك يا تارى وردى؟

قال: قدماها لا تتحركان. يقول العمدة إنها مشلولة. لا أدرى حقيقة ما بها يا أفندى.

قلت: وأبوك ...

قطع كلامى وقال: مات.

قال أحد الأطفال: كان يقال له «العسكرى المهرب» يا أفندى.

قال تارى وردى: كان يجيد ركوب الخيل. وفى نهاية أمره تلقى رصاصة فى الجبال ومات. ضربه العسكر. ضربوه فوق حصانه.

وتجاذبنا أطراف الحديث قليلاً، وباع للأطفال لفتًا بقرانين أو ثلاثة ومضى. لم يأخذ منى نقوداً. قال: أنت ضيفى هذه المرة. المرة القادمة تعطينى نقوداً. لا تنظر إلى أننا قرويون؛ فلدينا قليل من الأدب ونفهم يا أفندى.

كان تارى وردى يجر ... فى الثلج نحو أطراف القرية وكنا لانزال نسمع صوته يقول: اللفت! ... جئنا باللفت السخن الحلو يا ناس! ...

ثم كلبان أخذا يدوران حوله ويهزان ذيولهما.

قال لى الأولاد أشياء كثيرة عن تارى وردى: أخته كان اسمها سولماز. وكانت تكبره بسنتين أو ثلاث عندما توفى أبوهما، كان لهم دار وحياة طيبة. ثم حل بهم البؤس بعد موته. ذهبت أخته أولاً ثم أخوه عند حاجى قلى نساج السجاد. ثم تعاركا مع حاجى قلى وخرجا من عنده.

قال رضا قلى: حاجى قلى عديم الشرف كان يؤذى بأخته يا أفندى. كان ينظر إليها نظرة سوء يا أفندى .

وقال أبو الفضل: يا أف ... أفندى ، تارى وردى كان يريد يا أفندى أن يردى حاجى قلى بسكين النسيج يا أف ...

كان تارى وردى يطل على الفصل مرتين كل يوم. وكان أحيانًا يأتى بعد أن يجبُر لفته وكان يجلس بالفصل ويصغى للدرس.

قلت له يومًا: تارى وردى، سمعتُ أنك تشاجرت مع حاجى قلى. هل لك أن تحكى لى كيف!

قال تارى وردى: هذا أمر مضى عليه زمن يا أفندى . سيسبب لك صداعًا. قلت: أود فعلاً أن أسمع منك حكاية هذا الشجار بينكما من الألف إلى الياء.

وشرع تارى وردى كلامه فقال: لا تؤاخذنى يا أفندى ، كنت أنا وأختى نعمل عند حاجى قلى منذ طفولتنا . أختى ذهبت عنده قبلى. وكنت أعمل تحت يدها . كانت تأخذ تومانين. وأنا أقل منها قليلاً. وقبل سنتين أو ثلاث مرضت أمى من جديد. لم تعد تعمل ولكنها لم تصبح قعيدة تماماً . وكان بالمصنع ثلاثون أو أربعون صبياً وفتاة آخرين، - ولايزال كذلك - وكان لنا خمسة أسطوات أو ستة. كنت أنا وأختى نذهب فى الصباح ونعود ظهراً. ثم نذهب مرة أخرى بعد الظهر ونعود عصراً. كانت أختى ترتدى العباءة فى المصنع، ولكنها لم تعد تحتجب عن أحد. فالأسطوات كانوا بمنزلة أبينا، والآخرون كانوا صبية وبنات صغاراً، وحاجى قلى صاحب العمل.

وفى الأواخر يا أفندى كان حاجى قلى يأتى ويقف فوق رأسينا ويحدق بأختى، وكان أحياناً يمد يده ويربت على رأسها أو رأسى ويبتسم بلا سبب ثم يمضى. لم يكن هذا يسوءنى فهو رب عملنا ويعطف علينا . ومضت مدة. وذات يوم خميس حيث كنا نتلقى أجرنا الأسبوعى، أعطى لأختى توماناً إضافياً وقال لها: أمك مريضة، خذيه لنفقاتها .

ثم ابتسم فى وجه أختى بطريقة لم تعجبنى. بدا الخوف على أختى فلم تجبه. ومضينا معاً يا أفندى إلى أمنا . وعندما سمعت أن حاجى قلى أعطى لأختى أجراً إضافياً، فكرت ثم قالت: لا تأخذى أية نقود إضافية بعد الآن .

ومنذ غداة ذلك اليوم رأيت الأسطوات والأولاد الأكبر سنًا يتهامسون فيما بينهم ويكلم كل منهم الآخر فى أذنه وكأنهم يريدون ألا أسمع أنا وأختى شيئًا مما يقولون.

وفى يوم الخميس التالى يا أفندى ، كنا آخر من ذهبوا لتلقى الأجور. إذ كان حاجى قلى قد قال لنا أن نذهب إليه بعد أن يفرغ. وأعطانا الحاج خمسة عشر تومانًا إضافيًا وقال: أنا آتٍ إلى داركم غداً، فأود أن أتكلم مع أمكما.

ثم ابتسم فى وجه أختى بصورة لم تعجبنى بالمرة. وشحب وجه أختى وطأطأت رأسها.

لا تؤاخذنى يا أفندى . فأنت قلت أن أحكى لك الأمر كله. رميت بالخمسة عشر تومانًا للحاج وقلت: لسنا فى حاجة للنقود الإضافية يا حاج. فهذا يغضب أمى.

فابتسم الحاج مرة أخرى وقال: لا تكن مغفلاً يا حبيبى. ليس هذا لك ولأمك حتى يعجبكما أو يغضبكما ...

ثم أراد أن يأخذ الخمسة عشر ويدسها فى يد أختى فتراجعت أختى وخرجت تعدو. وأخذت أبكى من شدة الغيظ. كانت على المنضدة سكين يستخدمها النساجون، تناولتها ورميته بها فجرحت وجهه ونزف. صرخ الحاج واستغاث. خرجت أجرى ولم أدرِ بما حدث بعد ذلك. ذهبت إلى البيت. كانت أختى منكمشة بجانب أمى وأخذت تبكى.

وفى الليل يا أفندى ، جاء العمدة. كان الحاج شكانى وقال: أريد أن أصاهرهم، وإلا لسلمت الصبى للشرطة لتوسعه ضربًا. فقال العمدة: أوفدنى الحاج للخطبة، نعم أم لا؟

أسرة حاجى قلى فى المدينة الآن يا أفندى ، كما أن له زوجات متعة فى أربع قرى أخرى. لا تؤاخذنى يا أفندى ، فهو خنزير عفن بمعنى الكلمة. بدين وقصير له لحية قصيرة يشوبها الشيب، وأسنانه صناعية بعضها من الذهب، ويحمل فى يده سبحة طويلة. وهو بعيد عنك خنزير «شايب» عفن.

قالت أمى للعمدة: لو كان لى مئة بنت غيرها لما أعطيت إحداهن لهذا الضبع العجوز. يكفينا ما رأينا منه. أنت نفسك تعلم يا عمدة أن أمثاله لا يأتون ليصاهروننا نحن القرويين مصاهرة حقيقية ...

فقال العمدة يا أفندى : نعم، صدقتِ. فحاجى قلى يريد أن يتزوجها زواج متعة. ولكنك إن رفضتِ لطرد الولد والبنت، ثم بعد ذلك صداع الشرطة وهؤلاء ... أنت تعرفين!

كانت أختى منكمشة وراء ظهر أمى وأخذت تقول وهى تنتحب: أنا لن أذهب إلى المصنع بعد الآن ... سيقتلنى ... أخاف منه ...

وفى الصباح لم تذهب أختى للعمل. ذهبت وحدى. كان حاجى قلى واقفًا بالباب يسبح. خفت يا أفندى ، فلم أقترب. وقال حاجى قلى وقد غطى جرح وجهه بقطعة شاش: تعال يا ولد ادخل، لا شأن لى بك.

دنوت منه في وجل وما أن شرعت في المرور من الباب حتى أمسك بمعصمي وألقي بي في ساحة المصنع وأوسعني ضربًا بكفيه وقدميه. وفي النهاية أفلتّ وعدوت وأمسكت بسكين الأمس فضربني ضربًا مبرحًا حتى أدمي جسدي كله. صرخت في وجهه: يا قواد يا عديم الشرف، سأريك الآن من أنا ... ينادونني بابن العسكري المهرّب ...

ثم تنهد تاري وردي وقال: كنت أريد يا أفندي أن أقتله وقتها. فتجمع العمال وحملوني إلى بيتنا. كنت أبكي من الغيظ وأخذت أضرب نفسي في الأرض وأسب، وكان الدم ينزف من جرح وجهي ... ثم هدأت.

كانت لدينا عنزة، اشتريته أنا وأختي بعشرين تومانًا. فبعناها وبالنقود القليلة التي ادخرناها تمكنا من العيش لشهر أو شهرين. ثم ذهبت أختي للعمل عند الخبازة أمت أنا فكنت ألتحق بأي عمل أجده أمامي ...

قلت: لم لا تتزوج أختك يا تاري وردي؟

قال: طلب ابن الخبازة يدها، ونعد أنا وأختي الجهاز الآن لكي تتزوج.

* * *

ذهبت هذا الصيف إلى نفس القرية. رأيت تارى وردى فى الصحراء ومعه أربعون أو خمسون رأسًا من الغنم. قلت: هل تدبرت جهاز أختك بعد يا تارى وردى؟

قال: نعم، وتزوجت أيضًا ... وأنا الآن أدخر مالاً لكى أتزوج أنا أيضًا. فمنذ أن غادرت أختى إلى دار زوجها بقيت أمى وحيدة، وتريد من يرعاها ويؤنس وحدتها ... تجاوزت حدود الأدب. لا تؤاخذنى يا أفندى .

فراشات فى الليل(*)

غلامحسين نظرى

فاجأتهم، وما أن دخلتُ الحجرة كانوا ثلاثتهم جالسين متحلقين حول الفرن المدفأة. قفزت أمى من مكانها وفتحت غصنى ذراعيها العجفاوين لتحتضننى. رأيت نفسى وقد عدتُ نفس الطفل المسكين الهارب من المدرسة الذى يلوذ بأحضانها. قلتُ لنفسى: «كبرتَ يا رجل ولم تعد صغيراً»، ولكنى لن أكبر أبداً؛ لن أكبر أبداً.

مددت يداى لأخى وأختى وقبلتُ جبينهما وجلسنا. لم تكن أمى ترفع عينيها عن وجهى:

- «حسنُ؛ احكِ لى».

بلعت ريقى. «احكِ لى، أين كنتَ طوال هذين العامين، ماذا كنتَ تفعل؟».

(*) نشرت بمجلة سخن ، ١٥ (١٣٣٤هـ.ش/١٩٦٥م).

- «لا شيء».

- «هل أنت مرهق؟».

لم أحرِ جوابًا. كان أخي يجلس أمامي، وكان الشعر بدأ ينبت فوق شفتيه، وعيناه ... كأنهم زرعوا الخوف في عينيه. سألته:

- «وأنت، ماذا تفعل؟».

- «لا شيء».

لم أقل شيئًا لأختي. كان كل منا يكتفي بالنظر الى الآخر، في برود وصمت، كعاشقين بلا أمل، نظر كل منا الى الآخر وحسب.

فوق الفرن المدفأة، كان نفس المصباح المستدير القديم لايزال يشتعل، وكانت بضع يراعات تدور حول شعاعه. لم يتغير أي شيء، الأبواب، الجدران، النوافذ، الستائر، عروق السقف، لم يتغير أي شيء. كل ما هنالك أن أمي ازدادت عجافًا، وكانوا زرعوا الخوف في عيني أخي، وأختي ... كانت أختي تجلس كأنها دمية جميلة وقد اتكأت بذقنها على حافة الفرن المدفأة تنظر بعينيها الزجاجيتين الى شعلة المصباح.

قالت لي أمي: «ألم يعد لك لسان في فمك؟» .

- «ماذا أقول؟» .

- «أين كنتَ خلال هذين العامين؟ ماذا كنت تفعل؟» .

- «لا شيء». .

- «أنت مرهق. سأنهض وأعد لك الشاى».

لا، لم يتغير أى شىء؛ الأبواب، الجدران، النوافذ، الستائر، عروق السقف. كل شئ كما كان. كل ما هنالك أنى أظن أن شيئًا قد انكسر فى قلوبنا؟! كسروا شيئًا فى قلوبنا.

كان المصباح يشتعل فوق الفرن المدفأة، ولم تعد اليراعات تدور، التصقت بزيت المصباح، وكان براد الشاى يقرقر وهو يغلى. وكان رأس أختى يتدلى على ركن من الفرن المدفأة كأنه رأس دمية مخلوع. كان الليل يمر بطيئًا، ونحن ننظر الى بعضنا البعض فى حزن صامت.

جوتنجن، ليلة العيد ١٣٤٤هـ (١٩٦٥)

البرج التاريخى (*)

خسرو شاهانى

فى قلب ميدان مدينتنا برج بنى من طين وأجر لا يعرف له على وجه الدقة أصل أو نسب. وما من أحد كان يدرك الفلسفة الكامنة وراء بناء هذا البرج وسط الميدان.

كان ارتفاعه يبلغ خمسة وعشرين أو ستة وعشرين مترًا تقريبًا، وكانت الثقوب بالأجزاء العليا منه تنم عن أنه كان يستخدم فى سالف الزمان لأغراض دفاعية وأن أهل تلك القرية التى خرجت لنا فيما بعد فى صورة مدينة كانوا يستخدمونه فى زمن الحرب مع الأعداء. أما فى زماننا فلم يعد يناسب هذه المهمة.

عندما كان يدب النزاع بين اثنين ويتشاحنان مثلاً كانا يستخدمان برج وسط المدينة فى سبابهم وفحشهم، فينسبانه إلى الأخت والأم. وكان الناس يستشهدون به فى خلافاتهم المالية وغير المالية، فكانوا

(*) من مجموعة وحشت أباد. تهران، امير كبير، ١٩٦٩.

يتركون الكلمة الأخيرة للبرج. وفى أدناه كان ثم ثقب بمثابة باب الدخول إلى البرج. وفى غابر الأزمان كان المحاربون يدخلونه من هذا الثقب ليقاتلوا أعداءهم. أما فى زماننا هذا فصار الثقب يستغل كمدخل لدورة مياه عمومية.

وفى الثقوب التى نخرت فى سالف الزمان بالجدار الداخلى للبرج اتخذت العصافير والحمام أعشاشًا لها. وفى أوان الربيع كان برج مدينتنا بمثابة مأوى للعصافير والحمام تضع فيه بيضها. وفى معظم الأوقات كانت أعشاش بعض الحمام تقع فى أيدى الصبية المتشردين بمدينتنا الخاوية. ومن المزايا الأخرى التى تميز بها هذا البرج أنه كان يعد عنوانًا ومعلَمًا طيبًا يستدل به أهل المدينة والغرباء والوافدون الجدد. ويمكن القول : إن هذا البرج كان جزءًا لا يتجزأ من مدينتنا وكأنه كان من المحتم أن يكون بمدينتنا بكل ارتفاعه وهيبته وسماته. وإن افتقدته لاعترى المدينة النقص. ولعلنا إذ ألفنا رؤيته، كنا نعتبر وجوده بالمدينة قدرًا. لا أدرى. خلاصة القول إنى أظن أنه إن لم يكن بها لكان أمرًا شائنًا. هذا ما أود قوله. فى عصر ذات يوم، رأينا رجلاً بدينًا على وجهه نظارة وله لحية وبصحبته شخصان آخران أو ثلاثة من ذوى الشعر الأشقر والسراويل القصيرة وينتعلون أحذية عسكرية. كان من الواضح أنهم أجانب. وكان كل منهم يحمل على كتفيه منظارًا وحمالة آلة تصوير وحقيبة وأشياء من هذا القبيل، وكانوا يتحركون فى اتجاه محافظ المدينة ورؤساء الإدارات ووقفوا بجوار البرج.

وضع الرجل الملتحي البدين يديه على جنبيه ونظر لبرهة إلى جسم البرج وتأمل ارتفاعه، ثم خلع نظارته ثم أعادها وأدخل رأسه في الثقب السفلي للبرج الذي سبق أن ذكرنا أنه كان بابًا لمرحاض عمومي، ثم أخرج رأسه ووضع منديلاً على أنفه، ثم قال شيئًا لرفاقه كأنه ينبههم لشيء. ثم وضعوا القائم والحمالة على الأرض وبدأوا في تصوير البرج وقياسه وتقدير قيمته.

حين بلغ الخبر الأهالي بأن عدداً من الأجانب والمسئولين وكبار رجال المدينة جاءوا لرؤية البرج، هرعوا إلى وسط المدينة وتزاحموا فوق بعضهم كأنهم نمل أو جراد. كانوا يريدون أن يكون فخر اكتشاف مجاهل البرج من نصيبهم قبل أن يكون من نصيب السادة الرؤساء والوفد الأجنبي، في حين أننا ظللنا نرى البرج سنين ومر بجواره ولم تكن تحدونا رغبة حتى للنظر إليه. أما اليوم فقد حلّت رؤيته والفرجة عليه وكأن معجزة حلّت به. وما أن رفع الرجل البدين ذو النظارة واللحية - والذي فهمنا فيما بعد أنه رئيس هذه البعثة الآثارية وقائدها وكانوا ينادونه بلقب «بروفسر» - عينيه ناظراً إلى البرج، كانت رءوسنا تشرئب معه بلا إرادة لننظر إلى شرفة البرج الطينية الناتئة. وحين خفض رأسه خفضنا رءوسنا أيضًا وبصورة جماعية. يلتفت البروفسر برأسه ليقول شيئًا لرفاقه أو ليسأل عن شيء، فتلتفت رءوسنا معه لا إراديًا لنرى أين يتجه بناظريه. كان يضع يديه على ركبتيه وينحني لينظر بجانب وجهه إلى أعلى ليرى البرج من زاوية خاصة، فنفعل مثله وكأننا صرنا مرآة حية له. أما حين كان البروفسر يدنو من البرج ويلمس جداره الخارجي

فلم نكن نتمكن من فعل ذلك، إذ حال بيننا وبينه عدد من المكلفين بالأمن ومنع الحوادث المحتملة حسب ما تقتضى هذه الأمور.

وما أن غادر البروفسر ورفاقه المكان دنونا من البرج وتحسسنا بأيدينا المواضع التى مد البروفسر يده إليها، فأدركنا كل ما أدرك بلمساته.

ظل البروفسر ورفاقه يلتقطون الصور للبرج لبعض الوقت. وفى تلك الأثناء لم نقف مكتوفى الأيدى؛ بل أخذنا فى مناقشة عظمة البرج وسبب ورود الوفد الأجنبى وتاريخ بناء البرج.

قال أحدنا إن «كترا» اكتشف هذا البرج. وقال آخر : إن دارا الملك عندما فر أمام الإسكندر، دفن كنزاً تحت تراب هذا البرج فى طريق فراره. وقال ثالث : إن هذا البرج بناه أحد الأئمة الأطهار، وأمن عدد بأن حضرة الإمام مدفون تحت هذا البرج وأن هذا البروفسر ذا اللحية رأى الإمام فى منام بأوروبا وجاء الآن للتحقق من الأمر، وغير ذلك كثير. إلا أن معظم أحاديثنا ومناقشاتنا كانت تدور حول وجود كنز تحت البرج.

أنهى البروفسر ورفاقه عملهم ومضوا وبقينا، وبقيت معنا حفنة من الشائعات أدت بعدد من الناس إلى دخول البرج منذ منتصف تلك الليلة وما تلاها، وحفروا أسفل البرج بحثًا عن الكنز. وبلغ الأمر أن وضع مسئولو المدينة عدداً من الحراس حول البرج بغية الحفاظ عليه من معاول الباحثين عن الكنز. ومر ما يقرب من شهر منذ أتى البروفسر وأحداث زيارته. وذات يوم رأينا عدداً من الإعلانات مذيلة بتوقيع حضرة

السيد المحافظ ملصقة على أبواب المدينة وجدرانها. وكان فحوى الإعلان على ما أذكر كما يلي:

«إلى أهالي المحافظة الغيورين ...

لما كان الحفاظ على الآثار القديمة التي هي مبعث فخارنا بالماضي واجبًا على كل فرد منا، رأت إدارة المحافظة ضرورة توجيه الدعوة لبعثة آثارية دولية، إذ تأكد في الزيارة التي تمت بتاريخ ... لبرج وسط المدينة أن هذا البرج من مفاخر أجدادنا الأقدمين. ويرجع تاريخ بنائه إلى عهد النبي دانيال. فوجب علينا فردًا فردًا أن نبذل جهدنا للحفاظ على برج الافتخار وعلى جلاله. ومن بين ما تقرر تم فتح بمصرف ... حساب رقم ... ودعوة أهالي المدينة الأعزاء الشرفاء لإيداع ما تيسر من المال بالحساب المذكور بغرض ترميم مبنى برج الافتخار وتجديده.»

ومنذ ذلك اليوم تغيرت نظرتنا إلى البرج، فحفظنا حرمته، فلم نعد نحيله في شجارنا إلى أمهاتنا وأخواتنا ولا نستخدمه بديلاً عن المرحاض. فإذا ما حطت على نوافذه حمامة أو غراب أو عصفور، كنا نبعده بالتصفيق وإلقاء الحجارة والطواقي في الهواء خشية أن تأتي تلك الطيور بفعل خارج عن حدود الأدب فوق برجنا. وحين بلغت درجات غيرتنا مبلغها، أودع كل منا قدرًا من المال بالحساب المفتوح بهدف ترميم برج الافتخار.

عندما كنا نمر بالبرج، كنا ننظر إليه ثم إلى أنفسنا بغرور وكبرياء. كان كل من يفد إلى مدينتنا نصحبه ونطوف به حول قاعدة برج

الافتخار. وحين كنا نسافر إلى مدن أخرى ونرى الناس فيها بلا برج افتخار، كنا نزداد انتفاخًا ونعتبر مدينتهم ضئيلة خلواً من التاريخ ونوبخهم بصورة غير مباشرة ونباهي بتفوقنا عليهم وما إلى ذلك.

بدأ ترميم البرج منذ بداية جمع أموال الشرفاء والوطنيين، إلا أن حصيلة المال كانت قليلة. لم يكن التقصير من جانبنا؛ إذ أودعنا بالحساب المصرفي مالاً جمًا، وإنما كانت تكاليف الترميم باهظة.

وذات يوم رأينا إعلانًا آخر ملصقًا على أبواب المدينة وجدرانها. وبعد مقدمة تحمل نفس معنى الإعلان الأول، تضمن الإعلان الجديد أنه لما كانت مسألة ترميم البرج باهظة التكاليف، تقرر بموافقة مجلس المدينة والمحافظة بدءًا من اليوم إضافة ريالين إلى سعر السكر القوالب وريالين إلى سعر السكر المبلور وثلاثة ريالات لكيلو الخبز وأربعة ريالات لكل لتر من الكيروسين والبنزين، على أن يتم إنفاق العائد على ترميم برج الافتخار والحفاظ عليه. ولا شك أن هذه الزيادة في الأسعار مؤقتة ثم تعود الأسعار إلى ما كانت عليه بمجرد الانتهاء من أعمال ترميم البرج.

لم يكن لنا حيلة إذ كان الأمر يتعلق بالحفاظ على برج الافتخار بكل ما يمثله من شرف لنا وكرامة. ومن ناحية أخرى لم يكن يصح أن تنفق الحكومة على البرج من مالها بينما نحظى نحن بالافتخار. فلا أبصرت عيوننا ولا استحققنا الحياة إن لم ننفق عليه من حر مالنا ونصنه، و«الغاوى ينقط بطاقيته». وفى اليوم التالى، ذهبنا نشترى لحمًا

فوجدنا الجزار الخسيس أضاف إلى ثمن الكيلو ثلاثة تومانات. سألناه: لم رفعتَ السعر؟ فإعلان ترميم البرج نص على رفع السكر والخبز والكيروسين والبنزين ولم يرد به ذكر اللحم. قال: أكنتم تتوقعون أن أشترى الخبز والسكر والشاى والكيروسين بالسعر الأعلى وأبيعكم اللحم رخيصًا؟! أتظنونى رهن إشارة من عيونكم؟!

رأينا الحق فى كلام الجزار. ومن ناحية أخرى فإذا ما انخفضت أسعار السلع التى تحتكرها الدولة لأصيبت عملية ترميم برج الافتخار بالشلل.

ارتفعت بنفس النسبة أسعار سائر السلع والإيجارات وتذكرة الأتوبيس والسفر وسائر الخدمات. أما معدلات دخلنا فظلت على ما كانت عليه. الفارق الوحيد الذى ميزنا أن سهمًا من مفاخر البرج صار من نصيبنا.

تمت عملية ترميم برج الافتخار وتأسست إدارة جديدة لبرج الافتخار بمدينتنا بإشراف مديرى تلك الإدارة وموظفيها. وتم تأسيس مكتب وتشكلت لجنة، وكان على كل من يود زيارة برج الافتخار أن يدفع تومانين.

وذات يوم وجدنا أن كل مسافر من المدينة أو وافد إليها عليه أن يدفع خمسة تومانات ويتسلم إيصالاً. بأعلى الإيصال رسمت صورة لبرج الافتخار، وكتبت تحت الصورة العبارة التالية:

«من أجل ترميم برج الافتخار».

ما معنى هذا؟ صار البرج وبالاً علينا . ولكن لم يكن ثم مفر؛ فما كان ينبغي للحكومة أن تنفق على الإدارة العامة لمفاخر الدولة بتنظيماتها وعرباتها وموظفيها؛ فالبرج لنا والفخر لنا، فهل يكون المال من الدولة؟! كل طموح له حدود!.

ذاع صيت برج افتخارنا في كل مكان؛ فكان الناس يتوافدون إلى مدينتنا زمراً من شتى المدن لزيارة البرج ثم يرحلون. ولم يكن هذا التردد على المدينة خلواً من ميزات لنا؛ إذ ارتفعت أسعار فنادق مدينتنا وتجار مدينتنا «ضربوا في العالي» كما يقال؛ فكانوا يبيعون سلعهم بما يحلو لهم من أثمان. وعندما كنا نبدي اعتراضًا كانوا يقولون: لا تشتر إن شئت. وكانوا عندهم حق؛ فلم نكن نشتري. كان زوار البرج هم من يشتري. وشيئًا فشيئًا أحسسنا أن هذا البرج جلب علينا المتاعب والقلق، ولكن في المقابل، كان كثيرون يتمنون لو كان هذا البرج في مدنهم.

وذات يوم شاع في المدينة أن البرج هبط ومال بمقدار أربعة أصابع. تعالوا على الفور وقوموه! جميل! بعد كل هذا التعب يخرب البرج!.

ظللنا نذهب ثلاث مرات أو أربع يوميًا لزيارة البرج . وكنا نتجرع الحسرات على اعوجاجه، وكنا نبحث عن وسيلة ما. وحين بلغت أحزاننا مبلغًا أتت من المركز لجنة آثارية للكشف على البرج؛ فأكدت أنه إذا

لم نجد حلاً، فإن البرج لابد سينهار. وأتى خبير وقدم تقديراً لنفقات جديدة لإصلاح برج الافتخار، وشكلت لجنة منبثقة عن لجنة، والناس في قلق وترقب وخوف على برج افتخارهم، إلى أن رأينا ذات يوم واحداً من الإعلانات إياها ملصقًا على أبواب المدينة وجدرانها، فحواه أنه بغرض الحيلولة دون انهيار برج الافتخار، على الأهالي الأبرار ممن تزيد مساحة بيوتهم عن خمسين متراً أن يدفعوا عشرين ريالاً إضافية عن كل متر كعوائد شهرية، وأن القرار موجود نصه بمكتب السيد المحافظ، ويعاقب المخالفون عقابًا مشدداً.

... لم يكن هذا مزاحًا؛ فهذا برج الافتخار ورثناه عن أجدادنا. عظيم جداً؛ عمره التاريخي يبلغ عدة قرون، ولكن ما ذنبنا نحن إذ تصيبنا كل يوم من آثار أجدادنا المعمارية مصيبة؟! كان ينبغي على من أقاموا هذا البرج قبل موتهم أن يبنوا حديقة، أملاكًا، طاحونة، قناة، أي شيء ويجعلونه وقفًا على البرج حتى لا ينغصوا حياة أحفادهم دون جرم اقترفوه. من أين لنا بثلاثمائة تومان أو أربعمائة شهرياً ندفعها ضريبة لبرج الافتخار؟! هل نطبع النقود؟ أو هل «أكلنا كبد طائر السعد»؟ تجمعنا وتقدم عدد منا إلى مبنى المحافظة في تظاهرة نهتف بأننا لا نملك مالاً ندفعه ولا نريد فخار هذا البرج، تركناه لكم!.

لم يردوا في ذلك اليوم. مجرد وعد بإعادة النظر في القرار. ولكن في الغد سمعنا أن عدداً منا احتجزوا وأخذ على المخالفين تعهد بألا يخالفوا مرة أخرى، فذهب الباقون ودفعوا برضاهم وبرغبتهم ضريبة ستة أشهر مقدماً. كل شيء صعب في البداية، ولكن بمجرد البدء فإن

المرء يتعود؛ فكما تعودنا من قبل على شراء السلع بأسعار أعلى، نتعود أيضًا على دفع ضريبة البرج، إلا أن الطبيعة بدت كما لو كانت تحالفت ضدنا. إذ أصاب مدينتنا زلزال فى نفس تلك الأوقات الحرجة. وبالإضافة إلى انهيار عدد من البيوت، حدثت تصدعات بالمنطقة الوسطى من برج افتخارنا.

بناء على دعوة من المسئولين، تم استدعاء لجنة آثارية لمعاينة برج افتخارنا وتقدير ميزانية لترميمه. وكنا من جانبنا أعددنا أنفسنا لدفع عوائد أعلى وضرائب جديدة. وصلت اللجنة، وبعد شهر من الدراسة، أعلنت اللجنة أن هذا البرج ليس البرج الذى شيد فى زمن النبى دانيال وأن عمره لا يزيد عن سبعين سنة أو ثمانين، ولا مجال لأن يكون برج الافتخار. كان ذلك الآثارى والمستشرق الأوربى (الرجل البدين الملتحى ذو النظارة) تشابهت عليه الأبراج. أما البرج المقصود الذى كانت اللجنة تنقب عنه فموجود بمدينة الظلمات. ولعل علماء الآثار مشغولون حاليًا بكشف محتمل لبرج الافتخار بتلك المدينة ... كأن ماء باردًا صب على رءوسنا؛ فقد البرج عزته وهيبته. وجمعت الإدارة والتنظيمات والمكتب متاعها وكل متعلقات البرج ورحلت، وعاد ببرج افتخارنا سيرته الأولى؛ فصار مأوى للكلاب الضالة ومرحاضًا عموميًا، وفى وقت الشجار أيضًا صار مرجعًا للطرفين فى السباب، وازدادت التصدعات فى وسطه يومًا بعد يوم وازداد ميلاً، وعادت العصافير والحمام تتخذ من ثقب ماسورة جداره الداخلى والخارجى أعشاشًا لها. ومع ذلك لم تلغ العوائد والضرائب التى فرضت؛ فبقيت بنفس معدلاتها ولانزال ندفعها، وبقيت

الأسعار الحكومية وغير الحكومية التى رفعت فى سبيل البرج على حالها، ولانزال لا ندرى هل وفق علماء الآثار والمستشرقون فى كشف برج الافتخار بمدينة الظلمات أم لا.

دفن الميت

خسرو شاهانی

كان يومًا من أيام الخريف الجميلة، وكنت أهوى السير على قدميّ المسافة بين بيتي ومحل عملي. قطعت شارعًا أو شارعين وأنا أمشي الهوينا، وحين بلغت منتصف الشارع الثالث، رأيت جمعًا من الناس يحملون على أكتفهم نعشًا متخذين وجهتهم صوب المدافن وهم يرددون : «لا إله إلا الله».

من ظاهر النعش وحاملي الميت كان يبدو أن المرحوم لم يكن ذا حيثية؛ فلم يكن ثمة نسوة يتشحن بالسواد حزنًا عليه ولا رجال على رءوسهم قبعات وبأيديهم مناديل، ولا نعش تزينه الورود ولا عربة يزينها شريط دائرى، ولا موسيقى ولا شيء من هذا القبيل. كان ثم صبى على كتفه عباءة وشال أخضر يتقدم الجنازة ويتلو أشعارًا يقطعها من آن لآخر ليقول: «ارفعوا أصواتكم بلا إله إلا الله»، وأربعة أشخاص اثنان منهم حفاة الأقدام وآخر بلا حذاء، تقطعت أنفاسهم تحت النعش، وخمسة أو ستة أشخاص آخرين يمشون خلف النعش ويأمرون القارئ

الذى يتقدم الجنازة بمواصلة التلاوة. وبعد كل عدة أقدام يتشهدون على روح المرحوم.

حسب ما أمر الشرع، مشيت سبعة أقدام فى الجنازة. وفى خلال هذه الأقدام السبعة قرأت الفاتحة أيضًا وطلبت للميت المغفرة وهممت بالعودة، ولكن لا أدرى أية قوة غامضة شدتنى وراء النعش وكأن أحدًا كان يهمس لى فى أذنى قائلاً:

«شيل النعش ... كله بثوابه ... شيل النعش ... كله بثوابه ... شيل بأه!».

كلما كنت أهيب بنفسى أن أعود أدراجى وأمضى لحال سبيلى، كانت قدماى تنجذبان دون إرادة وراء هؤلاء الناس ونعشهم. أسرعت الخطى قليلاً حتى اقتربت من النعش لكى أحمل ركنًا منه. ولكنى رأيت شخصًا منهكًا تحت وطأة النعش وسمعته ينهنه، فتراجعت قدماى واطمأنت نفسى إلى أنى لا قبل لى بحمل النعوش. إلا أن قلبى لم يطعنى وظلت نفس القوة الخفية تهمس فى أذنى:

«ياللا بأه شيل! ... ساعد ... يبقى لك الثواب!».

سألت أحد المشيعين الأربعة أو الخمسة الذين كانوا يمشون فى الجنازة عن صلتهم بالمرحوم فقالوا: «مفيش صلة!».

... لم يكن للمسكين أحد فى هذه الدنيا، لا زوجة ولا ولد، لا أخ ولا أخت، ولا أهل ولا قريب. قمنا بهذا الأمر من باب الثواب، ماذا نفعل؟!

مهما كان من أمره فهو فى النهاية عبد من عباد الله ومسلم، ومن واجب المسلم أن يعين أخاه فى الدين. وهذا مسلم مات بلا حول ولا قوة.

رأيت ألا مجال للتردد والحيرة. فأسرعت الخطو ودنوت من أحد الشخصين حاملي الطرف الخلفى من النعش، أدخلت كتفى تحت النعش وتبدل الحال.

لما كانت قامة الرجل الذى كان يحمل الطرف المقابل من النعش أطول من قامتى اختل التوازن وانتقل ثقل المرحوم بكل ضغطه إلى كتفي.

مشيت عدة خطوات ثم أدركت فداحة الخطأ الذى رسمت به خططى. تهدجت أنفاسى وأخذ كتفي يتحرك من مكانه.

كانت التعاسة تكمن فى أننى فى بادئ الأمر لم أسأل أحداً من هؤلاء المؤمنين الأتقياء ممن كانوا يمشون فى الجنازة لوجه الله عما إذا كان المرحوم رجلاً أم امرأة أم طفلاً، كم كان يبلغ من العمر وكم كان وزنه. وهكذا وضعت بدنى الواهن دون إدراك أو تقدير تحت ثقل المرحوم البدين الذى لم أكن أعرفه.

شيئًا فشيئًا تفتحت مسام جسدى من شدة الألم والإنهاك، فتصبب العرق من فتحة قميصى. وبعد مائتى متر لم أجد أحداً من المؤمنين الذين يمشون وراء النعش كأنهم أدوا واجبهم وأن واجبى أن أحمل الميت وأوصله سليمًا معافى إلى قبره. انشغلوا بالحديث عن انخفاض

أثمان الأراضى وارتفاع إيجارات البيوت وشيك السيد أسد الذى كان بدون رصيد.

انزلق طرف النعش قليلاً من فوق كتفى مرة أخرى عن غير قصد منى، فأمسكت به فى الوقت المناسب وقررت أن أنجو بنفسى من تحت النعش وأفر هارباً، إلا أنى رأيت أن ليس من الإسلام فى شىء أن تتكسر ذراعا الميت وساقاه فى آخر لحظاته، فضلاً عن حرمانه من الأهل والأقارب. وما يدرينى أن العدالة لن تمسك بتلابيبى بتهمة قتله!.

فى النهاية، وقرب المدافن، جاء أحد المشيعين كان يمشى فى الخلف وخلصنى. استرددت أنفاسى ودلكت كتفى وهممت أن أعود من حيث أتيت، فلم يدعونى وقالوا: مادمت وصلت إلى هنا فعليك أن تكمل بقية المسافة وإلا لاحقتك عين الميت.

يا رب! ماذا أفعل؟! لدىّ عمل أنجزه ولى حياتى الخاصة. فلأذهب، ولكن كيف أذهب؟ وماذا أفعل فى عين الميت إن لاحقتنى؟ عاد نفس الصوت اللعين الخفى يردد:

«روح ... اكسب ثواب ... ما ترجعش .. لا لا ... روح ... الميت عينه عليك ... انت مسلم، الخير يقعد لك، ايه عرّفك؟ يمكن الحاجات الصغيرة دى تشفع لك فى الآخرة!».

وظل يهتف ويهتف إلى أن استسلمت.

وصلنا إلى المدافن. وأدينا بالمراسم المبدئية للدفن، وعندما هممنا بدفن الجثمان، لم يكن هناك تصريح بدفنه، ولم يكن حارس المدافن

ليوافق على دفن ميت بدون تصريح دفن. فاتجه أحد المشيعين الأربعة أو الخمسة إلىّ قائلاً: «يا سيد (لم يكونوا يعرفون اسمى حتى ذلك الوقت) يهيأ لى أنك إذا ذهبت أنت ستصل إلى نتيجة أسرع من أى منا. فهيئتك توحى بأن حضرتك «إدارجى»، وسيفهمون كلامك بسرعة» .

أردت أن أقول إن لدىّ عملاً، علاوة على أنى لا أعرف. عادت نفس القوة الخفية تهمس فى أذنى: «روح ... اكسب ثواب ... ضرورى تقوم بالمهمة دى» .

قلت: «على عينى .... أروح ... المرحوم كان اسمه إيه؟». سيد منير الدين إسحق آبادى عاقبت طلب محمدى بور فردزاده؟! انتو مش قلتو دلوقتى إن الراجل الميت ده مالوش حد؟!» .

نهايته، ذهبت إلى إدارة الوفيات وكتبت تصريح الدفن، ولكن بما أنه كان بلا أقارب، سألنى الموظف المختص بإصدار تصاريح الدفن عن اسم صاحب الميت ليدونه. قلت: «والله أنا ما اعرفش. حضرتك اكتب الاسم اللى يعجبك!» فقال: «ماينفعش، لازم يكون للمرحوم صاحب أو وريث. من غير دول مش ممكن إصدار تصريح دفن. وانت ايه علاقتك بالمرحوم؟» .

قلت: «اى علاقة تحسبها» .

ضاق صدر ذلك اللئيم موظف تصاريح الدفن فمزق الورقة التى كان كتبها وقال بعصبية: «احتفظ بخشبة حضرتك على الأرض لحد الجثة ما تعفن.» قلت: «ليه العصبية دى يا سيد؟! ده مش نعش أبويا.

هل ارتكبت جريمة إنى مشيت سبع خطوات ورا النعش حسب أمر الشرع؟!».

قال: «ما تكتّرش فى الكلام! عاوزنى أحرر تصريح الدفن باسمك؟» .

نظرت إليه شذراً وقلت: «وتحرره باسمى ليه؟!» .

قال: «قصدى اكتب اسمك باعتبارك صاحب الميت» .

قلت: «وبعدين معاك يا أستاذ؟! ...» .

قال: «مفيش بعدين، كل حاجة لها أصول ... والا إيه؟!» .

لم أجد مفراً. كانت جثة الرجل، ذلك العبد من عباد الله، باقية دون داعٍ على حافة القبر وعينه على الطريق. قلت: «اكتب اللى انت عاوزه.» فدون اسمى فى الورقة باعتبارى وريث الميت وصاحبه وسلمها لى. أقلتنى عربة الأجرة مرة أخرى إلى المدافن ودفنت الجثة. ونظراً لأن المرحوم كان بلا أهل ولم يكن مشيعوه يملكون سوى بعض عواطف وأحاسيس إنسانية وشعور دينى، أخذوا منى سبعين تومانًا أو ثمانين هى كل ما كنت أملك وأعطوها للمغسل والتربى وساقى القبر وموزع التمر وخياط الأكفان وما إلى ذلك. ومشينا باتجاه المدينة. وفى الطريق تحدثنا عن سجايا المرحوم ومحاسنه وغربته، وتبادلنا الأحزان ولعنّا الدنيا وغدرها وبصقنا عليها. وبما أن المرحوم كان بلا أهل وعينه على الدنيا، تقرر أن نذهب إلى بيتى لنقيم للمرحوم سرادقًا لتلاوة الروضة، فيتم لنا الثواب ويكتمل.

فى الطريق اصطحبنا مقرئًا ومضينا جميعًا إلى دارى. شربنا الشاى والقهوة وأقمنا سرادقًا مشرفًا لختمة المرحوم، ثم مضى الناس كلٌ إلى سبيله، وعدت أنا إلى حياتى المعتادة.

بعد عشرة أيام من تلك الواقعة أو خمسة عشر، لا أدرى، عدت ظهر يوم إلى بيتى فوجدت رجلاً يربو على الأربعين بثلاث سنوات أو أربع، وامرأة فى نفس السن وخمسة أطفال صغار وكبار، جلسوا متحلقين بالغرفة يأكلون البطيخ. سلمت وانطلقت المرأة بالدعاء لى بأن ينعم الله علىّ بالخير. إلهى يجعل التراب فى يدك ذهبًا! نوّر الله قبره، أنجب ابنًا وترك فى الدنيا ذكرى منه. نحن ممنونون للغاية. عوض الله عليك فنحن لا نملك ما نعوضك به» وما إلى ذلك.

لا أعرف حتى الآن ما الأمر، ومن هؤلاء الناس! لذا أخذت أنحنى وأعتدل وأرد التحية قائلاً: «ممنون جداً. متشكر. أبداً أبداً! لم أفعل شيئًا! أقصد ... الآن ... نعم ... بكل سرور. العفو يا هانم ...».

نهايته، تبين أن هذه السيدة ذات العباءة شقيقة المرحوم الذى انتهى أمره منذ اثنى عشر يوماً. وهذا الأفندى زوج شقيقة ذلك المرحوم. وجاءا ويصحبتهما الأولاد لزيارتى، ولكن من أين جاءوا بعنوانى؟ لا أعلم. لعلهم حصلوا عليه من أحد أولئك الأربعة أو الخمسة المؤمنين الذين كانوا يمشون فى الجنازة.

لا أطيل عليكم؛ تناولنا الغذاء وقمت على خدمتهم فى العشاء والنوم. وفى صباح اليوم التالى ومبكرًا جداً، وجدت ساعى البريد على

الباب ومعه برقية لى من الأهواز. فتحت البرقية. بعد العنوان المفصل للبيت كتب ما يلى:

«السيد فلان. سنصل مع الأولاد فى قطار الثامنة مساءً. انتظرنا. سيد سبحان الدين» .

ما معنى هذا؟ فى أثناء حديثى مع نفسى ومع الأولاد بأنى لا أعرف أحداً يدعى سيد سبحان الدين هبت شقيقة المرحوم سيد منير الدين من مكانها واتجهت فى حبور لم أر مثله على وجه أحد من قبل فى حياتى إلى زوجها عريض القفا الذى كان منهمكًا فى التهام طعام الإفطار هنيئًا مريئًا بإذن الله وقالت:

- «سيد مجتبى ... ده تلغراف من سيد سبحان الدين!» .

« ... ؟! »

ألقيت نظرة إلى وجه شقيقة المرحوم تغمده الله برحمته وهى فى سرورها وقلت:

- «كيف كان ذلك يا هانم؟» .

قالت: «مفيش ... ده سيد سبحان الدين بتاعنا ... جاى!» .

قلت: «آه ... ما أنا عارف أنه جاى ... لكن إيه شأن حضرته؟» .

قاطعتنى قائلة: «أخو المرحوم منير الدين» ثم نهضت واختطفت البرقية من يدى.

- «دى لىّ، مش كده؟!» .

فى الظهيرة، عدت إلى البيت ولم أكد أمر من الممر إلى داخل الفناء حتى هرعت إلىّ ابنة أخت المرحوم سيد منير الدين - وهى طفلة لطيفة في السادسة أو السابعة من عمرها - وقالت: «خالى حبيبى، خالى حبيبى (هذا أنا)، عمى سيد سبحان الدين ومرات عمى وخديجة وكلثوم وزفت الطين ورجب وفاطى جم!» .

شببت بقدمىّ على الدرج بداخل الفناء ووقفت على أطراف قدمىّ وألقيت نظرة من بعيد خلل نافذة الحجرة المطلة على الفناء ... لا ... هذا صحيح! جاء عمى سيد سبحان الدين وامرأة عمى وأولاده من الأهواز.

وضعت كيس العنب والبطيخة على جانب من الغرفة ودخلت. فنهض سيد سبحان الدين من على الأرض وهو ما شاء الله بدين وتحت جلده وفرة من الشحوم. جذبنى من قفاى وقبلنى وقبلته. ومرة أخرى بدأت كلمات الشكر من جانبه والرد المتواضع من جانبى. لا أطيل عليكم، كانت لدىّ شوربة خضار ولكن كانت الشوربة لا تروق لمزاج سيد سبحان الدين، إذ كانت «تنفخ» بطنه. فأرسلت فى طلب عشر بيضات طازجة أو اثنتى عشرة وصنعت عجة وقدمتها لسيد سبحان الدين.

ولما كان «الأفندى» غريبًا فى طهران ولا مكان له فيها، «تفضل» بقضاء الليل فى دارى. وكان أولاد سيد مجتبى رأوا أولاد عمهم بعد فراق طويل، اشتاقوا لقضاء الليلة أيضًا فى بيتى ليلعبوا مع أولاد عمهم.

وفى صباح الغد وفى أثناء تناول الإفطار، التفت سيد سبحان الدين إلى سيد مجتبى زوج أخته وقال: «يمكن يكون سيد نصر الدين لا قدر الله تاه فى العنوان وهو جاى!» .

بلا إرادة منى، دارت رأسى فوق رقبتى وتجمدت نظراتى فى عيون سيد سبحان الدين وقلت بصوت يقطر توسلاً

- «عنوان ايه يا سيد؟!» .

قال ببرود: «أبدًا ... عنوان بيتك!» .

قلت: «هو فيه تانى؟!» .

قال: «سيد نصر الدين مننا!» .

قلت: «عارف ولكن ...» .

قاطعنى سيد مجتبى وقال: «ده عديلى فى مدينة شاهرود».

قلت: «هل تقرر أنه هيشرف؟ ...» .

قال سيد سبحان الدين: «نعم؛ بعتّ له برقية قبل ما أتحرك من الأهواز بتلات أيام واديته عنوانك. لكن يمكن يكون تاه لا قدر الله ...»

وبابتسامة كريهة نفذت إلى لب عظامى أضاف: «مدينتكم كبيرة أوى والاستدلال على عنوان فيها مسألة صعبة».

قلت: «لا، العنوان مباشر يا سيد وليس صعبًا». ولم أكد أنهى عبارتى ويتردد رجع صوتى تحت سقف الغرفة حتى رن الجرس. فتحت

الباب. عرفت من سحنة الطارق أنه السيد القادم من شاهرود. لف سيد نصر الدين يده حول رقبتى فى ردهة الباب وأخذ يقبلنى وكأنهم - قصم الله ظهورهم - تعلموا فنون المصافحة والعناق فى كتّاب واحد.

دخل سيد نصر الدين وأم العيال وعددهم ثلاثة إلى الغرفة وتجددت الذكريات ... وأنا أمام هؤلاء الناس الأوفياء لا حيلة لى سوى الترحيب. بدأت مرة أخرى المجاملات الحديث عن سجايا المرحوم الأخلاقية وعظمته. ومر أسبوع على قدوم ضيوفى، وفاض النعيم علىّ فى جوارهم. وفى ظهر أحد الأيام وبعد الغداء، قال سيد سبحان الدين حفظه الله:

- «والله يا سيدنا فلان نحن ممنونون لكل ما تحملت من متاعب من أجل المرحوم.وطوال الأيام التى قضيناها عندك، ولكن لدينا أعمال. فأوضح طلباتك حتى نعود إلى بيوتنا وحياتنا فى أقرب فرصة».

نظرت إلى السيد وقلت: «أية طلبات يا سيد؟» .

قال: «توليت أمر الميت على كل حال».

قلت: توليت أمر ميتكم رحمة على روح أبى وقبره. ولم أفعل سوى أنى مشيت سبع خطوات فى الجنازة حسب أوامر الشرع».

قالوا: «المرحوم كان يمتلك الكثير».

قلت: «وما شأنى؟! زاده الله من نعمه!».

قالوا: «بحثنا فوجدنا اسمك بتصريح الدفن أمام خانة الوريث وصاحب الميت. وتم تسجيله بالدفتر، وكتبنا التماسًا بالأمس. هل يصح يا سيد فلان أن تأكل مال القصَّر بهذه البساطة؟! أموال المرحوم تأول لهؤلاء الصغار لا لك. لا يرضى الله أن تطمع في ميراث وثروة حفنة من الصغار!».

أدركت أن القضية أكثر جدية مما كنت أظن. فأخذت أتضرع: «يا سيد! أقسم بالله وبكذا وبكذا إني لا أعرف شيئًا عما تقولون. أنا لم أر المرحوم في حياتي؛ لا أعلم أين كان بيته؛ لم أفعل سوى أن حملت نعشه على رقبتي - ليتها انكسرت، ولم أفعل غير ذلك. لو كان المرحوم يملك شيئًا فلابد أن أكله أولئك الأربعة أو الخمسة من المؤمنين الذين حضروا تشييع الجنازة وأعطوكم عنواني».

لا أصدع رءوسكم، خلال شهرين كاملين جرني هؤلاء الثلاثة إلى المحكمة وقسم الشرطة وإدارة الوفيات وإدارة الإحصاء والتعداد وإدارة ضرائب التركات وديوان الدولة وديوان الحكومة وديوان بلغ وإدارة الأموال بلا صاحب وبيت المغسل وإلى كل مكان يخطر ببالكم. وفي النهاية، وبعد أن توسلت وأقسمت الأيمان، ضقت ذرعًا فكتبت إشهارًا ووقعته باسمي ونشرته بالصحف ودفعت أجره من جيبي ونصه أني لا تربطني بالميت أية صلة أو قرابة ولم أر أمواله. فوافقوا على أن يأخذوا ما تيسر مني ويصفحوا عني.

والآن بعد أن رحلوا وتخلصت روحي من قبضتهم، لم تتركني إدارة ضرائب التركات حيث قالوا:

- «عليك أن تدفع مبلغًا سنويًا كضرائب عن التركة التى آلت إليك عن المرحـوم المغـفـور له سـيـد منيـر الدين إسـحق آبادى عـافـيت طلب مـحمدى بور فردزاده» أظلم الله قبره ...

- ما العمل؟!.

حكاية السمكات الثلاث

من كليلة ودمنة الجديدة

علي محمد اويسى

قال دمنة: يحكى أنه كانت هناك بحيرة عن الطريق بعيدة وعن أعين المارة مستورة؛ وكانت مفتوحة على الماء الجارى، وتعيش فيها ثلاث سمكات عجيبة تسمى إحداها "عاقل" والأخرى "حازم" والثالثة "عاجز". وفى موسم الربيع، مر بتلك البحيرة بعض الصيادين. وبقضاء الله عرفوا بوجود هذه السمكات الثلاث فى ذلك الغدير، فضربوا فيما بينهم موعداً وأسرعوا لإحضار الشباك. وعلمت السمكات الثلاث بهذه الواقعة وباتت فى حيرة من أمرها. وحين حل الليل، جاء عاقل الذى كان يتحلى بقدر من الحزم أكبر، ولما كان رأى من إحن الزمان الكثير واكتسب من الحنكة القدر الوفير، فكر فى حيلة للخلاص من شباك الصيادين. وبدون أن يتشاور مع رفيقيه، خرج من الفتحة التى تصل بين البحيرة والماء الجارى. وفى صباح اليوم التالى، جاء الصيادون وسدوا جانبى البحيرة بإحكام. وكانت السمكة حازم تتحلى بزينة العقل ولكن لم يكن لها نصيب

من الحنكة والتجربة؛ وحين رأت ذلك، ندمت على أنها لم تفكر فى الحيلة التى تقول بضرورة علاج الواقعة قبل وقوعها. والآن وقد فاتت فرصة الهرب فقد حان وقت المكر والحيلة. فاصطنعت الموت وطفت على سطح البحيرة، فظن أحد الصيادين أنها ماتت، فأخذها وألقى بها فى الصحراء، فألقت بنفسها فى جدول ونجت بحياتها. أما السمكة الثالثة التى تسمى عاجز، فظلت فى حيرة ودهشة وتردد، تفر إلى اليمين والى اليسار ومن أعلى إلى أسفل، إلى أن وقعت فى شباك الصيادين.

الثلوج والكلاب والغربان(*)

جمال ميرصادقى

صباح اليوم عاد المطر يهطل من جديد؛ كالأمس، كذلك اليوم الذى هبطت فيه الملائكة الصغيرة البيضاء من السماء هادئة غامضة وبنفس الهدوء الذى كست فيه آنذاك أسطح البيوت والقرميد وسقف تلك الحجرة الجانبية واستقرت على الأغصان والأسطح وعلى الأرض.

كسحوا الثلج صباح اليوم من فوق الأسطح، لكن الثلوج لاتزال باقية فوق سقف الحجرة الجانبية. لم يكسحها أحد ولا أحد يكسحها، لم يبق وقت طويل حتى تهبط الثلوج من فوقها. تظل الثلوج على حالها إلى أن تذوب قطرة بقطرة تحت نور الشمس وتنزل بصوت حزين من الميازيب. ولكن فى تلك الأوقات كانوا يكسحون الثلوج من فوقها.

كان «محمود أفندى» يضع السلم الخشبى ويصعد فوقه بتمكن كأنه يصعد درجًا عاديًا، وكانت الست توران تقف أسفل السلم الخشبى عند باب الحجرة وتنظر بعينين مفتوحتين قلقتين وتقول:

(*) من مجموعة مسافرهاى شب ، رز، تهران، ط٢: ١٣٥٤ (ط١: ١٣٤١).

«يا محمود يا حبيبى ... الجو برد أوى ... انزل لتاخد برد ...»

وكان محمود أفندى يضحك ويطلق يديه وينثر الثلوج. وكانت الست توران تلف عباءتها حول جسدها بإحكام وتقول من أسفل السلم الخشبى:

«هتاخد برد يا محمود ... الدنيا برد أوى، لتاخد برد ....»

وأحيانًا كنتُ أدور حول الحوض وأذهب إلى حجرتهما التى كانت تقع بركن من الفناء. وكان محمود أفندى يرفعنى بذراعيه ثم يرمى بى فى الهواء ويقول:

«ده ابنى ... الواد الحلو ده ابنى ...». وكلما كان محمود أفندى يسافر بالركاب ولا يعود إلى البيت لعدة ليالٍ كانت الست توران تأخذنى إلى غرفتهما وتجلسنى على ركبتها وتحكى لى حدوتة. أما الآن فحجرتهما امتلأت بالكراكيب والمخلفات وأجولة الفحم الناعم. وعندما تحطمت عدة موائد ومقاعد فى عرس أخى الأكبر ألقوا بها فيها.

ليلة عرس أخى الأكبر، كنت جالسًا بجانب الست توران بجوار النافذة أشاهد الرجال وهم يزينون باب الفناء وجدرانه. ومرت ثلاثة أشهر أو أربعة منذ أن جاءوا بخبر مفاده أن محمود أفندى لن يعود من سفره. فى ذلك اليوم خلعت أمى الثياب السوداء عن بدن الست توران بشق الأنفس. بدت الست توران فى ثوبها المنقوش بالورود كعروس جميلة. جلست بجانبها وكانت تقشر اللب وتضعه فى فمى. منذ أن سافر

محمود أفندى ولم يعد كانت تأخذنى فى حضنها بالليل وتنام. وفى أوقات العصر بعد أن تعود من المصنع، كانت تأخذنى معها إلى الحجرة وتعطينى الكاكا والفستق الشامى والنبق والمشمش المجفف.

ومنذ أن ارتدت السواد كانت تذهب بالنهار إلى المصنع وتنظف الصوف. أراد أبى ألا يدعها تذهب إلى المصنع ولكنها لم ترض. كانت تصحو مبكراً فى الصباح وتوقد سماور الشاى ثم تذهب إلى المصنع دون أن تشرب منه.

بينما كانت الست توران تقشر اللب لى كانت تنظر إلى الرجال فى الفناء. كانت تنظر إليهم كما ينظر الحواة إلى الكوب حين يضعونه فوق جباههم، كأن شيئًا كان فوق جبهتها.

ثم نهضت الست توران من جانب النافذة وأوصدتها قائلة:

- الدنيا برد أوى ...

ولم يكن الجو بارداً.

قلت:

- أنتِ بردانة يا تورى؟

أخذت رأسى بين ذراعيها ولعبت فى شعرى وقالت:

- لا يا حبيب قلبى، مش بردانة ...

تذكرت ليلة أمس حين أخذت تلعب فى شعر رأسى بنفس الطريقة، كانت تريد أن تحكى لى حدوتة.

قالت:

- تعالى نروح جنب اللمبة وأحكى لك.

جلسنا بجوار الكلُبّ. كان الكلُبّ يصدر صوتًا كأنه طائر كبير، ومن رتينته التى كانت كبيضة طائر ذهبى كان يشع النور.

كررت الست توران قولها:

- إيه البرد ده ...

واقتربت من الكلُبّ، ولكن كانت كأنها لا توجه كلامها إلىّ. قلت لها:

- قولى بأه، احكى الحدوتة.

قربت كفيها من الكلبّ وحكت الحدوتة. وبينما كانت شفتاها تحكيان كانت عيناها تنظران إلى المصباح، كأن الشفاه كانت تكلمنى والعيون تكلم المصباح وتحكى. وكلماتها كانت تخرج من بين شفتيها بطيئة متتالية كأنها مربوطة ببعضها البعض. كأن كلماتها مربوطة ببعضها البعض بخيط. أخذت تحكى. كان فى صوتها بحة، وكان هادئًا، كصوت عربة ترتقى جبلاً.

- ... المرة دى لما سافر ابن الملك وقع م العربية. وقع فى الوادى م العربية اللى وقفت على بوزها ...

سألتها:

- وقع فى الوادى؟ إزاى؟

عربية ابن الملك راحت ناحية الوادى ... ابن الملك وقع فى الوادى ومات.

قلت:

- وعربية ابن الملك راحت ناحية الوادى ليه؟ وابن الملك مات ليه؟

- مات ليه؟ ...

نظرت إلىّ الست توران وتوقفت عن الكلام.

التصقت أصابعها بأسلاك الكلبّ وتسمرت عيناها على نوره. ولكن كأنها لم تكن تراه؛ صارت كالست توران التى كانت تلف نفسها فى عباءتها وتقف عند باب الحجرة أسفل السلم الخشبى وتقول فى قلق:

«يا محمود يا حبيبى ... الجو برد أوى ... انزل لتاخد برد ....».

حينها وبينما كانت تنظر إلى الضوء ارتفع سواد عينيها وتاه وراء جفنيها، وفى بياض عينيها الذى كان كبيضة عصفور صعد خط أبيض لامع وأخذ يومض كالنار وسالت قطرات الدموع على وجهها. اقتربت منها وقلت:

- ما تبكيش يا تورى يا حبيبتى ... ما تبكيش.

مسحت وجهها بيديها وقالت:

لا يا حبيبي. أنا ما ببكيش. ما ببكيش.

دخل أبى الحجرة فجأة وبدون مقدمات. جرت الست توران طرحتها فوق رأسها ونظرت إلى الأرض. لكن نظرتها كمن يعلق شيئًا فوق جبهته وينظر إليه. ارتفع نفس الخط الأبيض اللامع من بياض عينيها وسبلت عينيها. ظننت أنها تهم بالبكاء، دنوت منها. واقترب أبى منا مبتسمًا وقال:

– يا سلام يا ست توران، يا ست الستات، أحسن أنك قلعتى الهدوم السودة. لحد إمتى يا بنتى الواحد يفضل حزين. وأنت ما شاء الله ما شاء الله لسة شابة. شايفة، والله ما عاد فاضل فيكى حاجة. بقيتى جلد على عضم. ساعت ما قلت لك ما تروحيش المصنع زى اللى مالهمش أهل واقعدى فى البيت واتستتى ما سمعتيش كلامى ...

ابيضّ وجه الست توران. لفتت رأسها وسبلت عينيها. ومرة واحدة بردت يدى التى كانت فى يدها وصارت كالثلج، كأنى غمرت يدى فى ماء مثلج. نظرت إليها. كانت عيناها مغمضتين، ويداها اللتان كانتا تمسكا بأصابعى تهتزان كقلب عصفور. التصقت بها. كان جسمها باردًا كالثلج. أخرج أبى قطعة عملة من جيبه وقال:

– اجرى يا جعفر اشتريلى علبتين سجاير وتعالى. وخد الباقى لك. ياللا اجرى ... لسة ما جيتش؟ ...

عندمـا همـمت بسـحب يدى من بين يدى الست توران تشـبـثت أصابعها بيدى كأنها التصقت بها. كان ظهرها للمصباح وكانت تنظر إلى الحائط.

غداة ذلك اليوم ذهبت الست توران إلى المصنع، وذهبت اليوم الذى بعده أيضًا. ظلت تذهب لسبعة أيام أخر وتنظف الصوف؛ ولم تذهب بعدها وبقيت عندنا بالبيت ...

***

فـرحت أمى بأن الست توران لم تعـد تذهب إلى المصنع وبقـيت بالبيت. إذ كانت تترك البيت وتذهب حيثما شاءت مطمئنة على كل شيء. وفى الظهيرة أو فى المساء حين تعود، تجد كل شيء على ما يرام. كانت تجد الست توران أعدت الغداء وغسلت الصحون وكنست البيت ومسحته وتزينت كباقـة ورد. لذا كـانت ترعى خـاطر الست توران للغـاية وتثنى دائمًا على حسن طبعها وشطارتها وكانت توليها كل إعزاز واحترام.

وأتى حين كـانت تحمل أحـمد الصـغير وتذهب إلى شـميـران عند أخى الأكبر وتظل عنده لمدة عشرين يومًا وهى مطمئنة، أو كانت تحمل متاعها وتتجه إلى طالقان لزيارة خالتى تاركة شئون البيت والعيش فى عـهـدة الست توران. حـينئـذ كنت أنا والست توران وأبى نبـقى بالبـيت وحدنا.

وذات يوم فى العصر وأنا عائد من المدرسة إلى البيت وجدت الست توران عـارية وتهم بالنزول إلى الحوض. كـانت أمى ضـيفـة على خـالتى عصمت منذ عدة أيام.

لفت الست توران جسمها بعباءتها وقالت لى:

– ادخل يا حبيب قلبى الأوضة دقيقة واحدة لحد ما آخد حمّام وأطلع.

قلت:

– أنا كمان هاجى يا تورى، أنا كمان عاوز أنزل الحوض.

ثم شرعتُ فى خلع ثيابى بكل شوق. ضحكت الست توران وأزاحت عباءتها عن رأسها ورمت بها فوق أغصان الصفصافة. صارت عارية تمامًا، كأمى حين تتعرى فى الحمّام. جسمها كان فى بياض اللبن. نظرت؛ جسمها كان يومض كأطباق الصينى الجديدة وكان يعكس الشمس كالمرآة. بدا لى أنى لو رميتها بحجر لتكسرت كالزجاج ولتفتت على الأرض.

حين رأتنى الست توران أحدق فيها ضحكت وقالت:

– اختشى يا واد، ما تبصليش كده. اختشى ...

وبينما كانت تضحك أمسكَت بشعرى ورفعَت رأسى ولثمَت عينى. كنت أنظر إلى بطنها التى كانت بارزة كالكرة. أحمد أخى الصغير كلما تناول غداءه كانت بطنه تبرز هكذا. مسحت بيدى عليها؛ كانت كالحجر الأملس.

قلت:

– يا أم كرش؛ أكلتِ لحد ما بطنك اتنفخت، تورى أم كرش ...

رفعتنى على ذراعها وقالت:

– عاوزنى أجيب لك أخت صغيرة حلوة؟

قلت:

– أيوه يا تورى؛ هاتى لى أخت صغيرة حلوة. أنا ماليش أخت.

حينها احتضنتنى وألقت بنفسها مرة واحدة فى الحوض وهى تضحك. التصقت بها من الخوف. لففت ذراعىّ حول جيدها وألصقت رأسى على صدرها وقلت:

– عاوز أطلع. مش عاوز أنزل الحوض. عاوز أخرج ...

وبينما تجعد وجهها من الضحك قالت:

– آه يا عفريت! فاكر لما كنت بتبص لى؟

التصقت بها بشدة وتهدجت أنفاسى. قلت:

– عاوز أطلع. أنا ما كنتش ... بابص ... لك ...

غطستنى فى الماء عدة مرات ثم أخرجتنى. كان الماء باردًا كالثلج. أخذت أبكى. فأنزلتنى بجانب الحوض وقالت:

– اجرى يا حبيبى هات العباية ولف بها نفسك لا تبرد. اجرى واقعد ف الشمس ...

لففت نفسى فى العباءة وعدت إلى جانب الحوض. كانت الست توران تبدو كبطة بيضاء حطت فوق الماء وتهز ساقيها وتقول:

– آه ... آه ...

ولكن يالها من آآآآآآآه ...

كانت تجمع الماء فى فمها ثم تطرده وتقول:

– آآآآآه ... يا ربى حلو اوى ... آآآآآه اد ايه حلو ...

قلت وأنا أرتجف:

– أنا ... عاوز ... أنزل ... الحوض ... عاوز ...

لم يكن طلع حين نادتنى أمى. لم أكن أريد أن أبرح مكانى. قلت:

– عايز أنام. أنا لسه كابس علىّ النوم ...

همست أمى فى أذنى:

– مش عاوز تبقى راجلنا؟ خلاص، قوم بأه ...

لم أكن أتجاوز الثامنة أو التاسعة حينذاك. ولكنى كنت أعتبر نفسى رجلاً. فنهضت وفركت عينىّ. بالأمس حين أردت أن أنام قالت لى أمى:

– عاوز تبقى راجلى ونروح الصبح ضريح شاه عبدالعظيم؟

قلت: أيوه عاوز أبقى راجلك، وهروح شاه عبدالعظيم ...

قالت أمى: يبقى لما أصحيك الصبح تقوم بسرعة، ها ...

كان بيتنا قريباً من محطة العربات ذات المداخن. فى معظم الأحيان كان أبى يسافر فى الصباح الباكر مع أمى للزيارة ثم يعودان. كنت جالساً فوق حشية. كنت أريد أن أتعذر. كان النوم لايزال يراودنى. قالت أمى:

– أنت مش عاوز تبقى راجلى؟ يبقى قوم بأه ...

قلت: لو ما رحناش هنام ...

فتح أخى الصغير أحمد عينيه. كانت عيناه ملؤهما النوم. أخذ يحدق فينا. وحين أرادت أمى أن تضعه فى فراشه مرة أخرى نهض وقال: أنا كمان جاى معاكم، أنا كمان جاى.

قالت أمى:

– نام يا مضروب ، إحنا مش رايحين أى حتة.

قام أحمد وقال: أنا كمان عاوز أجى.

قالت أمى: إحنا رايحين الحمّام الشعبى. نام بأه عشان أديلك عشرة شاهى.

بدأ أحمد فى البكاء: آجى معاكم الحمّام. مش عاوز انام.

قالت أمى: إحنا رايحين للدكتور ... لو جيت هاقول له يديك حقنة.

بكى أحمد بصوت أعلى وقال: ها ... أنا عاوز آجى ... ها.

قالت أمى: هس جتك موتة، ربنا ياخدك . أنا عارفة آخرتها، ها تصحّوه.

كان أبى مستغرقًا فى النوم. كان يغط فى نومه. ارتديت أنا وأمى ملابسنا ومعاطفنا ومشينا باتجاه باب الحارة. كان صراخ أحمد قد اشتد. عند باب الحارة وفوق الثلج كانت دادة سكينة فى انتظارنا.

كانت دادة سكينة عجوز نحيفة لدرجة الهزال. كانت تغسل الثياب فى دارنا فى معظم الأحيان. وفى ليالى الجمعة، كانت النسوة من جاراتنا يتجمعن فى دارنا لترقيهم. كانت قصيرة القد وكانت حين تمشى تنحنى وتؤرجح ذراعيها إلى الأمام وإلى الخلف كبندول الساعة وتسير بخطا واسعة كالطائر وتنظر إلى الأرض، كأنها كانت تخشى أن تتعثر. منذ أن سافرت الست توران زاد ترددها على بيتنا لمساعدة أمى.

... فى عصر ذات يوم عدت من المدرسة فوجدت كل شيء تغير. كانت حجرة الست توران خالية تمامًا. حزنت بشدة. وفى غداة ذلك اليوم لم أذهب إلى المدرسة. أصابتنى حمة ولم أبرح البيت. قالوا لى إن الست توران سافرت وسرعان ما تعود، لكن الست توران لم تعد إلى دارنا بعد ذلك قط. وفى تلك الأيام لم يفتنى أحد؛ ملأ الشجار بيتنا

ولا حديث إلا عن الطلاق والتطليق ... كانت أمى تتشاجر مع أبى ليل نهار. لم يتول رعايتى سوى دادة سكينة وكانت تحكى لى الحكايات، لكن حكاياتها لم تكن كحكايات الست توران. كانت كلها بلا طعم.

وذات يوم فى الصباح، خرج أبى وأمى معًا من البيت. وفى الظهيرة حين عادا كانت أمى فى غاية الفرح. ما أن دخلت قالت لدادة سكينة: «طلّقها ...». وحين مضت أمى إلى غرفتها هزت دادة سكينة رأسها وقالت: «مسكينة ... مسكينة».

أما أبى فكان غارقًا فى عرقه، وكانت عيناه حمراوين كالدم . اندفع إلى غرفة الجلوس وأوصد بابها على نفسه ولم يبرحها لعدة أيام. كان يقرأ القرآن فى الغرفة ويبكى. ومنذ ذلك اليوم عادت أمى للخروج للزيارات. كانت تحمل أحمد الصغير وتمضى إلى خالتى عصمت أو أخى الأكبر وتنزل ضيفة على أحدهم لعشرة أيام أو عشرين. وفى تلك الفترة كانت دادة سكينة تتولى شؤون البيت.

لفت دادة سكينة عباءتها السوداء حولها ومشت كحدأة سوداء ضخمة فوق الثلج. كان الثلج بدأ منذ ليلة أول أمس. وبالأمس أخذ يهطل حينًا ويتوقف حينًا، كأن هناك من جلس فى السماء وأخذ يحل كرات الثلج ويبدرها. وكلما تعب يمسك يده ثم يعود من جديد بعد أن يزول عنه التعب.

همهمت دادة سكينة قائلة: «جاييباه معاكى ليه؟ يبرد. ويوجع دراعك كمان. وساعتها ما يبقاش حلو يا ماما ...

قاطعتها أمى وقالت:

– غصب عني. اللى ما يوعى صحى زى الجن وقعد يعيط. خفت يصحى الحاج ...

– لو الحاج صحى ولقى كله خرج مش يمكن يفكر كده والا كده؟

قالت أمى:

– انهارده الجمعة والحاج بيفضل نايم لحد الضهر.

كانت الحارات خالية من الناس. وكان الثلج كبساط أبيض ناعم يفترش الأرض، وكان تحت قدميّ يخشخش كخشب جاف يحترق فى النار. وفى الخلاء بنهاية الطريق تجمعت الغربان وأخذت تنقر فى الثلج. كانت تبدو سعيدة. ليلة أمس كانت أمى تقول: «ده تلج الغربان».

قالت أمى:

– طبعًا عرفتى إنها اتنيلت ولدت؟

سأل أحمد:

– مين اللى اتنيلت ولدت؟

قلت:

– جتها نيلة ما كانتش قادرة تمسك نفسها؟ أحمد كمان ما بيقدرش يمسك نفسه.

قالت دادة سكينة:

- أيوه، ليلة أول إمبارح جت البيت وقالت ...

قال أحمد:

- أنت اللى ما بتقدرش ... أنت اللى ما بتقدرش ...

قالت أمى:

- ما قلتش حاجة تانى؟

قالت دادة سكينة:

- قالت إنها بتستنى ورا الباب اننا نخبط فتفتح ...

سأل أحمد:

- مين اللى بتستنى ورا الباب؟

قلت:

- وأنت مالك يا حشرى؟

قالت أمى:

- ما سألتيش جابت ايه؟

قالت دادة سكينة:

- زى ما الحاج كان عايز، بنت.

قالت أمى:

- الحاج؟ انشا الله أشوف جتته مرمية على طاولة المغسِّل عشان كل اللى أنا فيه ده منه.

همست دادة سكينة:

- هس س س س س ...

كأنها تبسمل.

قالت أمى:

- ياللا نمد شوية أحسن النهار بدأ يطلع.

طأطأت دادة سكينة رأسها وقالت:

- الدنيا برد أوى.

قال أحمد:

- أنا مش بردان.

قلت:

- ده أنت بتترعش.

قال أحمد:

- أنا مش بترعش، ها.

قالت أمي:

- بس!

كنت أنا وأحمد نمشي ومن ورائنا دادة سكينة وأمي. كان الثلج يغوص تحت أقدامنا كالقطن وكانت آثار أقدامنا تبقى عليه. كان أحمد كلما خطا خطوتين يلتفت وراءه وينظر إلى أثر قدميه ويضحك سعيداً. كان في معطفه الأبيض يبدو كجرو سمين يقفز هنا وهناك مرحًا. كانت أنفاسه تتهدج وكفاه ووجهه في احمرار الدم.

قلت:

- ماما، أحمد تلَّج ...

قالت أمي:

- كانت تتعمى عينه ولا يجيش.

قال أحمد:

- أنا ما تلِّجتش، ما تلِّجتش.

قالت أمي:

- لسه كتير؟

أجابت دادة سكينة:

خلاص وصلنا ... آخر الشارع ده.

قال أحمد:

- إيه اللى ف آخر الشارع ده؟ أنا مش هروح للدكتور، ها .

قلت:

- ماما، إحنا مش رايحين ضريح شاه عبدالعظيم ...

قالت أمى:

- أيوه، الأول هنروح بيت دادة سكينة تجيب بقجتها وبعدين نروح شاه عبدالعظيم.

قال أحمد:

- ونروح بيت دادة سكينة ليه؟ أنا مش هاجى بيت دادة سكينة، أنا عاوز آجى شاه عبدالعظيم.

قلت:

- كانت تتعمى عينك ولا تجيش.

قالت أمى:

- ياللا نمد شوية ... النهار قرّب يطلع.

قالت دادة سكينة:

- قالت هتكون ورا الباب مستنية نخبّط .

قال أحمد:

– مين اللى هتكون مستنية؟

قالت أمى:

– أنتِ عارفة، مش لازم أى حد يعرف.

قالت دادة سكينة:

– أيوه، وصيتها أنها ما تسيبش حتى تكّته تتسمع.

قلت:

– ماما، تكة إيه اللى تتسمع؟

قال أحمد:

– تكة إيه اللى بتتسمع؟

قلت:

– وأنت مالك يا حشرى؟ الحشرى بيروح النار ...

قلت أمى:

– المسألة كلها دقيقة، وبعدها مش هاقلق على حاجة.

قالت دادة سكينة:

– ولو ما ادتهولناش نعمل ايه؟

قالت أمي:

– ما ادتهولناش ...؟ تقدر؟ ده اتفاق. ناخده منها ولو بالعافية ...

قالت دادة سكينة:

– ساعتها يبقى زى ما قلتى ليلة امبارح؟

قالت أمي:

– أيوه، انتى لسه بتسألى ...

قالت دادة سكينة:

– طيب وهتقولى ايه للحاج؟

قالت أمي:

– الحاج؟ الحاج ساعة ما يفهم هينبسط؛ بناقص بُق مفتوح ...

قالت دادة سكينة:

– لكن يا حبيبتى ... لكن ...

قالت أمي:

– لكن إيه ...؟

قالت دادة سكينة:

- إيه البـرد ده يا بنتي، لكن افـرضـى ... الكلاب ... لكن لكن ... مش حرام؟

قالت أمي:

- إيه اللى حرّمه، ده ابن حرام أصلاً ...

قال أحمد:

- مين اللى ابن حرام؟

قالت دادة سكينة:

- لكن يا بنتى ... لكن ...

صرخت أمى:

- بس أنتى كمان ...

طأطأت دادة سكينة رأسها وقالت:

- إيه البرد ده ...

قال أحمد:

- أنا مش بردان خالص.

قلت:

- أنت كداب. ده أنت بردان بردان ...

قال أحمد:

– مش بردان.

قلت:

– عمّال تترعش زى الكلب.

قال أحمد:

– مش باترعش. مش باترعش.

قالت أمى:

– بس!

حين بلغنا نهاية الشارع دخلنا حارة، ثم دخلنا حارة أخرى، ثم حارة ثم حارة أخرى، وظللنا ندخل من حارة لحارة. حارات ضيقة ومعتمة تؤدى كل منها لأخرى، والبيوت الآجرية كانت تتعاقب وتدور حول بعضها كحبات المسبحة.

كانت دادة سكينة تتقدمنا بعدة خطوات. كنت أفتح ذراعىّ وأمسك بطرفى الحارة ولا أدع أحمد يتقدمنى.

أخيرًا توقفت دادة سكينة أمام باب بيت عريض وقصير وطرقت على الباب بهدوء. فتحت الباب عجوز بدينة بيضاء. كانت عيناها تومضان فى وجهها كعينى قطة، وكان فكها يرتعش بشدة، كأن فى فمها شيئًا تمضغه. أشارت لأمى ولدادة سكينة.

همست لى أمى فى أذنى:

- جعفر يا حبيبى، تقدر تخلى بالك من أحمد لحد ما أدخل دقيقة وأرجع؟ ولما اروح السوق هاشترى لك شنطة كبيرة و حلوة ...

قلت:

- ما بتشتريش. أنتى بتضحكى علىّ.

قالت أمى:

- ورحمة أبوك لاشترى لك. أنت بس خلى بالك من أخوك. فهمت؟

قلت:

- وأنتى داخلة جوة تعملى ايه؟

قالت أمى:

- ولا حاجة، هندخل بس ودادة سكينة تجيب بقجتها ونخرج ونمشى ...

ثم همست فى أذن أحمد بكلمات. فتهلل وجه أحمد وقال:

- ماشى، مش هقول لأى حد، لكن تشترى لى ها!

ودخلنا البيت وجلست أنا وأحمد متواجهين على مصطبة باب البيت. قال أحمد وهو يضحك:

- عارف، ماما قالت هتشترى لى عربية بمدخنـــة ... وقالـــت لى ما تقولش لحد. ثم ضحك مرة أخرى. وبعد قليل نفد صبرى وقلت:

- أحمد، تيجى تلعب استغماية؟

قال:

- إزاى؟

أنت تقعد ع المصطبة دى وتغمى عينيك وأنا أروح استخبا.

قال أحمد:

- لأ، مش عايز. لو عاوز سبنى هنا وروح أنت.

قلت:

- مـاشى، مش عـاوز تلعب بـلاش ... لو عـاوز روح أنت اسـتـخـبـا وأقعد أنا هنا.

قال أحمد:

- ماشى، أنا أروح استخبا وأنت غمى عينيك.

أغمضت عينىَّ كذبًا وقلت:

- روحى يا رحاية، تعالى يا رحـاية، لينطحِك الديب ويـخش براسه فى قلبك. استخبيت؟ استخبيت؟

عدا أحمد ليختبئ، ونزلت درج البيت بهدوء ودخلت الفناء. لم يكن بالفناء أحد. كان فناء رحبًا خربًا، على جوانبه عدد من الغرف الصغيرة. ومن داخل بعض الغرف ينبعث ضوء خافت. وزكمت أنفى رائحة مقززة. وأخذت أتلصص حتى أرى بأى الغرف دخلت أمى ودادة سكينة. لم أدرك شيئًا. خفت أن أتقدم، فوقفت في مكانى عند باب الحارة أسفل الدرج وأخذت أنظر إلى الغرف. وفجأة وقعت عيناى على طابق سفلى على الجانب الآخر من الفناء ووجدت أمى ودادة سكينة تصعدان منه بسرعة ومن ورائهما العجوز. كانت عباءة دادة سكينة تبرز بحجم بقجة. وحين بلغن وسط الفناء صعدت من الطابق السفلى يدان بيضاوان كجناحى حمامة وتشبثتا بالثلج العالق بأرضية الفناء، وأطل من ورائهما وجه امرأة. كان وجه المرأة شديد البياض، بلون ثلج الفناء. وبدت عيناها كثقبين مظلمين وسط بياض وجهها. وكان فمها فاغرًا، كمن تريد أن تقول «آآآآآآ ...»زحفت يداها إلى الأمام وصعدت فوق الثلج إلى صدرها ورفعت رأسها ونظرت فى الناحية التى كانت أمى ودادة سكينة آتيتين منها ورفعت يديها البيضاوين الهزيلتين فى الهواء إليهما كمن تريد أن تستغيث بهما، كأنها تريد أن تأخذ شيئًا من أحد. وكان فمها يقول «آآآآآ ...» ويتصاعد منه بخار أبيض. وفجأة بدا لى إن هذه المرأة كانت الست توران، لكن الست توران لم تكن بهذه النحافة. وحين أردت أن أتقدم وأنظر إليها تراجعت المرأة وهى تلوح بيديها فى الهواء وثدياها الكبيران الأبيضان برزا من قميصها وسقطا على الثلج وشعرها الكثيف الفاحم يفترش الأرض الثلجية. انزلقت وسقطت إلى

أسفل وغاصت رأسها فى الطابق السفلى. وظلت يداها تلوحان فى الهواء وفاها فاغراً وكانت تقول «ااااااا ..» والبخار يتصاعد منه.

***

حين ابتعدنا عن ذلك البيت، توقفت دادة سكينة ونظرت إلى البقجة التى كانت تتأبط وقالت:

– نعمل فيها إيه دلوقت؟

قالت أمى:

– لسه بتسألى هنعمل فيها إيه؟ قلت لك م الأول إن ...

لم تستطع أمى أن تكمل كلامها وكأن فى فمها لقمة. قالت دادة سكينة:

– انا ماقدرش ... والله ... لكن يا بنتى ... لكن الكلاب ... الغربان ...

أصبح صوتها كالبوق. وفى الخلاء، على جانبى الطريق، كانت الكلاب تجرى هنا وهناك على الثلج وتتشمم وتتابع رءوس الغربان. وكانت الغربان جالسة فوق الجدران وعلى الأرض فرادى. كانت تغرس مناقيرها فى الثلج وترمقنا بعيونها الصغيرة السوداء.

قلت:

– ماما، ليه ده اسمه تلج الغربان؟

قالت أمى:

- أنتى هتمشى والا لأ؟

قالت دادة سكينة:

- أنا خايفة إن حد ... أنا يا بنتى ... أنا ... خايفة ...

صار صوتها كصوت البوق تماماً.

قال أحمد:

- أنا مابخافش.

قلت:

- ده أنت بتخاف م الغولة.

قالت أمى:

- مدوا بأه. الولية دى طلعت روحى. أنتى عاوزة الشمس تطلع وكل الناس يشوفونا؟ ...

قال أحمد:

- أنا ما بخافش م الغولة. مابخافش.

قالت دادة سكينة:

- ماقدرش ... آخرتها يا بنتى ... بس ...

صرخت أمي:

- آخرتها كله هيصب على دماغي. ياللا روحي ورا الأكوام دي ...

قالت دادة سكينة:

- ماقدرش ... روحي أنتي ... يا ستي أنا ماقدرش، قلبي مقبوض ...

قال أحمد:

- ماتقدريش ايه؟

قلت:

- أنا أقدر اعمل كل حاجة، أنا راجل، راجل بصحيح ...

قال أحمد:

- أنا كمان اقدر! أنا كمان راجل.

قلت:

- آه ياخويا! أنت راجل!

قالت أمي:

- وآخرتها ، مش عايزة تروحي؟

قال أحمد:

- ماليش دعوة، أنا راجل ها!

قالت دادة سكينة:

- أنا ما اروحش يا ست، أخاف، أنا اخاف.

صار صوتها كالصفارة.

قال أحمد:

- أنا مابخافش. أنا راجل.

قلت:

- ده أنت بتخاف تخرج بالليل، لازم حد ييجى معاك.

قال أحمد:

- أنت كمان بالليل حد بييجى معاك.

قالت أمي:

- وآخرتها، هتروحى والا لأ؟ الشمس قربت تطلع ...

قالت دادة سكينة:

- يا ويلى يا ربى!

كانت يداها ترتعشان تحت العباءة وترعشان العباءة فتبدو كالمروحة.

قلت:

- تروح فين يا ماما؟ ...

قالت أمى:

- جتك ستين نيلة ... هاتيه ... أنا كنت عارفة م الأول إنك مش قدها.

فتحت دادة سكينة عباءتها وأعطت لأمى لفة بيضاء طويلة. وحين همت أمى أن تتناولها من فوق ذراع دادة سكينة انحسر طرف اللفة وظهرت تحتها دائرتان سوداوان براقتان تهتزان كحبتى عنب ياقوتيتين. لكن أمى أسرعت وطوت اللفة تحت عباءتها وقالت:

- اقفوا هنا لحد ماجى.

قلت:

- راحة فين ...؟ أنا جاى معاكى.

قال أحمد:

- أنا كمان آجى ... هاعيط.

قالت أمى وهى تبتعد:

- اقفوا دقيقة واحدة وراجعة حالاً ... وإلا مش هاشترى لكم اللى قلت لكم عليه ...

أضاءت الدنيا، ولكن لم يكن هناك أحد. كانت الكلاب تعدو هنا وهناك فوق الثلج وكانت الغربان تطير فوق الجدران وفوق الثلج. وكانت

الكلاب تتشمم الثلج، والغربان تنقر فى الثلج، كأنها تنهش قطعًا من جسد ثلجى. وراء أمى مشى كلبان يتشممان الثلج. كانت السماء صارت كوعاء دم.

حين عادت أمى توقف الهواء وعادت السماء تمطر ثلجًا.

سرنا صامتين. ثم قالت أمى وهى مطأطئة رأسها تحدق فى الثلج:

– إيه البرد ده!

قال أحمد الذى حملته دادة سكينة على كتفها:

– أنا مش بردان، أنا مش بردان ...

قلت:

– أنت عمّال تترعش زى الكلب.

قال أحمد:

– أنا مش بترعش، أنت اللى عمال تترعش زى الشعرة.

قلت:

– قول بتترعش زى الشجرة.

قال أحمد:

– أنت بتترعش، أنت بتترعش.

قلت:

- أنا مش بترعش. أنا مش بردان خالص.

قالت أمي وهي تحدق في الثلج:

- إيه البرد ده ...

صار صوتها كصوت البوق ...

ثم مضينا كلنا لزيارة شاه عبدالعظيم.

البئر

جمال مير صادقى

يستيقظان على صوت طرقات الباب. خليل ينظر إلى امرأته. عينا امرأته الواسعتان السوداوان تضطربان وشفتاها تتساءلان:

«من؟!»

الغرفة دافئة وشبه مظلمة، ومن النافذة، خط باهت من الضوء يشع إلى الداخل. ومن وراء زجاج النافذة، تبدو السماء ملبدة ببعض الغيوم؛ الجو مضطرب.

طرقات شديدة على الباب. الزوجة تنهض فى عجلة من جانبه وتبحث عن عباءتها. خليل ينهض من مكانه:

«سأذهب أنا» .

يلقى معطفه على كتفيه ويخرج من الغرفة. الجو بارد. الثلج يكسو الفناء بارتفاع شبر.

«من؟» .

يجيبه الصوت من وراء الباب:

«افتح يابن عمى».

الثلج كأنه حفنة عظام مهشمة تتكسر تحت قدميه، وأنفاسه الباردة تلتف حول ساقيه. يسحب المزلاج فيظهر وجه إبراهيم الشاحب من فتحة الباب.

«ماذا جرى يابن عمى؟».

«سقط أحدهم فى البئر».

«من؟» .

«لا أدرى يابن عمى. فى الصباح حين خرجت أم العيال سمعت أنينه، وجئت لأرى إن كان لديك حبل».

«حبل؟ لدينا حبل بئرنا. حللته منه منذ جف ماؤه. دعنى أذهب لأرى أين وضعته».

صوت امرأته يأتيه من خلفه:

«أنا أعرف مكانه. اصبر دقيقة يابن عمى. سأذهب وآتيك به».

أراك الله الخير يابنة عمى».

نعلا الزوجة يسحقان الثلج الصلب البارد وراءها ويقذفان به إلى أعلى. خليل يسأل:

«ألم تفهم ما إذا كان منا أو غريباً» .

«لا أدرى شيئًا يابن عمى. نادينا كثيراً فى داخل البئر وما من مجيب. الأنين يتردد فى جنبات البئر. أنات تمزق نياط القلوب. وإسماعيل يريد أن يهبط البئر».

خليل يلف معطفه حول جسده وينظر إلى أكوام الثلج البيضاء.

إبراهيم يرتعش.

خليل يحدق فى بياض حفنة ثلج. كل شىء تجمد فى عينيه؛ كأن كتلة صلبة ضخمة جثمت فوق كل شىء . خليل يرفع عينيه عن الثلج.

«خيراً يابن عمى؛ لا تقلق».

امرأة خليل تعود. إبراهيم يتناول الحبل من يديها المرتعدتين ويقول:

«رعاكِ الله يابنة عمى» .

ويمضى فى طريقه. صوت خليل يأتيه من ورائه:

«أنا آتٍ معك».

إبراهيم يعود اليه. شحوب شديد يكسو وجهه:

«أطال الله عمرك يابن عمى».

عربة نصف نقل تظهر فى آخر الشارع وتتقدم مسرعة. إبراهيم يتراجع من مكانه ويقفز إلى الرصيف. رجال سمر الوجوه جلسوا فى صندوق العربة بوجوه عابسة ناعسة. رجل ربعة يقود العربة. عربات نصف نقل أخرى تتبعها؛ تأتى مسرعة وتمر أمام عينى خليل. تنحسر أغطية صناديقها ولا صوت يصدر من داخلها. يقودها سائقون حليقو الرءوس أقوياء البنية.

خليل يرتدى ملابسه ويخرج من داره. انسحق الثلج على أرضية الشارع وكساه بريق. العربات اختفت وخلا الطريق وساد الصمت. الغيوم انحسرت بعض الشىء . البيوت لاتزال نائمة.

يقطع الشارع ويصل إلى دار إبراهيم. إبراهيم وامرأته يقفان بجوار بئر الدار ويحاولان أن يربطا الحبل حول خصر إسماعيل.

خليل يتجه إليهما ويدنو من البئر. من داخل البئر تترامى أنات مؤلمة. ينثنى فوق البئر وينادى: «ها».

أنات رقيقة متوجعة تجيبه:

«آه».

إبراهيم يسأل بصوت منقبض:

«من هناك؟».

خليل يحدق ذاهلاً فى البئر ولا يحرى جواباً. إسماعيل يقول:

«لا يستطيع المرء أن يفهم ما إذا كان صوت امرأة أم صوت طفل أم صوت رجل من كثرة الأنين والنحيب».

صوته يتكسر، يسعل ويرفع رأسه ويتجه صوب البئر ويقول:

«لا أستطيع أن أصبر أكثر من ذلك؛ سأهبط البئر، وبعون الله سأنقذ أى عدد من الناس فيه».

يربطون طرف الحبل في جذع شجرة. إسماعيل يمسك بالحبل ويعلق قدميه على جانبى البئر من الداخل ويهبط فى هدوء من فوهته. يعلو صوت خليل المنقبض:

«إسماعيل، احترس» .

صوت إسماعيل يأتيه من داخل البئر فى غرور:

«اطمئن يابن عمى».

ويهبط بمهارة وخفة، وسرعان ما تبتلعه عتمة البئر.

إبراهيم متكئ إلى جذع شجرة؛ وجهه شديد الشحوب؛ امرأته تقف بجواره وقد لفت عباءتها حول جسمها وعيناها ذاهلتان وترتجف.

زغللة بياض الثلج تزداد مع ازدياد سطوع ضوء النهار. عينا خليل تتأذيان من بياض الثلج فتعودان إلى ظلمة البئر، والأنات الصادرة من البئر تطن فى أذنيه.

الحبل يهتز ويتلوى ويهبط ببطء، أصوات تترامى من بعيد. طفل يبكى طالبًا أباه.

الحبل يتوقف عن الحركة؛ نصفه لايزال لم يهبط بعد.

إبراهيم يتجه صوب البئر وينظر بداخله ويقول بصوت مختنق:

«ها هو يصعد».

خليل ينثنى لينظر. ظل قامته يلقى فى البئر. شفتا خليل ترتعشان وكأنه يسأل نفسه:

«لم عاد؟!» .

رأس إسماعيل تطل من فوهة البئر؛ وجهه مبلل بالدموع.

«ماذا جرى يابن عمى؛ ماذا جرى؟» .

إسماعيل يفتح فاه ليقول شيئًا لكن النحيب لا يمهله، يجلس على الثلج بجوار البئر ويعلو نحيبه. إبراهيم يتجه ناحيته ويحل الحبل بهدوء من حول خصره ويربطه حول حصره هو. امرأته تلتصق به:

«لا تنزل ... لا أريدك أن تهبط البئر».

خليل يقول: «دعنى أهبط أنا يابن عمى».

إبراهيم ينحى امرأته جانبًا ويقول:

«لا، أريد أن أهبط بنفسى. هذه ليست أول مرة أنزل البئر يا بن عمى».

امرأته تقول فى ضراعة:

«لا تنزل ... لا تنزل».

يجيب صوت أجش فى عصبية:

«ما معنى هذا يا امرأة؟! ألا تسمعين أنينهم؟! أتقصدين ألا أفعل شيئًا وأن أتركهم فى غيابة البئر؟! أما من رحمة فى قلبك؟».

امرأة إبراهيم ترفع رأسها وتصغى ثم تجثو على ركبتيها بجانب البئر وتتحدر حبات الدموع على وجنتيها. إسماعيل جالس فى صمت كمن ضربته صاعقة، عيناه تحملقان فى الثلج فى ذهول. عينا خليل تحملقان فى الحبل وهو يسحق الثلج على فوهة البئر فى هدوء ويهبط.

يعلو الأنين. كأن جماعة من الناس تعذب فرداً.

أصوات الجيران تترامى من وراء جدران البيوت، وتتردد كلمات «البئر»، «الأنين»، «العربات».

يتوقف الحبل عن الحركة. خليل يجثو بركبتيه بجوار البئر ...

إبراهيم يخرج من البئر وقد ازرق وجهه وأخذ يرتعد. يقف على قدميه بعون من امرأته ويبتعد عن البئر. ولا يكاد يقطع بضع خطوات حتى يتوقف ويدفن رأسه فى كفيه وينثنى على ساقيه كعمود النور.

نحيب شيخ يترامى من دار أخرى.

خليل يرفع رأسه ويصغى. يرى إسماعيل وهو يجلس متكئًا إلى جذع الشجرة فى صمت. إبراهيم يتمدد فوق الثلج فى الفناء وتسكن حركته. امرأته جالسة على حافة البئر تبكى.

خليل ينهض فى تباطؤ ويبتعد عن البئر ويمر صامتًا بجوارهم ويخرج من الدار. عربات نصف النقل تقطع الشارع بصناديقها المغطاة. خليل يقف فى حمى شجرة وينظر إلى العربات. العربات تتقاطر وتقطع الشارع.

أستار نوافذ البيوت على الجانب الآخر من الشارع تنزاح بحذر؛ من ورائها، بضع وجوه كسيرة تنظر بعيون جاحظة ذاهلة إلى الخارج. وفجأة، يعلَق غطاء صندوق إحدى العربات بغصن شجرة وينحسر. يد صغيرة مخضبة بالدماء تخرج من تحت الغطاء.

باب أحد البيوت ينفتح بهدوء، ومن ورائه تطل رأس رجل وتدوى صرخته المعذبة فى جنبات الشارع، ويعلو من ورائه نحيب واهن لامرأة. رأس الرجل تتراجع، وتغلق الباب يدان بيضاوان بضتان.

تتقدم آخر العربات وتقطع الشارع بسرعة لتلحق بالعربات الأخرى. الشارع يغوص فى صمت ثقيل. أستار النوافذ مسُدلة، وأبواب البيوت مغلقة، ولا صوت يُسمع. السماء تختفى وراء الأكداس البيضاء البراقة. الحبات البيضاء تدور وتتراقص أمام عينى خليل ثم تهبط إلى الأرض.

يخلع خليل جسمه من الشجرة ويسير فى تباطؤ، ويقف في وسط الشارع ويحدق فى البقع الحمراء التى لطخت بياض أرض الشارع. تزاحم الحبات البيضاء المتراقصة يغلق عينيه ويغطى البقع الحمراء.

يعبر الشارع ويبلغ داره، يرى امرأته جالسة على حافة البئر تبكى. خيوط الثلج البيضاء تلفه كخيوط عنكبوت.

ربيع ١٩٧٠

من مجموعة «اين سوى تلهاى شن»،

تهران، ١٩٧٤

الخوف

جمال مير صادقى

رفع الرجل رأسه عن الجريدة وتمتم قائلاً:

«كله قتل ومذابح؛ أما من أخبار غير ذلك؟!» .

نظر بحنو إلى طفل صغير يتعلم المشى. انحنت أمه الشابة عليه وكانت تحرص على ألا يقع.

حجرة الانتظار مزدحمة. أطفال صغار وأطفال كبار، يقطعون المكان من هذه الحجرة إلى تلك ويجرّون وراءهم أمهاتهم وآباءهم. نظر الرجل إلى الأطفال وهم يضحكون ويبكون. عاد بناظريه وحدق فى أحد عناوين الجريدة. طوى الجريدة وألقى بها فى وعاء القمامة.

جدار منخفض كان يفصل بين حجرتى الانتظار. وعلى الجدران كان قد ألصق ورق حائط منقوش جميل. وعلى الجدار الفاصل بين الحجرتين، وضع حوض زجاجى صغير تجرى بداخله أسماك صغيرة ملونة وتسبح إلى أعلى وإلى أسفل.

ربت الرجل على شعر ابنته الصغيرة. كانت الطفلة تجلس بجواره محمومة وفى نصف وعيها على مقعد جلدى، تنظر إلى الأطفال.

رنين جرس الهاتف يتردد فى الحجرة. رفعت الفتاة الجالسة وراء مكتبها السماعة وقالت:

«عيادة الأطفال، أية خدمة؟!».

نظر الرجل إلى وجهها المجهد وهى تصغى فى أناة إلى الهاتف، ثم سمع صوتها الرقيق:

«لا خوف عليه يا سيدتى، فالحمى والإسهال منتشران. لا تقلقى على الطفل. أتريدين أن تتحدثى إلى الطبيب؟ ابقى على الخط من فضلك».

نهضت ابنته من مقعدها واتجهت نحو دمية صغيرة جميلة وضعت فوق طاق وراء علبة زجاجية. طفل صغير وقف أمام حوض السمك وكانت أمه تريه الأسماك. التفتت الطفلة ونظرت إليهما ثم اتجهت نحو الحوض. مشى الطفل وأخذ أمه معه إلى الحجرة الأخرى.

نادته ابنته:

«بابا، بابا، تعال انظر إلى هذه السمكة السوداء، كم هى كبيرة!».

ردت الفتاة على هاتف آخر ونادت اسماً. نهضت امرأة شابة معها طفلها الرضيع من مقعد بجوارها ومضت نحو حجرة الطبيب.

«تعال انظر يا أبتِ، كم هى كبيرة!».

نهض الرجل من مكانه ووقف أمام الحوض. رأى سمكة سوداء تقطع الحوض من أوله إلى آخره بسرعة، ثم تدور وتعود. كانت السمكات الصغيرة تفر من أمامها وتغوص بين النباتات المائية وتخرج من الناحية الأخرى. كانت النباتات المائية الخضراء تتحرك مع موج الماء فى هدوء. وفى وسطها صدفة صناعية بيضاء مفتوحة الثغر تطلق من فمها فقاعات مائية. كانت الفقاعات تدور وتصعد نحو سطح الماء ثم تتمحى.

فى ركن من الحوض، كانت هناك سفينة محطمة ملقاة على رمال شفافة فى قاع الحوض. كانت السمكات الصغيرة تدخل من نوافذ السفينة وأبوابها وتخرج. كانت بألوانها القرمزية والبيضاء والسوداء وذيولها الملونة وزعانفها الشفافة اللامعة وقوامها العريض والنحيل تسبح بين النباتات المائية وتصعد إلى أعلى وتهبط إلى أسفل. حلزونات صغيرة كانت تزحف فوق الرمال الملونة وتتلوى فى بعضها البعض.

نظر الرجل إلى سمكة قرمزية صغيرة خرجت كالفراشة من إحدى نوافذ السفينة ببطن قرمزية بارزة وعينين سوداوين لامعتين جاحظتين وذيل أبيض وأحمر، وأخذت تسبح بحركات ناعمة بين النباتات من أعلى إلى أسفل، ثم توقفت ساكنة تحت بقعة ضوء انعكست على سطح الماء وأخذت تفتح فمها الصغير وتغلقه. كان المصباح الكهربائى المعلق فى سقف الحجرة ينثر من حوله ضوءاً أصفر باهتاً.

مضى الرجل نحو النافذة. كان الظلام قد حل بالخارج، وكانت حبات الثلج الصغيرة تهبط على إفريز النافذة. وجاءت ابنته فى أثره:

«تعال يا أبتِ انظر. السمكة السوداء ...».

أمسك بيدها وعاد إلى الحوض. قالت الطفلة بصوت متهدج مضطرب:

«السمكة السوداء تريد أن تلتهم السمكة القرمزية. انظر، ها هما ...»

نظر الرجل إلى السمكة السوداء وهى تسبح بسرعة نحو السمكة القرمزية وتغوص بفمها فى بطنها ثم تعود بنفس السرعة. أصيبت السمكة الصغيرة برجفة حادة وانسحبت بحركات متشنجة وأسرعت نحو القاع.

قال الرجل: «لا يا حبيبتى، هى لا تريد أن تلتهمها. بل هما يلهوان».

حدق الرجل فى الحوض. كانت السمكة السوداء قد عادت وأخذت تقطع الحوض بحركات سريعة. كانت السمكات الصغيرة تفر من أمامها وتغوص بين القواقع. كانت السمكة القرمزية قد وقفت بركن من الحوض. أسرعت السمكة السوداء نحوها وشقت ذيلها الجميل، ثم ابتعدت عنها وهى تحرك طرف فمها. ارتعدت السمكة القرمزية ومضت

فى هلع نحو النباتات، لكن السمكة السوداء أسرعت فى أثرها مرة أخرى.

طفت ذرات الذيل اللامعة نحو سطح الماء. انسحبت السمكة القرمزية بحركات بطيئة صوب السفينة وهى تجر من ورائها أشلاء ذيلها الممزق. كانت السمكات الأخرى تسبح فى أركان الحوض وبين النباتات فى هدوء وهى تفتح أفواهها وتغلقها. وكانت الصدفة البيضاء لاتزال تطلق فقاعاتها الكبيرة نحو سطح الماء.

سرت رعشة فى أعصاب الرجل. وصاحت ابنته:

«آه .. بابا ... اقتلعت عينها».

كانت السمكة السوداء قد ابتعدت وهى تحرك فمها. انفتحت مكان عين السمكة القرمزية السوداء اللامعة حفرة بيضاء. دارت السمكة القرمزية حول نفسها بحركات متشنجة محتضرة، وحملها الموج إلى سطح الماء.

أسرع الرجل وانحنى واحتضن ابنته وقال:

«لا يا حبيبتى، لا، السمكة القرمزية أغمضت عينيها».

امتلأت عينا الطفلة بالدموع. اتجه الرجل نحو النافذة. كان وجه ابنته يحترق بسخونة الحمى. عادت برأسها وحدقت فى الحوض، فأدار الرجل رأسها عنه بحنو وقال:

«انظرى يا صغيرتى، انظرىٰ. عاد الثلج يتساقط من جديد».

كان المصباح لايزال ينثر ضوءه إلى أسفل. كان شعاعه الباهت الأصفر كسائل تجمد فى الفراغ وأخذ يحرق أعصاب الرجل. مر الطفل الصغير الذى كان يتعلم المشى بجواره. شيخ هرم همهم من ورائه ونهض من مكانه وألقى بجريدة فى وعاء القمامة.

الاحتراق

جمال مير صادقى

دخلتُ الدكان، امرأة تقول لابنتها الصغيرة:

«ياللا يا ماما لَنتسلق. الشمس زى فرن المخبز».

داخل الدكان كان مزدحمًا . عجوز تولول. رجل ملتحٍ قال:

«فى إيه يا ست؟ أنا كمان زيك عاوز رغيفين! عاملاها خناقة ليه؟».

أمسك صدر قميصه بطرف إصبعه وانتفخ وقال:

«حر غريب يا أخى! الواحد اتسلق!».

قال الوزان:

«امّال احنا نقول إيه اللى واقفين قدام الفرن من الصبح للمسا؟!».

مسح المعلم العرق عن جبينه بظهر ساعده العارى وقال:

«خدى يا ماما وروحى، بلاش لت وعجن كتير!».

قال الملتحى: «انتو اتعودتم».

قال الوزان: «يعنى إيه اتعودنا؟ ده لحمنا بيتسلى. فيه حد ممكن يتعود عالنار يا محترم؟!».

قلت: «الجو السنه دى حر أوى!».

قال الملتحى: «أيوه؛ دنيا غريبة! شوية شتا وشوية صيف. كأن البنى آدم مش لازم ياخد نفس مستريح أبداً. يا لازم تلبس كذا حاجة فوق بعض عشان ما تترعش، يا تقلع كل اللى على جتتك عشان ما تتسلقش. وأول ما تيجى تستريح من رعشة البرد تلاقى نفسك عمّال تتسلق. الواحد يا لازم يترعش يا يتسلق. دنيا عجيبة!».

رجل عاقل محترق اللون ودقيق الحجم يقف بجوار الوزان قال:

«الواحد بيتسلق على طول».

قال الملتحى: «الواحد يترعش فى الشتا ويتسلق فى الصيف».

مسح الرجل المحترق العرق عن وجهه وقال: «حتى فى الشتا الواحد بيتسلق، على طول بنتسلق».

قلت: «كلام الأفندى صحيح بمعنى من المعانى. مش من فراغ لما بيقولوا لسعة برد».

قال الملتحى: «فيه فرق بين لسعة البرد ولسعة الحر حضرتك، دى ...».

قاطع الرجل المحترق كلامه وقال:

«مفيش فرق، الواحد بيتسلق على طول».

صاح المعلم:

«عاوز كام رغيف يا عبدالله أفندى؟».

«يتسلـ ... ستة».

قال الملتحى: «فيه فرق كبير حضرتك. لما الواحد يترعش م التلج والتجمد ما يقدرش يقول ...».

قاطعه الرجل مرة أخرى وقال:

«على طول بنتسلق، فى التلج فى الحر، فى الصيف فى الشتا، فى الربيع فى الخريف. على طول بنتسلق. على طول».

رفع الملتحى كتفه وقال:

«حضرتك بتقول كده، لكن لو سألتنى حضرتك أقول لك ...».

تناول الرجل المحترق الخبز من يد المعلم وألقى به على الطاولة، وأخذ يفقأ عروق الخبز الساخنة ثم هرول إلى وسط الدكان فى جلبة وهو يصيح:

«على طول، على طول بنتسلق».

ورفع أرغفة الخبز الملتهبة وطواها ووضعها تحت إبطه وقال:

«ضيف ع النوتة يا عباس أفندى».

قال الوزان: «ماشى يا عبدالله أفندى. خير انشا الله!».

وتبع الرجل بنظراته. خرج الرجل من الدكان وغرق وسط ضوء الشمس الحارق.

قال الملتحى: «أنا رأيى فيه فرق كبير ...».

قال الوزان: «مسكين، مراته ماتت وهى بتولد وسابته لوحده بأربعة عيال صغيرين».

من مجموعة هراس

المدينة(١)

نادر إبراهيمى

مكتب الهاتف المركزى بإحدى المدن الكبرى.

الساعة التاسعة صباحًا.

الكبائن المحيطة بالبهو مشغولة بأفراد يتصلون

هاتفيًا بالأقاليم.

فى البهو عدد كبير من الناس جالسون فى انتظار دورهم.

وعدد آخر وقف ويمشون من حين لآخر فى حيز ضيق.

ملامح المنتظرين وحركاتهم تنم عن شىء واحد:

الكل متعجل.

(١) من مجموعة باسخ نابذير ، آكاه، تهران، ٢٥٣٦ (١٩٧٧م).

وراء زجاج الكبائن، أيادٍ تعلو وتهبط، وأفواه تفتح وتغلق، وأجساد تتلوى. الناس منتظرون، ينظرون إلى من بالكبائن، يدخنون ويتفصدون عرقًا.

شخصان يتحدثان فى قلق واضطراب عن حادث عرض لهما.

شخص يضغط عينيه بصورة منتظمة. تحمر عيناه تمامًا. وامرأة تعد نقودها المعدنية بدقة. ورجل يطفئ سيجارته تحت قدمه وفى الوقت نفسه تقع عيناه على لافتة تقول «لا تلقِ القمامة وأعقاب السجائر فى البهو». يفكر لبرهة ثم يمر.

ستة أشخاص يجلسون إلى موائد كبيرة داخل الممشى. الموائد تزدحم بالهواتف، ويد كل منهم تمسك بسماعة وينادون فى مكبرات صوت.

- السيد ... كابينة رقم ٢ مكالمة لمدينة مشكين.

- السيدة ... كابينة رقم ٢٠ مكالمة لمدينة الأهواز.

- السيدة ... من تريدين الاتصال به غير موجود بمحل عمله؛ عاودى الاتصال فى الثالثة بعد الظهر ...

داخل الكبائن

كابينة رقم ١٢

- محمود! صدقنى، أنا ظلمت زوجى لأجلك. بالأمس كدرته لدرجة أنه أخذ حقنة مورفين.

- ومات؟

- ليته مات.

- ها؟

- أقول لك ليته مات. ليته مات ...

- وبعدين؟

- صباح اليوم وعلى فراش المستشفى، بمجرد أن تحسن قليلاً وكل محامياً ليطلقنى ... لكن ...

- لكن إيه؟

- لايزال يحبنى. أعرف تماماً أنه يحبنى.

- وبعدين؟

- محمود! ليس لى مكان أذهب إليه. أبى لا يسمح لى بدخول بيته. حتى أمى لا تنظر فى وجهى.

- وبعدين؟

- أنقذنى يا محمود، أنقذنى! ألم تقل إنك ... محمود ... محمود؟

- ...

- سامعنى يا محمود؟ سامعنى؟

- ...

كابينة رقم ٨

- لابد أن تعجل. لازم تقرر بسرعة ... ها؟

- قلت لك أنى ليس لى فى هذه الأمور، فاهمنى؟ ليس لى فى هذه الأمور ...

- لم لا؟

- لست من أهل هذه الأشياء.

- إيه ؟

- ليس لى فى هذا اللف، فاهمنى؟

- لا وقت عندى لمناقشتك. عندى ألف مشغولية ... ها؟ يا ... ما كل هذا الضجيج!

- لم يسبق لى أن شاركت فى أعمال قذرة كهذه، ولن أشارك.

- إيه؟

- أعمال قذرة، أعمال قذرة ... ابحث لك عن أحد غيرى. الابتزاز لا فارق بينه وبين القوادة. ليس لى فى أشياء كهذه.

- هذه المسألة بيدك أنت. لابد أن توافق!

- يعنى أنا مجبر؟ يعنى الواحد إما يُجبر أو يموت؟

كابينة رقم ١٣

- ... لا، كل ما أريده بعض النقود يا عمى.

- نقود؟ أرسلت لك نقوداً لتوى ... لا نقود إلا بعد شهر.

- يا عمى، هناك مسألة ضرورية عرضت لى. أنا محتاج.

- أية مسألة؟ قامرت؟

- ...

كنت أعرف إلام سيجرّونك فى تلك المدينة.

- على أى حال، أنا محتاج لنقود ... أنا مدين ... لا أملك حتى ثمن العَشاء.

كابينة رقم ٨

- قلت لا، وأقولها ألف مرة!

- الكل موافقون. على الأقل مائة ألف تومان سينفعونك.

- لا أريد ... لا أريد ... أنا لا أرشو ولا أرتشى.

كابينة رقم ١١

– سامعنى؟ المسألة صعبة علىّ بقدر ما هى صعبة عليك ... الأولاد يشتكون ... تعودوا عليك.

(رجل يرد بالعربية) .

– ماذا قلت؟

(مرة أخرى يرد الرجل بالعربية) .

– أخذك الموت! لم تتكلم بالعربية؟

(يرد الرجل فى حدة بعدة عبارات عربية تبدو كسباب) .

كابينة رقم ١

– أقل من مئة تومان مستحيل.

– تهريج. ومن ذا الذى يدفع مائة تومان فى شىء تافه كهذا؟

– كما قلت لك ... أقل من ذلك مستحيل.

– ما المستحيل؟

– أقل من ذلك مستحيل.

– ثمانون تومانًا .

– لا، مائة.

– أنا لا أعامل هكذا .

– لكن سوق القطن حامية.

– ليس هناك نقود، نقود. أنا يدى فى الموضوع. النقود السائلة شحيحة.

– سأنتظر. لستُ فى حاجة الآن. كنت أود أن أكون قلت لك حتى لا تشتكى بعد ذلك.

– ممنون، لكن انزل هنا ...

باب الكابينة رقم ١١ ينفتح. امرأة تطل برأسها وتقول بصوت مسموع: «لماذا يتكلم زوجى بالعربية يا سيدى؟» فيجيبها رجل من وراء إحدى الموائد قائلاً: «حدث تداخل بين خط خرمشهر وخط الأهواز. اصبرى قليلاً حتى يفتح الخط». بعض المنتظرين يضحكون مكرهين.

كابينة رقم ٨

– هذه سرقة، سرقة. لم لا تريد أن تفهم؟

– لا يا حبيبى، هذه أمور متعارف عليها فى كل المصالح وفى كل المدن.

– لكنها غير متعارف عليها هنا.

– ربما ليس لديك علم ... على أى بلدتك صغيرة. هذه أمور متعارف عليها فى المدن الكبيرة. اسمها سمسرة ...

– لا شأن لى باسمها؛ لكنها سرقة لا شك.

- أنت تهينني ... ما كل هذا الضجيج؟ ماذا عندك؟ ها؟

كابينة رقم ١٦

- قل لأمه بطريقة لا تجعلها تقلق بشدة ...

- (صوت يمتزج بالبكاء) كيف حدث؟ كيف حدث؟ لم تنطق ولو بكلمتين؟

- هذه إرادة الله يا أحمد أفندى؛ ولكن لا تقل لأمه إنه مات، قل لها تعرض لحادث ودخل المستشفى.

(صوت بكاء مكتوم) .

- لم أكن أود أن أكون نذير شؤم؛ ولكنها لو جاءت هنا سنلتف حولها يا أحمد أفندى. صبّركم الله . . هذه مشيئته.

(صوت بكاء) .

- كم قلنا له أن يحتاط. السائق مسجون الآن؛ ولكن ما الفائدة؟

- (صوت ممتزج ببكاء) لم ينطق ولو بكلمتين؟ كلمتين ...

- (صوت ممتزج بحزن) وجهى منك فى الأرض يا أحمد أفندى. سلمناه بأيدينا . ولكن بتلك الدراجة ...

كابينة رقم ١٣

- عمى! أنا أريد إرث أبى. أنا لا أطلب من جيبك.

– أهذا ما تعلمته فى تلك المدينة الخراب؟ الكل فيها يطالبون المرء بإرث آبائهم. تحامل على نفسك سنة أخرى، بعدها طالب بميراث أبيك! لاأزال قيمًا عليك ... فاهمنى؟

– ولكن أنا مدين.

– قامرتَ ...

كابينة رقم ١٧

– ها؟

(أصوات مبهمة غير مفهومة) .

– أنا لا أفهم شيئًا أصلاً ... لا أفهم شيئًا ...

(نفس الأصوات) .

– بَدرى! بدرى! ضجة عالية. لا أفهم شيئًا ...

كابينة رقم ١١

– جواد! قل كلمتين. تافه عربى كان يتكلم الآن.

– سمعتُ. حدث تداخل.

– كنت أقول إن الأولاد محزونين. وأنا أيضًا أعانى هنا. المرء فى هذه المدينة اللعينة لا يثق فى جاره. لأجل ملاليم تجر أباك وراءك فى الحر، لمَ؟

– لابد أن أفكر. أنت تعلم أنى لو انتظرتُ مئة سنة لما استطعت أن أدخر شيئًا. فمن لا حيلة له مثلى يضيع فى تلك المدينة.

كابينة رقم ٢٠

– يا بابا، أنا لا أستطيع أن أبقى هنا. أرجوك اسمح لى أن أعود.

– ألا تريدين أن تجتازى الامتحان؟

– لا يا بابا، لا. فهذا مستنقع لا مدينة. ليس لى طاقة. كنت أريد أن أرسل لك رسالة أشرح لك فيها كل شىء؛ ولكن لم أعد أحتمل البقاء هنا ولو ليوم آخر. الرجال هنا يطاردون الفتاة. يتمسحون فى جسدها. والله يا بابا أنا أخجل أن أقول لك. السير فى الشارع غير ممكن أصلاً. أيادى هؤلاء الأخساء تصطدم بجسد المرء بصورة تجعلنى أشمئز من نفسى. هذا مستنقع وليس مدينة يا أبى.

– عودى، عودى. لا أريدك أن تجتازى الامتحان.

– شكرًا يا بابا، شكرًا. كل ساعة هنا تحطمنى ...

كابينة رقم ٨

– إذن كيف تؤمّن حياة أولادك؟ ها؟

– دعهم يتضورون جوعًا، لن أسرق.

– مائة مرة قلتَ سرقة، سرقة، سرقة ... لا يحق لك أن تهين أحدًا. هذه معاملة ...

– إيه؟

– معاملة، معاملة ... لا أحد هنا لص. الكل يتعاملون. السمسرة أيضًا وسيلة كسب وعمل ...

– ...

باب الكابينة رقم ١٦ ينفتح. تخرج منها امرأة عيناها دامعتان ووجهها حزين. رجل يقول من وراء إحدى الموائد: «السيد ... كابينة رقم ١١، مكالمة لمشهد». فينهض شاب من وسط الزحام ويدخل الكابينة.

كابينة رقم ١٦

– بابا. ألنت معى؟ أحالك بخير؟ بابا!

– ما شأنك بحالي، قل ما عندك! نحيتنى من حياتك وشئونك. لِم تتصل بى؟

– بابا ... كنت أريد ... كنت أريد ...

– أسرع، لا تعطلني. ماذا كنت تريد؟

– كنت أريد أن أستأذنك ... باختصار أريد أن أعقد على فتاة ...

– ماذا؟ تتزوج؟

– نعم يا أبى، أحبها. أكيد ستعجبك أنت وأمى أيضًا.

– هاشم، هل جننت؟ انتظر حتى نأتى إليك ... الزواج مسألة لا تتم بهذه العجلة.

– يا بابا لا أستطيع أن أنتظر. لا أستطيع ... مسألة لا تقال.

(صوت صرخة تصك الآذان) ها؟

كابينة رقم ١

– نهايته، موافق على المئة تومان أم لا؟

– لا أحد يوافق. لو فكرتَ قليلاً لأدركت أنه يخسرٌ.

– الخسارة علىّ أنا، لكن أقل من ذلك مستحيل.

كابينة رقم ١٢

– اسمعى يا مِهرى! أنا أيضًا عندى زوجة وأولاد. ما كان بينى وبينك مضى، كان مجرد صدفة.

– محمود، ماذا تقول؟

– لا تتعصبى. هذه مسائل تحدث دائمًا فى المدن الكبيرة. استسمحى زوجك و عديه ...

كابينة رقم ١٦

– ضيعتَ بنت الناس؟ استسلمت للغواية؟ هاشم ... والله أحرمك من الميراث ...

كابينة رقم ١١

- لابد أن تتحمل. الأولاد أيضًا يتعودون تدريجيًا.

كابينة رقم ١

- أخره ستة وتسعون تومانًا.

- لا.

كابينة رقم ١٢

- اذهب واشكنى؛ أما النقود فلا.

كابينة رقم ١٧

- لا أفهم شيئًا، الضجة شديدة ...

كابينة رقم ١٢

- محمود، محمود!

كابينة رقم ٨

- لو لم تتم هذه الصفقة لضيعوك ...

كابينة رقم ٤

- ويلى ...

بيد الريح(*)

نادر ابراهيمى

الخريف، فصل الريح التى تجرد الشجر من أوراقه وتثير الغبار، والطائرات الورقية الملونة ذات الذيول وأقدام صبية الشوارع الحافية الصغيرة آتية.

الصبية ببكرات الخيط أو خيوط الجوارب القديمة يصيحون «الله» ...

كانوا يجرون ويتوقفون، كانوا يصرخون ثم يصيحون «الله».

***

هبت ريح ترابية وأخذت طائرة ورقية وصعدت بها.

صاح الصبية: أطلق الخيط، أطلق الخيط!

وأطلق الصبى الخيط قدر استطاعته. ألقت الطائرة الورقية نظرة بعينيها الواسعتين ووجنتيها الحمراوين على البيوت من تحتها. ودارت وانقلبت. ارتجف قلب الصبى لكن الريح عادت ورفعتها.

(*) من مجموعة باسخ نابذير ، آكاه، تهران، ٢٥٣٦ (١٩٧٧م).

– أنت يا من ليس لديك اليوم طائرة ورقية، أعطنى بكرة خيطك أربطها فى هذه البكرة!

دار الصبى الذى لم تكن معه طائرة حول نفسه وقال: غداً لن يكون عندك أنت أيضاً طائرة. فالطائرة ليست لك، بل للريح.

– لا! بل طائرتى. ساعة واحدة وأنزلها وأعود بها إلى البيت. وغداً سأطيرها، وبعد غد أيضاً.

– لا! فالطائرات الورقية كلها ملك للريح. بالأمس سألت أبى: «لمَ تعلو كل هذا العلو؟» فقال أبى: «هى لا تعلو من تلقاء نفسها؛ بل الريح تعلو بها أنا شاءت.

التفت الصبى نحو الصبية وقال: نعم؛ الطائرات الورقية للريح، لا لنا.

– إذن فهى تعيسة غاية فى التعاسة؛ فيدها دائماً بيد الريح. وإن نامت الريح سقطت.

داخل الحارة على الجانب الآخر، علت الريح بطائرة ورقية أخرى .

– نعم؛ أبى قال ذلك أيضاً. قال لى: أنت أيضاً تعيس؛ فأنت تصنع الطائرة الورقية بيدك ولكنها تذهب حيثما شاءت الريح.

السنة قبل الماضية كانت عندى طائرة ورقية كبيرة، كبيرة جداً! وذات يوم مضت ولم تعد. وفى آخر الليل لم يبق منها سوى خيطها فى يدى.

قال أحد الصبية: هكذا شأنها جميعًا. أرأيتَ طائرة ورقية واحدة عمرت لسنة واحدة؟

- لا. الله لا يحب الطائرات الورقية.

صاح الصبية: انقلبت؛ قولوا اللّٰه.

رمق الصبى الذى ضاعت طائرته الورقية السماء بنظرة مختلسة، فرأى ... سماء مدينته مزدحمة بالطائرات الورقية الملونة. لم يكن يريد أن يبكى؛ ولكن زم عليه البكاء فصرخ: «الطائرات الورقية كلها للريح لا لكم.» ثم أخذ يعد الطائرات الورقية فى صفحة السماء من ضيقه وقلة حيلته: واحد ... اثنان ... ثلاث ... عشر ... عشرون ... ياه ... كم طائرة! أظن مائة وتسعون.

- كثيرة جداً؛ جداً ...

- كلها للريح.

- ليكن. ماذا بيدنا؟ نحن نريد أن نتسلى.

ثم استقرت دمعة بركن من عين الصبى الذى ضاعت طائرته. ورفع حجراً من ضفة الجدول ورمى بها بعيداً. كانت الطائرات الورقية لاتزال تعلو وكانت هناك ريح مواتية تهب. كان الصبية يصيحون ويصفقون حتى أن الكبار أيضًا كانوا يظللون على أعينهم بأكفهم وينظرون إلى السماء.

قال الصبى الذى ضاعت طائرته لأحدهم: الطائرات الورقية للريح سيدى، أليس كذلك؟

أجابه الرجل فى دهشة: ربما. أنت أدرَى!

واشتدت الريح قليلاً فصاح الصبية: «لمّ، لمّ! ستنقلب وينقطع خيطها.» فأسرع الصبى وبدأ يلم خيط طائرته.

أخذ الليل يغطى المدينة وأخذ الصبية يعودون فرادى إلى ديارهم.

والصبى، بعد أن سحب الخيط لبعض الوقت وبعثره على الأرض، قال لنفسه: «يا ويلى ... كم خف الخيط. لابد أن طائرتى ضاعت» . وتجمعت فى ركن من عينيه دمعه واستقرت ... ثم تدحرجت، فلعقها الصبى بلسانه. وتذكّر كلام زميله. فرتب بكرة الخيط ودسها فى جيبه. وقال لنفسه: يارب! طائرتى، طائرتى ...

– أبى يقول: الطائرات الورقية تعلو بها الريح وتهبط بها الريح إلى الأرض.

عاد الصبى صاحب الطائرة الورقية فلم يجد أحداً بجوار الجدول الناضب سوى الصبى الذى ضاعت طائرته.

وكانت الريح تشتد.

***

وفى صباح اليوم التالى من أيام الخريف، فصل الريح التى تجرد الشجر من أوراقه وتثير الشجن، فصل الطائرات الورقية الملونة ذات

الذيول، وجد الصبية إحدى الطائرات الورقية ببكرتها ورقبتها المكسورة معلقة فوق عمود النور.

امتلأت المدينة بنعوش الطائرات الورقية مستقرة فوق الأسلاك والأعمدة الخشبية فوق البيوت. قال أحد الصبية: حقًا إن اللَّه لا يحب الطائرات الورقية ...

أحلام أبى

غلا محسين ساعدى

اليوم الجمعة. جاء أبى بدفتر وعدة رزم من الورق وفردها أمامه فى غرفة المعيشة. ثم كدس على النوافذ فواتير المصروفات ومختلف الدفاتر وقوائم أجور العاملين. أبى محاسب بالإدارة المالية. تخرج أمى من الغرفة وهى تزمجر وتجلس على الدرج وتنادينى إليها بإشارة:

- «شايف اللى بيحصل؟ شايف البلوة اللى أنا فيها؟ حتى أيام الجمعة! طب أعمل إيه؟ يعنى ما أخلصش م العيشة دى إلا لو مُتّ؟ أنا عارفة أنه هيفضل كده لحد نص الليل، ما تمشيش، ما تتكلميش، إيه اللى وقع ده؟ وطى صوتِك شوية، فين الدفتر العام بتاعى ... لسه ما كنستيش الأرض؟ لسه ما عملتيش الغدا؟ ولا حركة، هايتجنن، تعالى، تعالى اتفرج عليه».

نمشى معًا على أطراف أصابعنا تحت النافذة. أبى ممدد بالغرفة فوق بطانية قديمة وشعره المجعد الذى اختلط السواد فيه بالبياض مهدل فوق جبينه، ونظارته تركب فوق أنفه وأزرار قميصه مفتوحة ومن ثناياها

تظهر ضلوع قفصه الصدرى أبرز وأصلب من العادة. عدة دفاتر كبيرة مكدسة فوق بعضها، وتراكمت على يمينه وعلى يساره رزم غليظة من الورق. ولكنه لا يفعل شيئًا، يضع قلم رصاص بين أسنانه وينظر ساهمًا إلى ركن من الغرفة. تبدأ أمى من جديد:

- «أدى حال البيت وأدى حال العيشة! يارب، الموت أحسن م العيشة دى ميت مرة. بأه مفيش حد يكلم الراجل ده ويقول له إن ده بيت مش مكتب؟ مطلع روحك كده على إيه ؟ بص بص، مسهم بعينه فى الركن ده زى القطة بالظبط، دلوقتى يبدأ، دلوقتى يهجم، تلاقى كام رقم اتلخبطوا ف راسه، مش قادر يظبطها».

تعبت من مشاهدة هذه المشاهد، أشد أمى بكل جهدى من تحت النافذة وأقول لها بهدوء:

- «خلاص بأه يا ماما، هاتعملى له إيه؟ لازم تصبرى، باقى له إيه، كلها سنتين كمان ويطلع معاش وكل ده ينتهى ونرتاح».

أمى لا تتوقف، دائمًا تتذمر ساخطة، نفد صبرى تمامًا، أصعد الدرج وأفتح باب غرفة المسافرين وأتمدد على الأرض. رأسى تدور، أكاد أفقد الوعى. قبالتى صورة لأبى فى شبابه معلقة على الحائط. قد مهندم وعارضان بارزان وشعره ممشط. أتخيل هيئتى إذا بلغت سن أبى، بقدى النحيف الهزيل هذا، وبتعجلى وقلة صبرى. شىء يتحرك فى رأسى، صورة أبى تدب فيها الروح داخل الإطار، تتبدل ملامحه، تظهر حول فمه تجاعيد عميقة. شعره يشعث وجبينه يتقطب، يتغضن وجهه،

عارضاه يغيضان، وكتفاه، كتفاه يرتفعان، وفمه ينفتح وفجأة يبدأ فى القئ. أحس بشىء غريب يطاردنى، أهم بالنهوض. رائحة رطبة تملأ مشامى وصرخات أبى المتتابعة من غرفة المعيشة. بدأ الهجوم.

أهرع إلى غرفة المعيشة على عجل. أبى وحده. رعشة غريبة ألمت به.

– مالك يا بابا؟ حصل حاجة؟

– مش صح، ما تجيش. المسألة فيها خدعة.

– خدعة إيه يا بابا؟

– كل حاجة فى الدفاتر دى بتتبدل.

– إيه اللى بيتبدل؟

– الأعداد والأرقام. هيكون إيه اللى بيتبدل يعنى.

– بتتبدل إزاى؟

– كلها بتمشى زى النمل، بتدخل فى بعضها، بتسخر منى.

– مش ممكن حاجة زى دى تحصل يا بابا.

– إزاى مش ممكن؟ أنا شايفها بعينى، الأربعة والتسعة والخمسة بدلوا أماكنهم بسرعة.

– مش مهم يا بابا ...

– مش مـهم؟ مش مـهم عندك أنت يا اللى بتـاكل ببـلاش وتعـيش أونطة.

– أنت تعبت يا بابا، لو ...

– تعبت ده إيه. لو الحسبة طلعت غلط عارف يحصل إيه؟ أنت مش فـاهـم كـلامى أصــلاً؟ عـارف يـحـصـل إيه لو طلع أقل اخـتـلاف؟ عـارف الاختلاف يساوى إيه أصلاً؟

– الاختلاف هو الاختلاف طبعًا.

– لا يا غبى، الاخـتـلاف مـعناه التـانى اخـتـلاس. اخـتـلاف يعنى اختلاس.

– يعنى مين اللى اختلس؟

– يعنى أنا. أبوك عديم الشرف والذمة.

– حضرتك مالكش شأن بالفلوس.

– أمّال إيه اللى أنا باكتبه ده. مش فلوس دى!

– لكن أنت مش ممكن تسرق أرقام الفلوس.

– أمّال إيه اللى ممكن يتسرق؟

– الفلوس نفسها.

– غور ف داهية، أنت اش فهمك أنت. انت مش فاكر المرحوم كاتب الحسابات؟

– أيوه فاكره.

– انتحر عشان ايه؟

– ماعرفش.

– أيوه ما تعرفش. انتحر بسبب نفس الاختلاف ده.

– غلطان.

– آه، من وجهة نظر سعادتك كده. لما أنا كمان انتحر هتقول كده برضه.

– وتنتحر ليه؟

– عشان سوء السمعة يا حبيبى، عشان العار. فكرك أنا بخاف من إيه؟ م السجان والا رئيس المحكمة والا السجن؟! أبداً يا سيد، من العار. مابخافش إلا من العار.

– مفيش عار هيحصل يا بابا، كل الناس عارفينك، اطمن!

– مش هيحصل؟ ما حصل وخلاص، من اللحظة دى حصل. امّال إيه اللى حصل ده؟ ليه كله دخل ف بعضه؟! ليه كل حاجة اتقلبت؟ ها؟ تقدر تجاوبنى والا لأ؟ هـا؟ اتخرست ليه؟ لسانك اتربط؟ ما تتكلم يا صايع يابن الكلب.

يده تدور فى الهواء ممسكة بأحد الدفاتر. وما أن هممت بالخروج من الغرفة حتى ضَرب الباب جسم ثقيل، ضربة شديدة.

الساعة الثانية بعد الظهر، أنا وأمى نتناول الغداء بأسفل ونخرج. غداء أبى برد فوق النافذة. لا أنا ولا أمى نجرؤ أن نذكّره بالغداء. أبى يرفع رأسه ويرمقنى أنا وأمى من وراء نظارته.

– مالكم؟ باصين لى كده ليه؟

أفوق أمى جرأة وأقول هامساً:

– مفيش حاجة.

– لأ فيه حاجات كثير. انتو اللى مش عارفين.

– يِمكن يا بابا.

– لا، مش يِمكن، قرّب شوية.

أقترب منه وأجلس بين يديه. الدفتر المفتوح أمام أبى تغطيه أعمدة لا حصر لها من الأرقام. يشير لى أبى بأصبعه إلى رقم.

– ده كام؟

– تسعة!

- أهو ده من دقيقة كان سبعة. وده كام؟

- تلاتة.

- صح. ده الرقم الوحيد اللى ما تحركش من مكانه. وده؟

- سبعة.

- الحقير عديم الشرف. كان تمانية قبل ما أشاور عليه.

- إزاى ده؟!

- يعنى أنا باكدب؟ كان تمانية.

- إزاى ده؟! فعلاً؟

- يحدق بعينيه عدة لحظات فى ركن الغرفة ثم يقول فى حبور:

- صح طبعًا. لو التمانية اتقلبت تبقى سبعة. مش كده؟

أجيبه برقة:

- أيوه، ممكن تبقى سبعة لو اتشقلبت.

- اشّقلبت، اتقلبت.

- صح.

- لكن السبعة مهما عملِت ما تقدرش تبقى تسعة، صح؟

- ليه، ممكن تطوَل وتتحول لواحد وبعدين تتنى راسها وتلفها وتبقى تسعة.

لكمة قوية تصطك بظهرى وتخلعنى من مكانى.

- أنت كمان بتتريَق يا حقير يا غبى. مش ممكن أصلاً. لكن أنا لازم أطلع م المقلب ده. أيوه، فيه سر غريب فى الموضوع. فيه عمل وسِحر فى المسألة.

يلتفت إلى أمى ويحملق فيها بعينين برزتا من مقلتيهما. يرفع نظارته فى هدوء ويضعها وسط الدفتر.

- قولى لى يا ولية، تكونش العَملة دى عَملتك؟

- إيه اللى بتقوله ده يا راجل؟ أنت اتهبلت خالص كده!

- أيوه أنتِ ياختى، بيتهيألى كله من تحت راسك. عملتى إيه؟

- بطّل وروح لحالك. أنت دلوقتى عايز تحط كل حاجة فوق دماغى؟

- وطربة أبويا كله منك يا قرشانة انتِ. أكيد حطيتى لى حاجة ف الأكل .

- وهاعمل كده ليه؟

- عشان ما أجيبش شغل المصلحة البيت.

- ارحمنى يارب، إيه اللى لسه ما سمعتوش؟

- بلاش استموات، قولى الحقيقة.

ينهض ويمسك بشعر أمى ويجرها حول الغرفة ويسدد لكمة موجعة بين كتفيها من حين لآخر.

- هاقتلك، هاقتلك! لازم تقولى، قولى الحقيقة.

أهب غاضبًا وأخلص أمى من قبضة أبى. يعلو بكاء أمى وتكيل السباب تباعًا.

أمى ترفع عباءتها وتفتح الباب وتخرج. أتبعها على عجل. تعود باكية وتقول لأبى الذى تدلى من النافذة على الفناء:

- إلهى ما تشوف خير يا راجل. على آخر العمر وف شيبتى اديتنى مكافأتى ف إيدى. أنت فاكر نفسك ماسك أسيرة؟ أنا رايحة بيت أبويا.

يصيح أبى بأعلى صوته:

- روحى ف أى داهية عاوزة تروحيها، غورى، كل اللى يتدخل فى الشئون الإدارية جزاؤه كده.

***

ساعة الحائط تدق اثنتى عشرة مرة. والهدهد الذى يعلوها يفتح منقاره اثنتى عشرة مرة، ويتداخل صياح ديك الجيران مع صياح

الهدهد. وأنا جالس بغرفة المسافرين أدخن، فجأة ينفتح الباب ويدخل أبى مضطربًا حائرًا، يضع يديه فوق صدره ويركع أمامى ويقول:

– يا صاحب الفضيلة، أرجو أن تصغى لدفاعى الأخير. أنا مجرد موظف غلبان. قضيت عمرى وأنا أتولى مهام الحسابات المالية بكل تفانٍ. والله يشهد أنه لم يبدر منى أصغر خطأ حتى اليوم. ولم تطأ قدماى هذه الأماكن إلى الآن. عشتُ حياتى بكل شرف ولا أزال. ولا أعرف ماذا حدث حتى أصبحت فى هذا الوضع. كل ما أعرفه أن القانون لا يرحم أحدًا، والعدالة تطال الكل. ولكن الذنب هذه المرة ذنب الولية الغجرية دى وابنى الغبى، فكان ما كان. أنا لا أخاف العقاب. كل ما أخشاه العار. اعفُ عنى صدقة عن أولادك ولا تهدر كرامتى أمام القريب والغريب. لا تنشر اسمى فى الصحف فأنا غلبان. عانيت ألوانًا من التعاسة ولكنى لم أفقد كرامتى قط. فلا تهدر كرامتى.

أرجوك، أرجوك وضح لى ما ينبغى أن أفعل.

ويهم بلثم قدمىّ فأنهض به. صوتى الآمر يدوى فى جنبات الغرفة:

– هذا ذنبك الوحيد. أنك لا تنفذ أوامرنا.

– أنا أخطأت. سأنفذ كل ما تأمرون به بكل دقة.

– لو كان الأمر كذلك فاذهب فى التو واخلد إلى الراحة والنوم بعد أن تتناول قرص أسبرين..

يخـرج أبى من الغـرفـة وهو يقـول «على عينى، على عـينى». وبعـد لحظات أمـشـى فى الردهـة على أطـراف أصـابعى. غطيط أبى يعلو من غرفة المعيشة، ومن مكان غير معلوم يبلغ سمعى صوت هدهد.

المظلة

غلا محسين ساعدى

حسنى أفندى مدير المنطقة السادسة من إدارة السجل المدنى والإحصاء، فى السادسة من بعد الظهر أغلق مكتبه وخرج من المصلحة. كان الهواء ثقيلاً والسماء تحجبها سحابة قاتمة ضخمة. وقف حسنى أفندى أسفل الدرج للحظة وتنهد. كان الناس يسيرون فى عجلة، الكل عصبى ونافد الصبر. الكل لديهم ما يصدّع رءوسهم. قال حسنى أفندى لنفسه:

«يارب! إيه الحالة الوحشة اللى أنا فيها دى! إيه الأفكار المضحكة اللى مالية دماغى دى! إيه اللى عمال يخبط ف دماغى ده! فيه حاجة باظت، فيه حاجة اتقطّعت. فيه حاجة بترعش ف ضهرى. ده تِعبان صغير، يكونش هيقرصنى وف لحظة اموت!»

هبت نسمة باردة بدا واضحًا أن المطر بدأ يهطل على البعد. عسكرى مرور يتدثر بمعطف مطر قديم، والعربيات تسرع، وعدد من الناس احتموا تحت السواتر كأن السماء ستمطر رصاصًا.

انتظر حسنى أفندى، وما أن نزلت عدة قطرات كبيرة من المطر أمام قدميه حتى أسرع بصعود الدرج الخشبى وفتح القفل ودخل. كانت الغرفة معتمة. وما كان الضوء الخافت الباهت الذى كان يتسرب من الزجاج المغبر لينير سراديب المصلحة. ولم يكن حسنى أفندى يحتاج الضوء. كان حسنى أفندى يتحرك فى الظلام، كان حسنى أفندى يحب الظلام، كان يحس براحة فى الظلام. كان يرى بصورة أسهل فى الظلام. وما أن دخل حتى مد يده وتناول مظلته القديمة التى تزدحم بالرُّقع من فوق المسمار المجاور للباب ثم أغلق الباب. وقبل أن يمشى دار حوله حيوان غير ظاهر. رفع حسنى أفندى مظلته. اشتبكت مظلته عدة مرات فى ظلمة الدرج ولم يتمكن من تخليصها. لم يخف حسنى أفندى من ذلك الكائن غير الظاهر. لم يكن يريد أن يفلت مظلته. وهبط الدرج وهو يتحاشى صفائح القمامة. فى الخارج لم يكن هناك مطر. كانت الغيوم تتكدس فوق بعضها وكانت الزخات الأولى جفت. علق حسنى أفندى المظلة على ذراعه ومضى نحو السوق بآخر الشارع للتسوق. وبدون أن يمد يده فى جيبه ليخرج قائمة الاحتياجات اليومية التى أعطتها له امرأته، كان يعلم أن عليه أن يشترى سكر قوالب ولوبيا ولحم وكيلو دقيق وسكر مبلور وبكرة خيط سوداء وبكرة بيضاء وسجائر وتفاح، وأن يأتى بحذاء ابنه من عند الإسكافى.

كان حسنى أفندى يحب أن يتسوق من الدكاكين المحيطة بالمصلحة. ففى هذا النطاق كان معظم الناس يعرفونه، إذ كان يصدر لكل منهم صورة رسمية من البطاقة عدة مرات فى السنة، وكان يعتقد

أنهم ما كانوا ليغشونه قط. انعطف مع الشارع بدون تفكير ودخل السوق. أعد له البقال السكر القوالب واللوبيا والسجائر والدقيق، وأخذها ثم دخل الجزارة المقابلة. تبادل سلاماً حاراً مع الجزار واشترى اللحم وخرج من الناحية الأخرى من السوق. بجوار الرصيف وعلى عربة فاكهة فرش تفاح طيب اللون، تأبط كيس الفاكهة وكان عليه لكى يأتى بحذاء ابنه أن يمر عبر حارة ضيقة حتى يصل إلى دكان الإسكافى المجاور للحمام الشعبى. كان الجو غائماً تشتم فيه رائحة المطر. كان دكان الإسكافى شبه معتم وكان الإسكافى منهمكاً فى الخياطة فى ضوء لمبة جاز، وما أن رأى حسنى أفندى حتى وضع ما بيده على الأرض ونهض وقال:

- «الجزمة جاهزة يا حضرة الريس. وركبتلها نعل كمان».

وأنزل الحذاء وأخذه عند المصباح، ثم لفه فى ورقة ووضعه أمام حسنى أفندى. وحين هم حسنى أفندى بالخروج قال له الإسكافى:

- «الباجور والع يا ريس. لو مش مستعجل أعمل لك واحد شاى سريع».

قال حسنى أفندى:

- «ممنون، يوم تانى انشاء الله. لازم أروّح، شيلتى تقيلة وخايف تمطر».

وما أن خرج من عند الإسكافى حتى بدأ المطر فى الهطول وأخذت حباته تتساقط على أسفلت الشارع، وهبت ريح باردة على الشارع أنبأت

بعاصفة من المطر الغزير. غز حسنى أفندى السير ولكن المطر الغزير لم يمهله، وأخذ ينهمر كالسيل. لاذ حسنى أفندى بحاشية جدار وتذكر فجأة أنه نسى مظلته القديمة فى مكان ما. كان المطر غزيراً لدرجة جعلت حسنى أفندى يحمل لفافاته فوق ذراعيه ويعدو إلى دكان الإسكافى. فتح الباب نصف فتحة وقال:

– «عم محمد، شمسيتى عندك، نسيتها هنا؟».

قال الإسكافى وهو ينفخ فى بابور الجاز:

– «لا يا ريس، ما كانش معاك شمسية».

– «إزاى ما كانتش معاى! أنا كنت جاى م المصلحة وخرجت بيها».

– «أكيد سبتها فى حتة تانية».

– «الهبابة دى هتطيّر عقلى».

ويخطا سريعة غز السير تحت حواشى الجدران دخل السوق. وحين وصل إلى دكان البقال قال بصوت عالٍ:

– «شمسيتى نسيتها عندك يا حاج؟» .

– «لا حضرتك؛ واحنا عاوزين الشمسية ف ايه؟».

دخل دكان الجزار وسأل فى ضيق:

- «يا عم أكبر، شمسيتى ...» .

- «شمسية سعادتك؟» .

- «أيوه، من نص ساعة، سبتها فى دكانك».

فتش الجزار دكانه وقال:

- «والله أنا مش شايف شمسية هنا، يمكن ما كانش معاك من أصله!» .

- «ما كانش معايا؟ أنا ما كانش معايا شمسية».

وبعد لحظة توقف أمام دكان الخردواتى:

- «يا عم، شمسيتى ...» .

- شمسية حضرتك؟» .

- «يمكن سبتها ف دكانك؟» .

- «حضرتك ما شرفتناش هنا».

- «لكن برضه يمكن تكون هنا».

- «يعنى ممكن الشمسية تكون شرفت هنا لوحدها؟».

- «لو أمكن، تبص بصة كده».

- «على عينى، على عينى!».

- «ألقى الخردواتي نظرة داخل الفترينة ووسط العلب وقال:

- « بيتهيألي تكون راحت حتة تانية».

خرج حسنى أفندى على الفور ومشى مسرعًا. لم يكن أمامه إلا أن يمضى إلى بيته بدون المظلة. كان الشارع مزدحمًا. وكان المطر يهطل بغزارة. كان الجو أظلم. وفى كل خطوة يخطوها حسنى أفندى كانت تنفتح حفرة صغيرة وتمسك بقدميه ولا تتركهما لعدة لحظات. كانت محطة الأتوبيس مزدحمة، وكان الناس يقفون صفوفًا. وكان كل أتوبيس يصل يهجمون عليه، وكان الأتوبيس يتحرك قبل أن يصعد إليه أحد.

أخذ المطر ينهمر بشدة على لفافات حسنى أفندى. وأخذت الأكياس تهترئ وكان حسنى أفندى يحس بقطرات عصير تتساقط من أطراف أصابعه. أخذ حسنى أفندى يهمهم:

- «أنا اللى غبى، مش فالح فى أى حاجة. الشمسية وضيعتها، ودلوقتى دول كمان يضيعوا، وبعد شوية أضيع أنا. انشاء الله أموت عن قريب وأستريح منى».

خرج من طابور الأتوبيس ووقف وسط الشارع. وأخذ يعدو كلما رأى عربة أجرة.

- «يا عم، يا عم!».

- «على فين؟».

- «المحطة».

- «محطة ايه؟».

- «جنب ... جنب ...».

كانت عربة الأجرة مضت.

- «عاوز تروح فين؟».

- «ورا ... ورا ...».

- «ما بنروحش ورا».

واختفت عربة الأجرة.

- «ممكن توصلني؟».

- «فين؟».

- «بيتنا».

- «وبيتكو فين؟».

- «مش بعيد. ورا الخزانة».

- «يا سلام!».

لم يعد من بد. مشى حسنى أفندى على قدميه. اندفع بإرادة قوية وسط السيل. والمطر، المطر الذى لا يرحم بلل حسنى أفندى وأثقله. وفى

إصرار عجيب لم يكن حسنى أفندى مستعداً بأى شكل لأن يفقد كتلة العجين التى يحتضن.

***

وعندما وصل أمام البيت، لم يكن يقوى على الوقوف على قدميه. ضرب الباب بقدميه عدة مرات واستند على الباب ليسترد أنفاسه. ثم أخذ يقرع مطرقة الباب فى غضب. وبعد لحظة، سمع وقع أقدام تأتى مسرعة نحو الباب.

– «مين؟ مين؟».

– «افتحى!».

فتحت امرأته الباب مواربًا وبيدها فانوس، وحين تعرفت إلى حسنى أفندى تراجعت عدة خطوات.

– «يا لهوى، مالك؟ ايه اللى دهولك كده؟».

– «النور مش والع ليه؟»

– «الكهربا مقطوعة م الضهر. إيه اللى حصل؟ وقعت؟»

دخل حسنى أفندى واستند على الحائط بما يحتضن من لفافات وقال:

– «ما لقيتش عربية. مفيس تاكسيات. محدش رضى يركبنى. كنت هاموت. جيت السكة كلها مشى. المطر طلع روح أبويا. لطشوا

شـمـسـيـتى، سـرقـوها ، فـضلت واقف ف المطر والطين، اتبليت، تـعـبت، غلبت» وملأت الدموع عينيه.

تقـدمت امـرأة حـسنى أفندى بدون أن تتكلم ورفـعت الفـانوس وحـركت اللفـافـات تحت نظرات زوجـهـا المندهشـة، فظهرت المظلة على ذراع حسنى أفندى.

غصن بنفسج لعديد

نسيم خاكسار

أخذونى أنا وعديد معًا. كان المطر ينساب قطرات دقيقة. قرب المعسكر، كان التراب ذا لون بنى فاتح. وكان عديد يتقدمنى. وكان من حين لآخر يلتفت بقطرة مطر على جبينه وينظر فى وجهى ويبتسم؛ ابتسامة طفولية وحزينة. كانت يدانا مقيدتين بقيد واحد معًا. حارسى كان شابًا. كان يرافقنى كظلى. وحين كان شىء ما يلفتنى، كان يبطئ خطوه. لم يكن بالشارع شىء فى مجال نظرى سوى جواد يجر عربة محملة بشكائر الأسمنت والجبس، والأطفال وهم عائدون من مدارسهم. كان مكاننا فى العربة ضيقًا غاية الضيق. بالإضافة إلىّ أنا وعديد، كان هناك عدد آخر من الأشخاص فى الطريق إلى النيابة. كانوا يروجون الهيروين أو الأفيون، أو متهمين بالسرقة. كنت أنا وعديد آخر من نزل. الآن حيث كنا نسير على الأقدام أحببنا النظر إلى السماء. كان عديد حزينًا لأنه لم يكن بإمكانه أن يحرك يديه. عندما خرجنا عن الطريق أفرغ عديد غضبه فى التراب المندى بماء المطر قرب المعسكر. أخذ يدب

على الأرض بقوة، أو يحك نعل حذائه على التراب، ثم يركل الطين العالق بحذائه حوله. ضاق به حارسه المسن:

- «اهدأ يا سيد ... أنت عليك بيضة؟!».

ابتسم عديد. عاد وأشار إلى أثر حذائه على التراب. قلت: «كفاية يا عديد!». قال: «ياسين، حط رجلك هنا!».

بلا إرادة وضعت قدميّ مكان قدمي عديد لعدة خطوات، ولكن كان القيد مؤلمًا.

قال حارسي: «أنت اللي جبته لنفسك!».

التفت عديد وابتسم وقد علقت قطرات المطر بشعره المجعد وسقطت قطرة منها من فوق جبينه.

- «مبسوط يا ياسين؟» ثم ركل الطين مرة أخرى.

تحركت بندقية حارس عديد الشيخ وكادت تسقط من فوق كتفه. قلت: «عديد، اهدأ! كفّرت الراجل العجوز».

التفت عديد وحدق في وجه حارسه وقال: «وشه زى وش الخواجه يني. أنت ندهت له؟». ثم قال للحارس الشيخ: «كان لازم تبقى حارس على كوبرى».

قال الشيخ: «الله يجازيك! بعد العمر ده كله عاوزنى أقع فى ايد قطاع الطرق؟!».

ضحك عديد بصوت مسموع: «إيه رأيك يا ياسين. والنبى ما يعجبوكش قطاع الطرق؟».

قلت: «أيوه» ووضعت قدمى مرة أخرى مكان قدمى عديد.

قال عديد لحارسه: «الحرامية، مش قطاع الطرق».

قال حارسي: «صاحبك دمه خفيف أوى! مش كده؟!».

استأت من كلامه ولأول مرة التفت وحدقت فى وجهه. بدا لى أحمق غبيًا. ساءنى أن أمازحه. كان طرف أنفه حادًا ووجهه شاحبًا. كان عديد لايزال يجادل حارسه حول تسمية «قطاع الطرق» ويركل الطين العالق بحذائه.

كان لون طوب المعسكر الكبريتى الأصفر يبدو للأعين أكثر اصفرارًا. عدد من الجنود يقفون للحراسة حول المكان ومن حين لآخر كان رئيس الفرقة وهو قائد الحرس يخرج من الممر ليلقى نظرة عليهم ويعود فى هدوء. وعندما وصلنا إلى الطريق الأسفلت قال حارس عديد:

- «دلوقتى بأه كل اللى عندك اعمله».

قال عديد: «بالراحة علىّ يابا. الخواجه ينى كان ارحم كثير».

قال الحارس المسن: «يلعن أبو أم ينى ... ابن القحبة ده بيشبّهنى بالخواجات!».

ضحك حارسى وحك طرف أنفه بيده وقال:

- «أنت نِفسك تبقى زيهم!».

- «مالكش دعوة!».

- «ماليش دعوة ده إيه! دلوقتى بتتكسف أوى؟! مش عاوز تبقى خواجه؟!».

قال حارس عديد: «اختشى وما تعملش علينا أبو العريف!».

كان حارسى يحاول الظهور بمظهر المعاصر المتحضر. كنت أنا وعديد مسرورين إذ كنا نسير جنبًا إلى جنب. كان عديد أسعد منى. كان عديد يود أن يرانى سعيداً على الدوام. أما أنا فكنت أتذكر أمى. كنت كلما مرت بخاطرى أستغرق فى تفكير عميق. كنت قلت لعديد إنه سيكون من الأفضل ألا تأتى تلك العجوز. أما الآن فلم أعد أطيق صبراً. كان عديد يعرفنى. كان يعرف أن بعض الأمور تثير غضبى وثورتى وتضايقنى.

كان عديد يدرك أنى إذا رأيت أمى وسط العسكر لاعتبرتها فضيحة. كنت سأغتم ولا يطيعنى قلبى أن يرى سوى حزنها وقدها الضئيل تحت تلك العباءة السوداء القديمة. لاتزال عيناها المتوسلتان بذاكرتى أول يوم التقينا وأنا وراء القضبان.

قلت لعديد: «فكرك تكون جت؟».

كنت أتحاشى النظر داخل الممر. قال عديد: «لا يا ياسين. مادام قلت لها ما تجيش مش هتيجى».

قلت: «لو جت، لو لقيتها، هالعن جدود أى عسكرى مهما كان».

قال: «مش جاية يا ياسين. مادام قلت لها ما تجيش مش جاية».

سلم حارسى أوراق اعتمادى لقائد المعسكر وسلم أوراق عديد أيضاً. وحين دخلنا الممر، فكوا وثاقنا، إلا أن القيود ظلت معلقة بأيدينا. وقف حارسى بجوار الباب، وجلست أنا وعديد متجاورين فوق دكة رمادية طويلة. كانت الغرفة المجاورة للممر صغيرة وطويلة وفى آخرها باب مربع صغير بدت السماء خلفه بلون بنفسجى داكن. كنت أود لو أخذونى أولاً. كان حارسى يدير رأسه ثم يعود بسرعة ويرمقنى بنظراته كأنه يخشى أن أنسل خارجًا من الباب الصغير. أما حارس عديد فكان هادئًا؛ تركنا وذهب إلى دورة المياه. كان كلما اعتراه الغضب يطلق السباب كالحصى. لم نكن أنا وعديد نغضب من سبابه. حين عاد قال له عديد:

- «إيه يا خواجة ينى! إمتى تبتدى بأه؟!».

قال: «اصبر أنت الآخر بالخواجة ينى بتاعك ده!». ثم عقب همساً: «انتو الاتنين عاجبنى أوى. ابو طويلة ده أنا كفرت منه. نِفسى يدوله تأبيدة».

تذكرت جبور. كان يثير ضيق حارسه المسن. كان جبور يريد أن يسرع الخطو، إلا أن الشيخ لم يكن يستطيع. كان جبور يستشيط غضباً ويقول له: «يا ألدغ!».

قال عديد: «إذا زودت فى الشتيمة هانقولك زى جبور ما كان بيقول لك».

قال: «ملعون أبوك».

قال عديد: «لا ...» وأطال فى حرف الألف.

فقال: «شفتو بأه انكو كلكو ولاد قحبة!».

كان يستاء من أن يوصف بالألثغ. كان يغضب غضبًا عارمًا من هذه الكلمة. قال لعديد:

– «ده واد مش تمام. طلع روحى برجليه الطويلة دى. وآخرتها يقول لى يا ألدغ!».

قلت: «ما قلتش هيبتدوا إمتى».

لم يكن الحارس الشيخ منتبهًا. تابع حديثه بنفس النبرة: «هو بصراحةعفى. صحيح إحنا بقينا كراكيب، لكن ...».

قال حارسى: «بيه ... خلاص بأه!».

قال الحارس الشيخ: «كنت باتضايق منه اوى. لو كنت مكان رئيس المحكمة كنت اديته تأبيدة. هو ابن القحبة ده اللى سود عيشتهم».

كنت أنظر إلى الخارج خلل الباب الصغير؛ أرضية السماء البنفسجية الداكنة استحالت الآن وراء الباب رمادية داكنة. دون إرادة تذكرت أمى. سمعت بإلحاح أنها أتت وأنها تقف وراء الباب. وسمعت

أنهم نهروها. لهذا فائدة أيضًا. فما كنت لأطيق رؤيتهم وهم ينهرونها. لابد أنهم أمسكوا بكتفيها الضئيلين وعنفوها. فى نفس اليوم حين كنت خارجًا من الغرفة رأيت فى عيون العسكر أمارات الخسة. عندما كنت فى طريقى لركوب العربة، رأيت هذه الأمارات، لكنى لم أكن أدرى لمن تكون أمارات الخسة هذه فى عيون العسكر. وبعد أن جلست بالعربة، قال الحارس لى ذلك، ولكن كان فات الأوان. خرة الأمر من يدى، ولم يكن باستطاعتى سوى أن أراها بقدها النحيل المكوم من وراء الزجاج واقفة بجوار باب المعسكر. حينئذ أطلقت عليهم ما ورد على لسانى من سباب.

قلت: «يا عديمى الشرف» فاندهش حارسى من غضبتى المفاجئة.

قال عديد: «ياسين، قلت لك مش جاية. لحد امتى هتفضل تفكر فيها؟!».

قال حارسى: «ندهوا عليكم. قوموا لو سمحتم».

بيدى الطليقة مسحت على شعر عديد ونهضت. كان شعره مبللاً وأضفت قطرات المطر العالقة به كحبات الندى ملمسًا حانيًا».

قلت: «مع السلامة!».

قال: «ياسين!» لم أكن أعرف ماذا يريد أن يقول حيث قاطعه الشيخ قائلاً: سيبه يمشى بأه!».

وسحبنى من يدى. قال عديد فى غضب: «يا ألدغ!».

كان عديد يحاول أن يحتفظ بهدوئه من أجلى. وحين قال «يا ألدغ» أدركت أنه غضب. اندفعت خارجًا مع الحارس ودلفت إلى قاعة المحكمة. كانت جدران القاعة صفراء. رجال جالسون. بدا لى كل شيء شاحبًا. طلت الصفرة الوجوه بلون الزعفران. كان الهواء ينفث رائحة الكبريت. تحملت هذه السحن العابسة المنهكة ساعتين كاملتين تحت ضغط ثقيل. وحين خرجت كنت منقبضًا منهكًا.

قال حارسى: «ها!».

كان عديد واقفًا بباب الغرفة. أشرت له بإصبعين قائلاً: «سنتين».

وحين مر بجانبى فى طريقه إلى داخل القاعة قال: «انا كنت عارف».

كانت على وجهه ابتسامة طفولية حزينة، ونوع من الخوف. طلب من الجندى المكلف بحراستى أن يأخذونى بسرعة.

كان قلبى لايزال منقبضًا. كان هواء القاعة الثقيل المقبض الذى تحملته لساعتين كاملتين لايزال جاثمًا على أنفاسى.

كان عديد دائم التلفت حوله فى خوف كالعصفور.

قال حارسى: «لازم نمشى بسرعة».

قلت: «لأ، خلينا ندخل الأوضة ونقعد نستنى عديد هناك».

قال: «لأ؟! هو بمزاجنا؟! دول اتصلوا بالتلفون. لازم نروح عالسجن واحد واحد».

رفعت يدى. قيد الحارس يده إلى يدى معًا وخرجنا من المعسكر. كان الجو غائمًا، وكانت آثار طين حذاء عديد لاتزال على الأسفلت أمام المعسكر، وعلى الطريق المقابل حصان يجر عربة ثقيلة، وكان سائقها واقفًا على العربة ممسكًا بلجام الحصان. قلنسوته كست رأسه فأكسبت وجهه لونًا داكنًا فبدا مبهم الملامح من بعيد، مثل لوحات فان جوخ. ظللت أنظر إلى العربة من بعيد حتى انمحت شيئًا فشيئًا فى الهواء الرمادى، ثم خطونا أنا والحارس والقيد فى يدينا معًا على تراب بنى اللون رطب لزج. كانت آثار قدمى عديد يملؤها الماء. لم يعد ممكنًا أن أضع قدمى فيها. لم يكن التراب يعلق بحذائى مهما ضربت بقدمى. كان حذائى كتانيًا رقيقًا، فكنت إذا وضعت قدمى مكان قدم عديد كان الماء يغمرها. كنت أنظر فى شوق إلى الفضاء من حولى. كنت أعلم أن ما هو آتٍ لا يزيد عن مجرد بقاء على قيد الحياة فى غرفة مغلقة مملة. كنت أود أن أحتفظ فى ذاكرتى بالمشاهد التى أرى لآخر مرة: وجه سائق العربة، آثار قدمى عديد، الجو الغائم، ورائحة الرطوبة المنتشرة فيه ... كنت أود أن أحتفظ بالأصوات فى ذاكرتى: سباب الحارس الشيخ، نقرات قطرات المطر، هدير عجلات العربة ... وحين بلغنا الطريق، عدت أركل طين حذائى. وجه حارسى كان لايزال أبيض شاحبًا. بلا إرادة ألقيت نظرة على بوابة المعسكر. امرأة تتشح بعباءة سوداء وقفت فى ركن قصى

تحت المطر تنظر إليّ. التفت بسرعة وفى حدة لكن الأصفاد منعتنى، توقفت ولوحت لأمى بيدى الطليقة.

خرمشهر، يناير ١٩٧٣

القرية الجديدة

محمود كيانوش

ذات يوم، كان هناك غراب وحيد التهم أفراخه صقر لا يرحم، فغادر عشه بالمدينة وطار إلى الصحراء. ظل يطير لفترة فى السماء الصافية الواسعة، ثم ألقى نظرة إلى القفار الجافة الموحشة، وأخذ يبكى حزنًا على أفراخه. كان قلبه حزينًا ومظلمًا فلم تر عيناه شيئًا جميلاً أو منيرًا.

وفى أثناء تحليقه على غير هدى، رأى شجرة صنار تقف وحيدة وسط القفار بعيداً عن سفح الجبل العالى. كان التعب نال منه ففكر فى أن يحط فوق الشجرة. فهبط وحط فوق أعلى أغصان شجرة الصنار وقال:

«سلام أيتها الشجرة المجهولة. أنا غراب وحيد حزين. نال منى التعب من طول الطيران. أتسمحين لى أن أستريح فوق غصنك ساعة؟».

كانت شجرة الصنار أيضًا وحيدة بلا أنيس، ففرحت بأن يأتى إليها أحد. وقالت للغراب:

«طبعًا أسمح. فأنا مثلك. أربعون سنة وأنا أعيش وحيدة فى هذه الصحراء بلا أنيس. يمر بى كل حين مسافر نال منه التعب فيجلس فى ظلى ليستريح دون أن يكلمنى ولو كلمة، ثم يحمل متاعه ويمضى».

تنهد الغراب وقال:

«صحيح، لا ألم يضاهى فى مرارته ألم الوحدة. فالحياة بلا أنيس لا معنى لها. كنتُ أعيش فى المدينة، ولم تكن حياتى سيئة. ومنذ عدة أيام كنت عائدًا من دورتى اليومية، فلم أجد صغارى. لم يبق منهم فى العش سوى حفنة من ريش. وأدركت النكبة التى حلت بى. التهمهم الصقر الذى لا يرحم وعن آخرهم».

وهنا توقف الغراب عن الكلام وأخذ يبكى وينتحب. فقالت شجرة الصنار وهى حزينة:

«لا تحزن. هكذا الدنيا. ففيها الشر وفيها الخير أيضًا. فيها الفرح وفيها الحزن. ينبغى للمرء أن يتدبر أمره. أترى غصنى هذا؟ كسرته الريح وظل ملتصقًا بجذعى جافًا بلا أوراق. ماذا بيدى؟ الريح أقوى منى. وإن حزنت الآن فإن حزنى لن يعيد الاخضرار إلى الغصن».

هدأ الغراب قليلاً وقال:

«كلانا سواء، وحيدان وبلا أنيس. كم أود أن أبقى هنا معك! فقلبى ضاق بالمدينة. لا أستطيع أن أنظر المكان بعد أن خلا من أفراخى. فإن لم يكن فى ذلك ضيق لكِ، أقيم لى عشًا فوق غصنك هذا».

قالت الشجرة: «أتمنى ذلك من الله. فإن لك جناحين، يمكنك أن تطير وتعود إليّ بأخبار الجبل وينابيع الماء وإخوتى الأفضل حالاً. كم أتمنى أن أعرف ما وراء هذا الجبل. لابد أن هناك عيون ماء جارٍ وبارد زلال وأشجاراً لا تعانى العطش مثلى ولا تعيش دومًا فى انتظار المطر. تحط فوق أغصانها طيور تغرد، ويمشى الناس فى ظلها. آه، ما أحلاها حياة! ما أعذب دنياهم الهنيئة الصافية!».

قال الغراب: «إن أنا أقمت عشى هنا لن أدعك وحيدة يائسة هكذا».

قالت الشجرة: «اليوم يوم عيد عندى. فأخيراً وبعد أربعين سنة أصبح لى صديق مثلك».

أنسى الفرح الغراب حزنه على أفراخه مؤقتًا فرفرف بجناحيه وأخذ ينعق:

«صنارة خضراء جميلة

كم طيبة وحنون هى!

تظلنا من الشمس الحارقة.

جيك جيك!

حيثما كانت هناك شجرة

هناك صوت حياة

بالفرح والحبور

تمتلئ قلوب الغربان.

جيك جيك!

على غصنك العالى

أقيم لى عشاً

وبعطفك الحانى

لن أحزن بعد الآن

جيك جيك!».

قالت الشجرة وقد فرحت بهذه الصداقة:

«أيها الغراب الرقيق، غنِّ،

انعق لأجلى،

افرح وأقم عشك

بين أغصانى».

قال الغراب: «عهد علىّ أن أفعل لأجلك كل ما أستطيع. لن أتركك وحيدة بلا ماء. والآن وقد زال عنى التعب، سأذهب وألقى نظرة وراء هذا الجبل وأتيك بخبر».

ثم رفرف بجناحيه وطار إلى صدر السماء. شاهدت الشجرة صديقها وهو يحلق فى الهواء وأضاءت قلبها حرارة الأمل. طار الغراب وطار إلى أن وصل وراء الجبل. ما أصفاه من وادٍ! ما أعذب هواءه! يا لها من جداول زلال صافية! كان الوادى كله خضرة ونماءً، وكانت خضرته تصل إلى وسط الجبل. كان هناك نسيم عليل يهب وكانت سنابل القمح تنام وتصحو كأنها بساط مخملى أخضر. وكانت أكواخ الفلاحين مختبئة وسط الأغصان ونوافذها الصغيرة تومض تحت الشمس.

طار الغراب بحذى الجدول وظل يطير إلى أن بلغ فتحة فى الجبل، فحط بجوار نبع، وشرب عدة جرعات من مائه الرطب العذب، ثم أطلق نعقة عالية. قال النبع وهو يموج برمال ناعمة براقة تتراقص تحت الشمس:

«أيها الغراب الجميل، ماذا تريد؟»

قال الغراب: «ما أعذب ماءك! روى عطشى وأنسانى الجوع».

قال النبع: «أنا أنبع من قلب هذا الجبل وسأظل جاريًا ما بقيت الدنيا».

قال الغراب: «أتمنى أن تظل تجرى دائمًا ويفيد من وجودك الكل. ولكن للأسف هناك شجرة قريبة من هنا تتمنى أن تراك، ولكنها لا تستطيع أن تأتى إليك».

قال النبع: «وأين هذه الشجرة؟ ما من شجرة أو زهرة أو نبات فى هذه المنطقة كلها تركته بلا ماء. أحسنتَ إذ أنبأتنى. كنت أظن أنى أصل إلى كل مكان وأنى محوت الجفاف عن أرضى».

قال الغراب: «لا تتصور كم هى وحيدة ومسكينة هذه الشجرة! عطفها وقلبها الطيب يبكيانى كلما تذكرتها. ومن سوء الطالع أن ضربتها الريح فكسرت غصنًا طويلاً من أغصانها. وطلبت منى أن أبلغك رسالتها. فهى تعلم أنك هنا. قالت إنها رأتك فى المنام فى صيف حار جاف».

قال النبع: «كم تبلغ المسافة إليها؟» .

قال الغراب: «فرسخ تقريبًا».

فكر النبع وقال: «إذن يستغرق الأمر شهرًا حتى أصل إليها. اعطنى عنوانها بدقة حتى أبدأ عملى من اليوم».

فأعطاه الغراب عنوان الصحراء ومكان الشجرة وودع النبع سعيدًا وقال:

«أيها النبع الجارى

ماءك زلال صافٍ

ينبع من الجبل

ويهب الحياة للتراب

أينما ذهبت

ينبت النبات

وتلقى الوردة السلام

على الصخرة السوداء

يا أبا الأرض

يا نبع يا فياض،

عمرت بك الأرض

كلها أبداً».

ثم طار الغراب سعيداً فى سرور حتى يعود للشجرة بهذا الخبر السار. وما أن حط على غصنها العالى حتى قال:

«جئتكِ بخبر سار».

قالت شجرة الصنار: «جُعلتَ دوماً بشير خير. إلىّ به».

دار الغراب ونعق ثم قال:

«لا وحدة ولا عطش بعد اليوم. ستتبدل حياتنا فى غضون شهر. على الجانب الآخر من الجبل وادٍ نضير ونبع غزير. قصصت على النبع قصتك فرقّ قلبه لحالك، ووعد بأن يأتى إليكِ بعد شهر».

هزت الشجرة أغصانها فرحًا وقبّلت الغراب بأوراقها.

قال الغراب: «وأنا سأنشغل من الآن بإقامة عشي. أريده عشًا كبيرًا جميلاً لا نظير له».

قالت الصنارة: «ولك أن تفيد من أغصانى الجافة اللينة فى صنع عشك. وليس بوسعى أى عون آخر أقدمه لك».

ومنذ ذلك اليوم ظل الغراب يغدو ساعة إلى الوادى النضير على الجانب الآخر من الجبل لجلب رزقه، ثم يقضى بقية وقته فى صنع عشه. وفى الليلة التاسعة والعشرين أتم الغراب عشه. واستقر الغراب فى عشه وشرع فى إطلاع الصنارة على ما رأى وما سمع فى يومه. وفى تلك الليلة، ظل كلاهما يقظين حتى الصباح وقلوبهما فى لهفة فى انتظار مجيء النبع.

كان الوقت قرب الغروب حين قالت الصنارة: «إنى أحس بطعم الماء».

قال الغراب: «وأنا أسمع خريرًا».

طار الغراب وحط على طرف أعلى غصن ونظر. تحت شمس الغسق الحمراء رأى جدولاً يتلوى قادمًا كثعبان ذهبى طويل. قال الغراب:

«جاء النبع. جاء النبع!».

ارتجفت الصنارة من فرط فرحها. وحين بلغ النبع أسفل جذع الصنارة قال:

«سلام عليكِ أيتها الصديقة المنسية، يا من بقيتِ فى مكانك وحيدة عطشى! لم لم ترسلى لى رسالة من قبل؟».

قالت الشجرة: «لم أجد صديقًا طيبًا حنونًا كالغراب ليبلغك رسالتى إلا الآن».

دار الجدول حول الشجرة وافترش الأرض حولها، فتبسمت الأرض الجافة المشققة من فرط سرورها. وهبط الغراب وحفر بمنقاره حفرة صغيرة حول جذع الشجرة ليتمكن الجدول من الانسياب فيها دون عناء. تنشقت الشجرة الهواء وقالت بهدوء:

«عادت الحياة للروح المنهكة الصامتة

بفرحة النضارة والشباب.

طبتَ أيها الغراب بقلبك المليء بالمحبة،

ويا أيها الجدول، دمتَ حيًا».

ولم يمض وقت طويل حتى نبتت الأعشاب وبراعم الورود البرية الصغيرة حول الشجرة وعلى جوانب الجدول، ورسمت خطًا أخضر براقًا على صدر الصحراء. وظل الجدول كل يوم يروى دائرة أوسع حول الشجرة وظلت النباتات الصغيرة تحييه بالسلام.

وذات يوم، مر عابر سبيل متعَب فى سفر عبر الصحراء، فرأى الشجرة والجدول، فحط متاعه وغسل رأسه ووجهه وجلس فى ظل الصنارة. وحين عاد الغراب من جولته اليومية فرح لرؤية الإنسان. واقترب من الرجل وحط على الأرض وقال:

«سلام أيها العابر الوحيد. من أين أتيتَ وإلى أين مقصدك؟».

قال الرجل: «أنا آتٍ من المدينة. خرجت هائمًا لا أعرف إلى أين أذهب، فأسلمت نفسى للأقدار».

قال الغراب: «وجاءت بك الأقدار إلى هنا. أتمنى أن يحالفك الحظ».

قال الرجل: «أيها الغراب الطيب، طال عمرك؛ كأنك تعرف شيئًا لا أعرفه».

قال الغراب: «هذا صحيح. قلبك دليلك. أريد أن أبوح لك بسر لو سمعته نجوتَ من الشرود».

قال الرجل: «حسن. لو أنجانى سرك من الشرود والوحدة أظل ما حييت حافظًا لجميلك وصديقًا لك».

اقترب الغراب منه وقال:

«هذه الشجرة وهذا الجدول بلا صاحب. أنا الساكن المتحرك الوحيد بهذه البقعة الحديثة العمران. وأنت مثلى وحيد بلا أهل. فابق معنا. لعل الأقدار قادتك إلى هنا».

هلل الرجل فرحًا وتلفت حوله. كانت الصحراء تمتد من كل جانب نحو الأفق. ففكر لحظة ثم قال:

«سأبقى هنا وأعمل على إعمار هذه الأرض. وأنت يا صديقى، لا تتركنى وحيدًا وكن لى عونًا فى سعيى وكدحى».

ظلت الشجرة صامتة حتى تلك اللحظة وتصغى لحديثهما، ثم قالت:

«خطوة عزيزة يا إنسان، يا رمز العمران! سأكون أنا والغراب صديقين ومعينين لك».

حل الرجل متاعه وتناول لقمة خبز وقطعة جبن وشرب من ماء الجدول وسقى الغراب. ثم نهض من مكانه وأخرج من متاعه فأسًا وضرب أول ضربة عمران على تلك الأرض. وحفر جدولاً صغيراً حول شجرة الصنار حتى تحصل على مزيد من الماء. وفى صباح اليوم التالى، ودع الغراب والشجرة وقال:

«سأذهب إلى المدينة وأعود بعدد من أصدقائى ممن يعانون الوحدة ولا أهل لهم. فالعمران لا يتم بيدين وحيدتين. وأعدكما أن أوجد هنا أجمل قرية فى الدنيا فى غضون بضعة أشهر».

قالت الصنارة: «وأى اسم ستختار لهذه القرية؟».

فكر الرجل قليلاً ثم قال: «ما رأيكما إن أسميناها "قرية غراب"؟».

قال الغراب معترضاً: «لا لا؛ ينبغى أن نسمى هذه القرية "صنارة". فالفضل فى عمران هذه القرية يعود لصديقتنا شجرة الصنار».

قالت الصنارة: «لا، "قرية غراب" اسم جميل. فالحقيقة أن الغراب هو من عمّر المكان».

قال الغراب: «لا، ينبغى أن يكون اسم القرية "صنارة"».

قال الرجل: «"صنارة"، "صنارة"! اسم جميل! فالشجرة تذكر الإنسان بالماء، والماء سبب وجود الطير والحيوان والإنسان جميعًا. أستودعك الله أيها الغراب الطيب، أستودعكِ الله أيتها الصنارة العالية، أستودعك الله يا قرية "صنارة"!».

قالت الشجرة والغراب والجدول معًا:

«لا تتأخر يا إنسان. نحن فى انتظارك».

مليكة روحي

كلي ترقي

كاشـان ، وصلت ، أحسن أرهاقًا ، أضـرب بالصـحـراء بلا دليل ، أسير على غير هدى ، الجو لطيف جميل ، تملأ الهواء ذرات رطبة غير مرئية ، وعبير .

سـألت : « يا سـيـد حـيـدرى ، مـا دوركم فى هـذه الثـورة ؟ » كـان يرتعد وقد تملكه الأرق من هول الأثارة .

قلت لزوجتى : « يسـاورنى الشك فى صـاحـب البيت ، أظنه يتـعامل مع إسرائيل » .

كانت تجلس بجوار النافذة ، تجلو ملاعقها وشوكها الفضية .

كانت سعيدة تتغنى همسًا بنشيد ثورى .

السمـاد ، فوق رأسى قريبة ملموسة فى متناول اليد ، والصـحـراء ، خـضـراء تمتـد خـضـرتهـا حـتى سـفح الجبل ، كسـتـهـا الورود المسكيـة والشـقـائق الحـمـراء ، وفـرة من أشـجـار الرمـان انتـشـرت فى سـفـوح

الوديان ، والجبال ، بنفسجية ولازوردية وحمراء ، عارية أنثوية لها ملامح جسد امرأة عجوز ، والأفق ممتد إلى اللانهاية ، إلى العدم ، وعلى البعد ، فى ظل شجرة ، نام فوق التراب رجل ، وهنا ، بالقرب منى ، عند منعطف طريق ترابى ، وقف حارس يصلى .

تحت قدمى ، نبتت أصغر ورود الدنيا .

سألت : « سيدى الشاعر ، أين ضميركم التاريخى ؟ »

قال : « لم أفق بعد من دهشتى من هذه الوردة » .

الجو ، كم هو صاف عليل ، والنسيم ينشر الشذى ، شذى الأشجار الريانة والورود الآخذة فى التفتح ، وكأنها قد مرت خلال سماء مزركشة أو احتوتها أنفاش عطرة ، لا يزال الحارس بمكانة ، ساجد ، جبهته على الأرض .

والدى يعارض أعدام الحراس ولا يفهم معنى « محاربة اللّٰه » .

امرأتى تقول : « الثأر فى الإسلام مباح » ، وتنظر فى ذهول إلى صور من تم اعدامهم .

الرفاق يقولون : « آن الرحيل » .

الرفاق يقولون : « يجب زن نبقى ، ونتكلم ، ونكتب ، ونقاتل » .

الرفاق يفكرون بسرعة فى تأسيس صحيفة ونقابة .

السيد حيدرى ملأ القبو فى بيته بالطحين والأرز والكيروسين والحبوب ، وأحضر بسطه الحريرية إلى دارنا ، سحب أمواله من البنك ، وعلق عملاته الذهبية فى كيس يتدلى من عنقة .

زوجتى اكتشفت الله فجأة ، وهاج هياجها ، كانت تسهر الليل تقرأ الفقه فى عجلة وفى أوقات النهار تذهب مهرولة إلى فصل لتوعية المرأة بالتعاليم الدينية ، قلمت أظافرها الحمراء ، ومسحت الظلال الخضراء من فوق عينيها ، ثابت ، لا تلعب القمار ، غطت شعرها ، وتحرص كل الحرص ألا يرى أحد شحمة أذنيها ، تجلس إلى جانبى تنظر فى أسى ، تحدثنى عن كرامات الأمام الرضا ، وعن فضل الله ، عن شرور الإمبريالية وضعة الشيوعية .

تسألنى : « ألا تؤمن بالله ؟ »

أفكر فى الرجل الذى انتحر ليثبت أن الله غير موجود ، وأن الإنسان مالك لمصيره وإنه ليس ثمة إرادة فوق إرادته .

تسألنى : « ألا تؤمن بالجنة والنار ؟ »

تسمك بيدى ، جلدها دافئ ، وأنفاسها لها رائحة الحمى ، لا تبدو فى حالتها الطبيعية لا تشبه أحداً أعرفه تقضى ليلها ساهرة ، كلما نظرت إليها رأيت عينيها مفتوحتين ، فيغوص قلبى .

الجامعة مزدحمة ، ثمة من يلقى خطبة ، وجموع الناس تردد الصلوات ، فوق دكة يباع اللفت والبطاطا المسلوقة والفول المطبوخ ،

وصورة ولدها الشهيد ، من أجل العدل جاءت ، ووراء آية من آيات الله مجهول تسير .

الطريق مغلق ، أدور مبتعدا ، الأرصفة مغطاة بالكتب وشرائط الأناشيد الدينية والنعال الكتانية وبنطلونات الجينز وصور الشهداء ، في ركن من الأركان ، فدائي يعلم جمعا من الناس طريقة استعمال رشاش عوزي ، وتحت الأشجار رجل وزوجته وأطفاله وقد مدوا مائدة وانشغلوا بتقسيم الطعام ، صبي يقف أمامي ، يسألني عن حالي ، لا أعرفه ، جهه ملطخ بالسواد وقد لف رقبته بشال مربعات ، سترته تبدو أكبر منه ، وحذاؤه أيضاً أكبر من قدمه عدة نمر .

ألغيت محاضرتي ، طلابي لديهم جلسة إذ يحاكمون الأساتذة غيابياً ، يضربون بقبضتهم الجدران اعتراضاً ، طلابي يهرولون بممرات الكلية بحثاً عن معنى الحرية .

يسألون : « سيدي ، ما هي وحدة الكلمة ؟ المادة هي الأصل أم الفكرة ؟ هل الحقيقة هي التاريخ أم الله ؟ .

طلابي يقرءون « محاكمات روزيه » و « رسائل ماركس » و « توضيح المسائل » ويذهلون .

يطرق الباب ، الوقت منتصف الليل ، امرأة تهب من مرقدها ذاهلة ، يسرع والدي لإخفاء زجاجات العرق ، إنه السيد حيدري ، جلب لنا لبنا رائباً ، ولحماً بارداً وجبنا وزيت سمك هندياً ، تتهدج أنفاسه ، يقول : « خلص البنزين الطحين منعدم ، تفشت الكوليرا والجدري ،

سرعان ما سيأكل الناس بعضهم بعضًا ، سيموت الجميع من زمهرير البرد .

امرأتى تبكى وتقول أن الأمام سيأتى لنا بالطعام ، يضحك ولدى ويدق بحقد على أجولة الطحين ، ولدى يعتقد أن الثورة الحقة آتية فيما بعد وأن النصر للجماهير المقهورة ، فى أوقات النهار يذهب إلى المصانع ولايدرى كيف يقيم صداقة مع العمال ، يرتدى ثيابًا قذرة وينام الليل بحذائه .

الصحراء ، كم هى بعيدة عن هذا الصخب ، وكم هى بريئة لم تمسسها يد ، لا أدرى كيف عزمت على السفر ، جاء الصباح فى عجلة ، نهضت ومضيت ، كانت زوجتى منهمكة فى الصلاة ، تعلمتها حديثًا ولا تحفظ الآيات القرآنية ، فكتبتها على ورق ألصقته على الحائط لتقرأ منه .

كان صاحب البيت بالفناد ، هب واقفًا حين رآنى ، كان يرتعد ، وكان ينتظر أحدًا ، نظر إلى الحقيبة فى يدى .

سأل : « قررت الهرب ؟ »

قلت : « لا »

سأل : « اسمك أيضًا فى القائمة ؟ »

هززت رأسى .

قال : سيأخذونني ، اليوم أو غداً ، وسيأخذونك أيضاً ، سيأخذون الجميع » .

كان والدي أيضًا مستيقظا ، كان جاليًا خلف النافذة يضبط العود ، أنه يقضي الليل ساهراً ، بيده كيس زبيب وحلة للطهي السريع ، وينهمك في صنع العرق البيتي ، في تلك الفترة كان يقوم بتعليم العود ، إلا أن تلاميذه لم يعودوا يأتون ، مسيو آرداواز يأتي في أوقات العصر لزيارته ، يحتسيان العرق ، مسيو آرداواز أغلق متجره الذي كان يبيع فيه الخمور ، أضرموا النار في متجره ، حول إحدى حجرات بيته إلى دكان يبيع فيه الخبز وكمبوت الكمثرى ، مسيو آرداواز يخشى الامبريالية وقد أعطى صوته للجمهورية الإسلامية .

السيد حيدري يبحث عن عمل في اللجنة ، يقوم بالحراسة في أوقات الليل ، وكيس عملاته الذهبية تحت أبطه .

أقف ، فجأة ينتهي الطريق الترابي ، في مواجهتي ، حقول القمح وبساتين الخيار والزهور الملونة يحوطها جدار من جذوع الشجر وعلى البعد عند سفح الجبل ، نامت مدينة صامتة بين أحضان أشجار السرو ، وعلى منحدر ، طواحين مهجورة ونهر فاض بمائه وعين فياضه تحت غطاء من الصخور ، أحس خفة ونشاطا ، إحساس طائر مهاجر يسبح في الفضاء أراد في نفسي :

« يالشذى النباتات بالرياض !

أنا في هذه المدينة

أسعى وراء شيء ،

وراء النوم ربما ،

وراء ضوء ، بسمة ، أو حصاة » .

وعلى مدى أبعد ، فوق تل ، أرى مورد ماء ضخم فى حجرة طينية ، بلا باب ولا معلم محددة ، أحس بالعطش ، ماء راكد تسبح فيه أسماك دقيقة الحجم وزواحف ، أغسل وجهى ، أرهف السمع ، طائر على البعد يغرد ، أخرج سيجارة ، شعلة الكبريت تخيف جرذا فيلوذ بالفرار ، أواصل السير ، تحت قدمى شيء يخشخش وراء ظهرى تماماً ، أحث الخطى ، كأنى على موعد مع أحد أو كان .

قال صاحب البيت : « لابد سيزخذونى ، سيأخذونك أنت أيضاً » .

يقول ولدى : « ينبغى قتل الجميع ! » - وهو عاجز عن قتل حشرة تحت قدميه ، يقضى الليل فى القاء الخطب ، ويكتب على جدران الفناء شعارات بلون أحمر ، تلقى ضرباً مبرحاً ، وتحت عينية أزرق اللون .

امرأة عجوز تجلس بالحقول ، وإلى جوارها بقجة ، تترسب الشمس تحت جلدى ، أترنح كمن أصابته الحمى ، ويود زن تصيبه الحمى ، العجوز تمضع شيئًا لا ينتهى .

والذى حائر مضطرب ، يسب الجميع ويطوى الأرض سعيًا وراد الزبيب الجيد ، تفوح رائحة العرق الذى يصنعه بالبيت ، جلدوا مسيو أرداواز عشرين جلدة بالسياط .

أفكر فى ابنتى التى بلغت الخامسة عشرة وهى عاشقة ، تمشى حافية القدمين تحت الأشجار تكلم نفسها ، فمها ممتلئ ، أصبحت بدينة ، بدينة جداً ، تخفى طعامها تحت مرقدها ، وتأكل فى منتصف الليالى ، جائعة دائمًا ، حين كانت طفلة ، كانت تأكل الطين وزوراق الشجر والجير ، وهى الآن عاشقة ، تعشق شخصاً لا نعرفه وتبكى .

ألف ألف شخص وقفوا يصلون جماعة ، ألف ألف شخص ينحنون ساجدين ، امرأة وقفت بجوارى ترتعد ، وتدعو ، النساء تحت الأحجبة السوداء ، ملأن الحارت ، صديقى الشاعر طريح الفراش ، يقولون أنه قد مسه الجنون ، يضرب رأسه فى الجدران ، أذهب لزيارته ، قلبى متحجر منقبض ، نائم ، فى شبه وعى ، شعره مبلل بالعرق ، والدته إلى جوار الباب ، فى الممر ، جلست تحدث نفسها همسا ، أدخل ، تحت عينيه وحول شفتيه أزرق .

امرأته لا تفهم ، امرأته ذاهلة ، رأتنى فانخرطت فى البكاء ، تقول : « لا أدرى ماذا يريد ، خائف ، يعلن توبته على الدوام ، فى اليوم يصلى مائتى ركعة ويرى كل شىء نجسًا ، فى أوقات الغروب يصعد إلى السطح ، ومن أذانه وتكبيره يخرج الجيران مذعورين ، فى الليل ينتحب ، ومن خوفه من لقاء الله لا ينام » .

لا أصدق ، كم كان صامتا هادئا وغامضا ، كان يأتى فى ليالى شهر محرم إلى دارنا ، كان يجلس ولا يقول شيئًا ، كنا ننصت ، كلانا غارقان فى الصمت ، إلى صيحات التكبير من فوق أسطح المنازل غير

المرئية ، وإلى الهمهمات الغريبة من الحارات البعيدة وصوت الرصاص المتناثر فى الظلام ، وصراخ صادر من نافذة الجيران يدعو الجميع إلى القيام ، ومئات النوافذ كانت تفتح ، ونشاد وشيوخ وأطفال يخرجون متناثرين وكان صديقى صامتا لا ينبس .

أتوقف ، السماء خضراء وكأنها من فصيلة النبات ، الصحراء تسود بلا مقدمات ، تحاصرنى قفار يكسوها تراب جاف ، تحت قدمى قفر خلت من الحياة تزحف نحو بلاد مجهولة مظلمة ، وماسورة مجارى فخارية تنتهى هنا ، وظلال مبهمة متداخلة ، تراب مخيف يثير الوساوس . كأنه امرأة نهمة ، امرأة مرتمية فى عطور الليل السامة وأنفاسه الملتهبة .

ظللت الطريق ، انعدمت الحياة ، منهك ، الجو يميل إلى الظلام ، أتقدم ، أعلم أنى لابد عائد ، لا أعلم أن القفر تغوى ولا ترحم ، رغم ذلك استمر مسحوراً مستسلماً .

امرأتى تقول : « ليتنا كنا نعلم أين الأمام الغائب ؟ »

على البعد ، مستقر الشياطين والأرواح الشاردة .

أعدموا حارس حينا ، امرأته حامل ، تأتى كل يوم بأطفالها على تفاوت أعمارهم إلى مفترق الطريق وتلقى الحجارة على السيارات .

امرأتى رأت فى المنام السماء وقد اضرمت فيها النيران ، وهى خائفة .

يدى لها رائحة الدم ، دم حار سفك حديثًا ، دم صبى لا أعرف حتى اسمه ، كان بجانبى ، يتحدث ويجرى ، كان يهز قبضته الصغيرة فى الهواء ، كان يهدد الجنود ، فقدت أثره عند منعطف الطريق ، كان ثمة مبنى يحترق ، كان الشارع غارقًا فى النار والدخان ، كانت النساء تجرى والرجال يغلقون متاجرهم فى عجلة ، كان اطلاق الرصاص قد بدأ ، رأيته مرة أخرى ، كان منحنيًا ، كانت يداه تحيطان بجذع شجرة ، كان فاغرًا فاه ينظر إلى ، كان يريد أن يقول شيئًا ، كان فى عمر ولدى ، ولدى الصغير كنت قد فقدت عقلى ، كان صوت سرينة الإسعاف قد أصابنى بالجنون ، رفعته ، كان ثقيلاً ، لم يكن يتنفس ، ناديت أحدًا ، اعترضت طريق رجل ، ذهبت وراء جندى ، كانت رأسه على صدرى ، لم يكن يتعدى الرابعة أو الخامسة عشرة من عمره ، فتحت جيوبه ، كانت خاوية ، آه يا طفلى فاقد الهوية ! كان أعلى فمه مخضراً ببواكير شارب ، كانت يده لا تزال فى يدى .

امرأتى توقظنى ، ترش ماء على وجهى ، يبللنى العرق ، ريقى جاف ، أنفاسى تتردد ، أفتح النافذة ، أخرج إلى الشرفة ، الثلج يتساقط ، جسمى دافئ ، أحترق ، أقبض الثلج فى يدى وأدلك به رقبتى ، رائحة الدم تنبعث من يدى ، دم حار برىء .

يعتقد أبى أن عصر الظلام قد دنا من نقطة الانفجار ، وأن فاجعة كبرى فى الطريق .

أخذوا صاحب البيت .

يعتقد ولدى أن صاحب البيت يجب أن يقتل ، ولدى يعارض النظام الرأسمالى .

ابنتى أيضًا عاشقة ، لديها ألبوم للفراشات الملونة والزهور المجففة ، وتجمع صور الفنانين الأجانب ، سعيدة هى بأن المدارس فى عطلة ، تنام حتى الظهيرة ، تضع على شعرها شرائط مخملية ، وقد طلت أظافرها بألوان خضراء وصفراء وبنفسجية .

امرأتى تؤمن بالجهاد ، كنست حارة حينا الترابية فى يوم نظافة المدينة ، ونثرت النشارة على الرصيف ، امرأتى تفكر أيضًا فى أعداد ملجأ للفقراء ، وتبرعت بأقراطها الفضية للمسجد الكائن على ناصية الحارة .

شخص ينادينى من أطراف الصحراء ، شخص خفى ، يمشى بجانبى متهدج الأنفاس ، أخاف ، أتوقف ، القفر ترمقنى بحيرة ، القفر تبتلعنى ، ثمة أحساس غريب فى الفضاء وروح مضطربة تهيم حولى .

اسأل : « يا سيد حيدرى ، ماسر نجاحك ؟ » .

امرأتى تقول : بدن الكافر كله ، حتى شعره وافرازات بدنه وأظافره ، نجس » .

الصحراء تنبض ، تتحرك ، تحاصرنى التلال المتحركة والرمال السيارة ، أحدث نفسى ، أغنى ، أضحك ، أصرخ : اللّه أكبر ، أعلى ، من أعماق قلبى ، أجرى .

طلابى يقولون : « الموت للفلسفة ، الموت للرجعية ! » .

طلابى يعشقون العلوم الاجتماعية .

أتوقف ، تخفت الهمهمات ، الصحراء أليفة رحيمة ، لا أصدق ، أرى مناما ، أمامى روضة خضراء ودار بيضاء بين جنوع الأشجار ، تبدو مستحيلة فى جمالها وبهائها ، فتظل طيفا فى الذاكرة ، كأنها تبتت من الأرض وتنزلت من السماء ، أتقدم ببطء وفى رجل ، أخشى أن أرفع ناظرى عنها فتختفى ، أخشى أن تعلو أنفاسى فتنهار ، باب صغير نصف مفتوح باتجاه الجنوب ، أدخل ، فناء ملىء بالأشجار خال ، صامت ، غامض ، به صفان من أشجار السرو الخضراء العجوز تحيط به الجدران والرياض المكسوة بالنباتات الملونة والزنابق البيضاء الرقيقة ، وفى الوسط بركة ماد ضخمة يجرى فيها ماء زلال راكد ، وحولها فرشت الأرض ببلاط يكسوه غبار ناعم ، لا أثر لقدم ولا أثر ليد على الجدران ، لا حركة من أوراق الشجر ، ولا نسيم ، صمت وسكون وغياب ، يشبه فى غرابته ولا واقعيته روضه من صنع ساحر ، والدار ، بين أعمدة سامقة ، ومزهريات فيروزية ، بها نوافذ بلورية شفافة صافية تواجهة السماء ، تبدو رقيقة هشة كأنها معلقة فى الفضاء .

أستند إلى جدار ، تنعشنى أنفاس الماء وتزيل عن روحى غبار ألف سنة ، أجلس على حافة حوض ، أغسل وجهى ، أشرب ، أنتعش ، يا للذة ! صورة الدار تشع فى قاع الماد وتجرى الأشجار على سطحه المرمرى ، والحوض مترع بزرقة السماء ، أنظر ، مامن أحد ، أخلع

ثيابى ، أنزلف وأغوص تحت الماء ، بارد وحاد ، جلدى يريد أن سننشق ، وأن يحترق لب عظامي ، أغوص برأسي تحت الماء ، أغوص أكثر ، تبللت بالماء روحي ، وترتعد ، تهبط الشمس من ثنايا أشجار الصنوبر ، وأشجار ، انسلت جذوعها في بواكير الغروب ، تقع عيناى على الدار مرة أخرى ، فيرى قلبى ، كم هى رقيقة بلا تكلف ! ، وغامضة ، كم هى صادقة ! تخففت من الأثقال ، تحررت من المادة ، خلت من غبار الزمن ، كأنها روح مصورة فى الفضاء ، تذكرنى بشخص ومكان ، من ؟ ، أين ؟ ، شخص قريب ولكنى لا أذكره ، شخص استقر فى مستهل حلم جميل ، فى مستهل ذكريات قديمة ، فى صفائها وطهرها كأنها معصومة من الغسل ، تذكرنى بامرأة أثيرية ، امرأة لها جسد سماوى وعيون مائية ، نعم ، تذكر ، أنها تشبه صورة عرس أمى والطرحة البيضاء على وجهها ، وتلك النظرة العذراء الخجولة ، وتلك الوردة ذات الخدود الأربعة بين أصابعها ، تشبه امرأة جاءت تزورنا فى وقت متأخر ذات ليلة ثلجية ، وقال أبى هى من أقاربنا البعيدين ، بل وأبعد منها : امرأة من قومى الأقدمين ، امرأة تسرى فى الزمن .

أخرج ، أسنانى تصطك ببعضها و غروب القفار ، منعش رطب ، أرتدى ثيابى ، أمسك بحذائى فى يدى ، أمشى حافى القدمين اثنتا عشرة خطوة ، أعدها ، ثمة شخص بالشرفة ، كان يصلى ، أثره باق ، الشرفة ضخمة ، ومفتوحة ، وبساط أبيض منقوش بزهور رقيقة زرقاء ، زدخل ، ساحة منيرة بجدران نقية بلا نقوش ، ومقاعد للجلوس ، والركن المجاور للايوان مزين بزهور العفيفة المتواضعة ، وعلى جانبى الردهة

بابان مفتوحان قليلاً ، كل يؤدى إلى غرفة ومنها إلى غرفة أخرى ، وكل مكان أدخله يؤدى إلى مكان آخر ، ويطل على خلوة سريج – ممرات متداخلة ودرج ملتو وشبه مظلم .

حين أصعد السلم إلى الطابق الأعلى ، تتهدج أنفاسى ، من هنا ترى أركان الدنيا الأربعة ، والسماء على بعد خطوة ، والصحراء تتصل بنهاية الأفق ، بأرض البقاع الأبدية ، أجلس فترة طويلة ، أين أنا ؟ أى وقت من الزمن هذا ؟ لا أدرى ، يغالبنى النعاس ، الحلم رابض خلف جفونى لا يبلغ داخلى ، أتمدد ، ساعات ، يتوالى ظهور النجوم واحدة فى أثر أخرى ، فيم أفكر ؟ فى اللاشىء ، نظراتى سابحة فى الفضاء ، وخواطرى كدوائر مائية تدور فوق سطح وعيى ، شيئًا أفقد أحساسى بيدى وقدمى ، فقد جسدى ثقله المادى وتشابكت خطوط ملامحى ، كأنى امتداد للشرفة والأشجار والصحراء ، وعيونى تتدلى من الأنجم ، تخلو رأسى فجأة من منطق العلية وحساب اللحظات ، كم أنا بعيد عن كل الناس وعن كل شىء ، عن التوافق الهندسى للأجسام والتناسب المعقول للأشياء وعن حاصل الضرب المطلق للأرقام ، عن الروابط المزينة والخواطر المدونة ، عن لوح القانون الأعظم وكتاب الأخلاق السوية وقواعد العيش ، كم أنا بعيد عن سيطرة المادة عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عن آداب الحياة والحتمية والنفاس وتجلى العقل الأول وعالم القيم ، كم أنا بعيد عن صراع الشرق والغرب والمستكبرين مع المستضعفين ، وقانون صحة مراسم الدفن والكفن ، وعن القائل أن الله قد مات ومن كان يخشى الموت ومن ينتظر المهدى المنتظر .

حين استيقظ أجد السحر قد حل ، أنظر فى ذهول ذهول وحيرة حولى ، أنهض ، جائع وكم أنا سعيد ! أحس خفة وقد زال عن بدنى التعب ، نسيم عليل يهب ، ديك يوذن على البعد قرية صغيرة ، فى القاع ، عند سفح الجبل ، ساهرة ، أرتدى حذائى ، يعلو دبيب قدمى ، أهبط ، شيخ يجلس على حافة الحوض يتوضأ ، لحيته كثة بيضاء ، ألقى عليه السلام ، يهز رأسه ، يتلو الأوراد .

بقيت آثار قدمى على غبار الدرج ، حين أدنو من الباب أتوقف ، أعود وأنظر وراء ظهرى ، أعلم أن هذه آخر مرة ، فينقبض قلبى ، الدار تنظر إلى من بعيد ، وفى الظلام ، السحر المنير أصيل وكامل لدرجة أنى أرتعد ، يقول لى شيئًا ، شيئًا طيبًا صحيحًا ، شيئًا لا يقال ، أدركه وسعيد بأنى أدركه .

عاد الطريق ولم يعد غريبًا على ، الصحراء ساكنة صامتة ، خلت من الهواجس الرهيبة ، حين أبلغ النقطة الفاصلة بين القفر والبقاع الخضر أخلط بينهما ، أمر من بين المروج ، وحين أبلغ الرطريق تتوقف سيارة نقل ، وتقلنى ، فتى نو لحية داكنة وبشرة أحرقتها الشمس .

صور مئات من آيات الله مصلقة على زجاج نافذته ، قرب المدينة ، أهبط عند مقهى ، أدرك فجأة كم أنا جائع ، طلع الصبح ، صبح منير وحر الصيف .

شاى دافئ معطر ، قشدة ، بيض ، خبز مقدد ، ابنتى تعشق العيش الفينو ، وهى تأكل أكثر منذ أن هامت عشقًا .

قلبى منقبض ، لعلهم يضربون ابنى ، امرأتى تبكى وتظن أنهم قد قادوا ابننا إلى الانحراف ، تدعو له فى نهاية صلاتها ، وتطلب من الله أن تموت المادة ، تنمحى الإمبريالية ، فنسعد جميعًا .

صبى القهوجى يسأل : « ألا تريد شيئًا آخر ؟ » .

أهز رأسى ، أنظر إليه ، كم هو مفعم بالحياة معافى ، وواقعى ! كم هو متحفز !

أعود إلى غرفتى بفندق المدينة ، مكالمات تليفونية عديدة من تهران ، وأتى صديق كنا قد قررنا الليلة الماضية أن نلتقى ومضى تاركا رسالة ، على أن أعود بسرعة ، حدث أمر هام ، رسالة فوق مكتبى ، أعتصم طلابى والأساتذة يفكرون فى التحصن ، أجمع ثيابى ، أحمل حقيبة يدى وأمشى ، محطات البنزين معطلة ، أهمهم بالسباب ، لدى القليل من البنزين ، أصل إلى قم ، الطريق مزدحم بعربات النقل المحملة والحمر وعربات الكارو ، وحين أبلغ قم أجد الطريق مسدودًا ، ميت محمول ، أصبر ، زحمة من الناس تزعق بالتكبير والصلاة ، نساء متشحات بالسواد يتحركن فى تلاحم ، الجو ملىء بالتراب ورائحة الطين والجيف ، والحر ، أقف إلى جوار جدار ، فى الظل ، أصبر حتى يفتح الطريق .

بجانب من الساحة يقفون فى مواجهتى ، يطلبون تصريح السيارة ، أشير إلى الشارة ، يفتشون شنطة السيارة والحقيبة وأسفل السيارة ، وجيوبى ، أستطيع أن أتحرك ، أضغط على البنزين ،

رأسى تدور ، أمضغ عقب سيجارتى ، أبصق ، أطلق النفير ، أصرخ ، امرأة تضرب بقبضتها على كبوت سيارتى ، وتطلق السباب ، وطفلها يبكى .

حين أبلغ الطريق أزيد من سرعتى ، عربات النّقل مربكة ، وتندفع فى مواجهتى بلا رحمة ، لو بلغت تهران حيا لكانت معجزة ، أنظر إلى صورتى فى مرآة السيارة فينقبض قلبى ، أفتح زجاج النافذة ، تراب رمادى ميت وجبال صخرية شاهقة .

امرأتى تسأل : « أين الأمام الغائب ؟ » .

والدى ثمل ويطارد امرأة صاحب البيت ، حطم عوده وبدأ فى ترديد الأناشيد الثورية .

أسأل : « سيد حيدرى ، إلى أين حملت أثاثك ؟ » .

غداً فى الصباح الباكر لدى اجتماع ، مقالتى التى كنت قد « عدت بها ظلت ناقصة ولم ترسل ، ينبغى أن أذهب للعزاء فى صديقى .

امرأتى تقول : « يا عزيزى ، كن على حذر ، مناهض الثورة فى ورطة » .

قمائن الطوب تظهر على البعد ، سيارة ورائى تطلق نفيرها لا أستطيع أن أنتحى إلى جانب من الطريق أمامى مسدود ، يطلق النفير ، يصرخ ، يتوعد ، أود أن أنزل لأضربه ، رائحة العادم والدخان تنتشر فى الفضاء ، ألهث باحثًا عن ذرة من أكسجين ، السماء

أسفلتية والأفق بعيد ، والسحب الفضية توقفت فوق رأسى ، الهواء ثقيل ملوث يصطدم بنظراتى ، قلبى منقبض وأفكر فى أيام الغليان الآتية ، وفجأة ، من طاقة ألهية ، تلوح صورة الدار كمعجزة ، هبة ، جديدة ، مغسولة ، معطرة ، تدنو فى هدوء ، إنى أراها هناك ، دائمًا هناك ، تختفى أنفاسها الملائكية وراء الأشياء ، وأعلم أنها بعد ذلك آتية على حين غرة ، تبحث عنى ، وأعلم أنها ستكون فى أوقات الغروب الرطبة المقبضة ، فى ليالى اليأس الحالكة ، فى حلم تنفس الصبح الطيب ، فى انتظار أليم لمعجزة ، فى زمن الموت ، وستريح قلبى المتعب – أنها دائمًا هناك ، كاملة ، إنها مليكة روحى .

* * *

الروبوت الناطق

سيمين دانشوَر

كنت أعلم أن القرن الحادى والعشرين سرعان ما ينتهى. كنت أعلم أن كوكب الأرض صار بلداً واحداً. وخلت أيضًا. معظم سكانها أو بالأحرى سجنائها هاجروا إلى كواكب أخرى، إلى كواكب جعلها البشر أنفسهم صالحة للسكنى؛ كنت أعلم أن كل سكان العالم سيتحدثون لغة واحدة، ولكنى لم أكن أعلم أن الإنسان سيظل كما هو فى جوهره. علمت هذا عندما قال أبو الفتاة فى رده على خطبتى لابنته: أى أحمق هذا الذى يزوج ابنته لإنسان خيالى مثلك؟ لم يسعفنى صوتى للرد عليه: نحن نحب بعضنا منذ عامين. قال أبوها: ابنتى مخطوبة، وهى تسخر من الحب؛ فأكملت جملته: إلى أن «تحلبنى» تماماً؟ حتى تستغلنى كالحمار. بالحب بنيت لها بيتًا يشبه عيش الغراب. وضعت أساسه بنوع من أسمنت عازل اخترع حديثًا. وضعت بالونًا على قدمى ونفختها بمنفاخ. كلما كانت كبيرة كانت أفضل. وفوق البالون صببت طبقة من نفس الأسمنت العازل ثم النوافذ ... ما لون الحب؟ أحمر؟

لم أكن جلست على حجر بجوار جدار، إذ لم يعد هناك جدران على كوكب الأرض. الجدار الوحيد الباقى كان بين البشر. كانت بيوت الناس أبنية ضخمة على شكل عيش الغراب لها نوافذ واسعة، وكانت النافورات تطلق ماءها في الرياض وكان الهواء لاذعًا، وكان يدفع الناس للهرب. كم كذب سكان هذه البيوت على بعضهم البعض؟ كم خدع كل منهم الآخر؟ كم مرة قالوا لا نعطى ابنتنا لشخص خيالى مثلك، لإنسان يتصور أنه شاعر. كم سمعوا تهتهة الرد: خططت لابنتك عالمًا من الشعر. إنسان مصطنع؟ وكم مرة أجابوا قائلين أنت لستَ شاعراً. والمصطنع أنت أيضًا.

سمعتُ صوتًا يقول: املأنى من فضلك. تلفتُ حولى فلم أجد أحداً. سألت: أين أنت؟ هل أنت آتٍ من كوكب آخر؟ سمعت الصوت يقول: إن لم تفعل لانهرت ولألقوا بى فى مقبرة الروبوتات.

وجدته. كان إنسانًا آليًا يبلغ طوله مستوى ركبتى، مصنوعًا من معدن لا أعرفه. وكان صوته أيضًا كرنين المعدن. وكان لونه قرمزيًا حتى الرقبة، ويعتمر خوذة زرقاء. سمعته يقول من جديد: املأنى، ثم سمعته يترنم: نحن فتية مدللون، فى هدوء يلعبون.

– وكيف أملأك؟

– لف من اليسار إلى اليمين.

وجدت على بطنه زراً أدرته من اليسار إلى اليمين فسمعته يقول: أه! أه! وسمعته يضحك أو لعلى تخيلت أنه يضحك. قلت: تعال اجلس بجانبى، فأنا مهموم.

– أنا أقف فقط. بيان تشغيلى فى ثنية خوذتى.

قرأت: هذا روبوت ناطق ونموذج فريد فى نوعه. يملأ نفسه بنفسه مرة كل اثنتى عشرة ساعة، وله ذاكرة قوية. لا تشتته ببرامج تافهة. وهو مبرمج فى حدود معينة ويتمتع بالذكاء، إلا أن تقنيته لم تكتمل بعد.

سألت: لم لم تملأ نفسك بنفسك؟

– لم تسعفنى يدى. تلك المرأة أرادت أن تسلبنى ذاكرتى، أدارت صامولتى عكسياً فأخذت أعود إلى طور الطفولة. قتلتها.

– إذن فالشرطة تطاردك الآن؟

– الشرطة؟

– القانون ...؟

– شك فى روبوت؟

– لم قتلت تلك المرأة؟

– خائنة. غشاشة. زوجها كان يقوم بتزييتى. هذا الرجل الرقيق الذى صنعنى. كان يذهب إلى عمله ويستأمن صديقه على امرأته. ومع نفس هذا الصديق ...

- وكيف عرفتَ أنها تخون زوجها؟

- من كلامها مع هذا الصديق. من تأوهاتها. من صوت قبلاتها.

- قبلاتها؟ تأوهات الفراش؟

بدلاً من أن يجيب سؤالي تابع كلامه: قلت للزوجة سأقول لزوجك. سأقول لذلك العالِم الذى وصل الليل بالنهار جائعًا عطشانًا حتى يطورنى.

- ليطورك ويصنع أمثالك؟

واصل كلامه: الرجل الرقيق كان يعشق زوجته.

- أنا أيضًا خُدعت. أنا شاعر، أتود أن تأتى معى إلى بيتى؟

ولكنه ظل واقفًا أمامى. لم أكن نظمت ولو بيتًا واحدًا من الشعر لحبيبتى الغادرة. حاولت قدر جهدى فلم أستطع. كأن الروبوت قرأ أفكارى. قال: أنا أتلو شعرك. برمجنى.

حسدنى الروبوت على بيتى. كان كل شيء فيه يلمع من شدة النظافة. جاء الغداء فى موعده. كنت أكتفى بتزيينه وبرمجته، أما حسن البيان وروعة المعانى فلم يكن لى عهد بهما، فلم أستطع أن أنظم شعرًا وأن أثأر لقلبى من حبيبتى الغادرة.

قلت: أيها الروبوت الناطق.

قال: نعم.

قلت: أنت سلواى.

قال: ما الأمر؟

- انسَ. سأبوح لك بآلام قلبى وأنت تنظم لى شعراً.

كانت المرأة تسخر منى ولم أكن أدرك. كل ما تعمله لى كنت أعمله لها ولأسرتها. كانت تقبّلنى وتقول: أحبك من هنا حتى السماء وكانت تبرمجنى. لم أكن أرى بريق المكر أو السخرية فى عينيها. لأنى كنت أغمض عينىّ وأضع شفتىّ على شفتيها ويأسرنى صوتها وخضوعها. أنت لا تعرف ما العرش.

- لا.

كنت أحلّق حتى العرش. لو أمرتنى بالموت لمت. كنت أتصبب عرقًا وأظل أجول هنا وهناك بحثًا عن معطف من جلد الحملان الأسود كانت تريده. سألتها: يا امرأة، فيم تريدين معطفًا جلديًا فى هذا الجو الحار؟ كانت تضم شفتيها وتمدهما لتلثمنى، ثم تضحك وتقول: والآن هل ستشترى لى المعطف الجلدى؟ كنا نسبح معًا وكنت أغوص تحت الماء وأمسك صدرها بيدى. كانت ناعمة. بكلا معنيى العبارة.

كانت تقف بجوار النافورة حافية القدمين ويبتل قدماها. وكنت أخلع قميصى وأجففهما به، وكنت ألثم هذين القدمين الأبيضين الصغيرين وكانت تضحك، كانت تضحك علىّ. وكنت أغوص بيدى فى شلال شعرها، وكان يومض ويشعل فى قلبى ألف شمعة. كسرتَ قلبى ...

التفتتُ إلى دموع الروبوت. قال باكيًا: اعطنى عنوانها فأقتلها لك.

قلت: هاجرت إلى المريخ مع زوجها.

وهنا أدركتُ فيم كانت تريد المعطف الجلدى - فالمريخ جوه بارد على أية حال. وابتسمت حتى لا أثير فضوله.

سل الطيور المهاجرة

سيمين دانشوَر

رأيت فى المنام أن أمى ترانى فى المنام وأنى كنت بدورى فى منامها وأؤدى دوراً فى الأحداث التى تدور فى منامها. صحيح أن هذا لا يتأتى بأى منطقى ولكن هل ينبغى قياس كل ما فى الحياة بميزان المنطق؟ كانت أمى ترى يداً بها مقص وتقترب من رأسى. والشعر المجدول كان مبعثراً على الأرض. وكنت أتأبط ملفى.

كنت أصعد الدرج فنهرتنى الناظرة: أنا أراكِ. اجذبى طرحتك إلى مقدمة رأسك. قلت سيدتى المدرسة ليس بها رجال، حتى الفراش امرأة، وحتى الباب مسدل عليه ستار سميك، والباب موصد. فصرخت الست الناظرة: بنت سليطة اللسان لا أهل لها، نفذى كل ما أقول. أجبتها: لست بلا أهل. لى أم، ولى أخ مدلل عائد من الجبهة وهو أرعن. هددتنى: سأجلب لكِ مصيبة إذ ...

كان مدرسة الهندسة تقول لنا فى الفصل: الخطان المتوازيان لا يلتقيان إلا إذا شاء الله. قلت: بجمع اللا نهائية يلتقى الخطان

المتوازيان فى اللا نهائية البعيدة. قالت مدرسة الهندسة: أحسنتِ. أضفت: واستدارة الكرة الأرضية أيضًا تساعد على ذلك.

كتبت المعادلة: بجمع اللا نهائية فإن الله يساوى (∞ +) والشيطان بطرح اللا نهائية يساوى (∞ -). اقتربت مدرسة الهندسة ووقفت بجانب مقعدى وتنهدت: هو الوحيد الذى تنطبق عليه الوحدانية، وسألتنى: كم الرقم؟ أجبت: حاصل جمع الواحد واحد. وأضفت أن الله الوحيد الواحد. لا شيء معه ولا أحد.

قالت مدرسة الهندسة: مطلقًا. هل سنغير المعادلة لأجل خاطرك؟ بجمع طرح اللا نهائية فإن الله يساوى (∞ +_) وحينئذ نذكر قول ناصر خسرو: لو لم يكن بنعليك حصاة فلمَ خُلق الشيطان؟ ولم نكد حتى دق الجرس. لم دقت الست الناظرة الجرس قبل موعد انتهاء الحصة؟ كانت تعلم أننا سنظل فى مقاعدنا فى أى الأحوال نصغى لمدرسة الهندسة بقلوبنا.

لا أدرى هل اطلعت أمى فى منامها على ذهنى الذى كان يدور كالنحلة التى يلهو بها الأطفال أم لا!. وأنا نفسى كنت أعلم لم انشغلت بالتفكير فى الله والشيطان. ولكن أمى لم تكن معى فى حصة مدرّسة الهندسة. جال بخاطرى: فيم كان الله يفكر قبل الخليقة؟ وسألت نفسى: هل يمكن أن يكون الشيطان الأنيس الوحيد لله؟ إذن لم خلقت الملائكة؟ الملائكة الذين هشموا باب الحانة. سمعت صوت الباب بأذنىّ. ورأيت بعينىّ أن الخطين المتوازيين يلتقيان فى اللا نهائية البعيدة. أنا التى

لم تنبت فى بستان حياتها سوى زهرة من ورق. هل نبتت دون أن أنتبه؟ أشجار مغرورة وأسفلت لا يبالى. خضروات خضراء وفجل أحمر فى الدكان المواجه لبيتنا، وورود ورقية أم ثمار عقيمة - هل كانت زهرة الثمار العقيمة من أجل ترهيب الست الناظرة؟ هل كان جسدى الملقى على أسفلت الطريق والملاءات البيضاء فوق سطح الجيران والصفير والطيور المهاجرة فى السماء، كلها فى انتظار أن تظهر فى منام أمى؟

فوق سطح البيت كنت أرى الطيور وهى مهاجرة وراء دليل سربها. سقط دليل السرب. ربما أصابته طلقة أو ربما من التعب، أو كلاهما. سمعت صوت الطلقة. وضعت كوفية أخى خلف رقبتى وأطبقت بيدى على البندقية بإحكام لدرجة أن أخى بعد أن أطلقت الرصاصة لم يستطع أن ينتزعها من يدى. قال أخى وهو يبكى: لماذا أضر بأختى الرقيقة؟ الدفن مؤلم سواء بكوفية أخى أو بدونها.

كانت الطيور المهاجرة تزقزق. كانت تتجمع على شكل زجزاج وأحيانًا على شكل دائرة. كأنها تتباحث حول اختيار أحدها لقيادة السرب. نهضت من فوق جسدى وحلّقت كى ألحق بها. وقع اختيارهم علىّ. واختاروا لى وردًا أيضًا وبدءوا الطيران على شكل مثلث. إلى أين نطير؟ ربما نطير إلى اللا نهائية أو ربما إلى مدينة اللا مكان. ولكنى أتذكر أننا مررنا أولاً فوق دكان الخضرى. كان الخضرى يرش رذاذ الماء على الخضروات وعلى الفجل.

وقفنا طوابير وبعد الدعاء ذهبنا إلى فصولنا. جذبت الست الناظرة يدى وأخرجتنى من الطابور ووقفت أنا والست الناظرة أمام الأخريات.

خلعت الست الناظرة طرحتى عن رأسى، وبالمقص قصت وسط رأسى أولاً فى غضب وبلا تروٍ. لابد أن رأسى صارت تشبه قارة أفريقيا أو ربما تشبه بلادنا. المناطق الصحراوية، منزوعة الشعر. وأمرت البنات: خاصموا هذه البنت العنيدة. لم ينبس أحد ببنت شفة. كنت أسمع همسات بعض من زميلاتى.

قالت الست الناظرة: البسى طرحتك لبسك الموت! لم ألبسها فألبستنى إياها وأحكمت العقدة تحت ذقنى حتى أوشكت أن تخنقنى، ثم أخذتنى إلى المكتب. كانت الست المديرة ترضع وليدها، لم ترفع رأسها. كانت تحدق فى شحمة أذن طفلها. شحمة أذن الطفل كانت تشبه ورقة ورد ربيعية تفتحت لتوها.

طلبت الست الناظرة ملفى من مديرة المكتب. سألتها مديرة المكتب: سببت مشاكل؟ ردت الست الناظرة: لا أدرى ماذا أفعل معهن جميعًا! الست المديرة اتخذت من المدرسة بيتها الثانى. حتى رأسها ووجهها تغسلهما فى المدرسة. تتناول إفطارها فى المدرسة. والفرّاشة هى التى تشترى لها احتياجاتها.

سألت مديرة المكتب وهى تفتش عن ملفى: لم تقولى لى أى جرم اقترفت هذه البنت؟

– عصيان. وتنطق كفرًا أيضًا. ومدرسة الهندسة أيضًا لا تأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر. سمعتها بأذنىّ. كتبت تقريرًا. وكذلك مدرسة الدين. سأسائلها.

قالت مديرة المكتب: لكن هذه البنت فى آخر سنوات الإعدادية. ثم تحدثت عن ذكائى وتفوقى وعن الامتحان النهائى، وأقسمت الست الناظرة أن تعاقبها هى أيضًا.

وضعت الست الناظرة ملفى تحت إبطى وقالت: أنتِ مفصولة. لتكونى عبرة لغيرك من الثعالب. غدًا تأتى إلىّ بوالديك فى المدرسة.

- قلت لكِ أن ليس لدى أب.

ثم سألتها: إذن كنتِ تتجسسين وراء أبواب الفصول، وتسمعين أشياء ملفقة ولابد أنك تلفقين التقارير أيضًا. لا أنا ولا مدرسة الهندسة ولا مدرسة الدين نطقنا كفرًا.

صرخت: اخرسى. وتناولت طباشيرة من فوق المكتب وأخذت تلطخ رأسى ووجهى وكتفىّ. ضربتها بسن حذائى فى عظمة ساقها. سقطت فى مقعد وراحت فى إغماءة. ناولتها مديرة المكتب كوب ماء فى يدها وهمست لى: اذهبى عزيزتى، فهى مصابة بعقدة من آلاف السنين.

لم أنطق كفرًا. كل ما هنالك أنى لم أكن أعرف هل صوم اليوم الثالث من أيام الاعتكاف فريضة. بل إنى لم أكن أعلم هل يمكن الاعتكاف. ولو كنت أعلم لاعتكفت فى روضة أزهار عقلى الورقية ولاتخذت من الملل أنيسًا لى بدلاً من الشيطان. قلت هذا لمدرسة الدين أيضًا. ضحكت مدرسة الدين وقالت: أين تتعلمين كل هذا الكلام العطن؟

أطلقتُ الطيور المهاجرة. قلت: سيروا فى خط مستقيم أصل إليكم بسرعة. قالت الطيور: لن نطير بدونك. قلت: اذهبوا مع مساعدى. قالوا: سنستريح بجوار النبع ونرتوى. إنه نوع من إكسير الحياة أيضًا. قال مساعدى: أنتِ أيضًا عطشى لهذا النوع من إكسير الحياة. سألتهم جميعًا هل بوسعكم أن تصبروا أربعين سنة؟ أجابوا: بوسعنا أن نصبر ألفية حتى تأتى، قلت: الصبر الأصغر عند الله أربعون سنة.

كانت نافذة الفصل مفتوحة. دخلتُ. نظرت زميلاتى فى السقف، ومدرّسة الدين قطعت كلامها ونظرت أمامها. لا أظن أنهن رأيننى. لا لم يريننى. مكانى وُضعت فيه زهرية أزهار ورقية. كنت أجلس فوق رءوس زميلاتى وأقول: أنتِ الملكة بلقيس وسيأتى الهدهد ويحملك إلى سليمان. لم يسمعن صوتى أيضًا، لكن مدرسة الدين وصديقاتى كن كمن يصغى لنداء لا يدرين مصدره وما يقول. وفجأة، فتحت الست الناظرة الباب ودخلت. أخجلتها البنات فقالت: لم تحملننى التبعة كلها؟ قالت مدرسة الدين: ليس بوسعك أن تملأى حوضًا أفرغته. ولكن إن أردتِ أن تهيلى التراب على رأسك خجلاً فأهيلى تلاً عاليًا منه أو على الأقل قفى بجوار تل عالٍ، وليس فى الخرائب ... ثم حملت كتيبها وحقيبتها وخرجت من الفصل وقالت: وداعًا يا بنات. هذه المدرسة لم تعد مكانى.

والآن كنت أجلس فوق السطح بجوار الميزاب فى انتظار الماء. كانت ملاءات الجيران البيضاء تهتز فى الهواء. كانت السماء صافية كأن الملائكة لعقتها، أو ربما كانت تشبه البشر فى طهرهم حين يغتسلون أو لعلها غُسلت، والشمس كبرت حتى ملأت السماء. ونسيم عليل يداعب

أطرافي. واقترب الطائر مساعدي مني ووضع منقاره الممتلئ بماء الورد في فمي. كانت رائحة ماء الورد تفوح.

مع الطيور المهاجرة، بدأنا رحلتنا. كان النور على أطرافنا. والأرض كانت منيرة تحتنا. كأن الأرض كانت تحتفل بشيء. كانت الحقول خضراء. في خضرة خضراوات دكان الخضري المواجه لبيتنا. واشرأبت الأزهار الورقية برءوسها وذكرتني أوراقها الحمراء البراقة بالفجل. لكني لم أدرِ لم هفت نفسي للخوخ أو التين. كان من الممكن أن أحط على شجرة تين وأنقر في التين. ولكن لم يكن لأي منا منقار معوج. كنت أسمع صوت أمي وهي تقول لا أحد يتصدق بالتين. وبزغت النجوم بحلول الليل. عرفت نجمتي. احترقت وهوت وكنا نحلق فوق جبانة. كانت أمي تسائل أخي في نومها المضطرب: إلام يهفو قلبك؟ أقدم روحي فداءً لما يريده قلبك. وكان أخي يقول: لا أريد سوى أختي. صبت أمي ماء الورد على حجر القبر. وامتزجت دموع أمي وأخي بماء الورد. كنت أسمع نحيبهما وكنت أصرخ: لا ترحلوا! لا تتركوني وحيدة. ولكني كنت أعلم ألا مجيب لصرخاتي وأننا نحن الطيور المهاجرة كنا نحلق نحو اللا نهائية، وكان نور القمر يتخلل أجنحتنا ويبلغ ريش صدورنا.

من مجموعة از برنده هاى مهاجر ببرس

تهران، كانون، ١٣٧٦

نبذ عن بعض

كتّاب القصة القصيرة وأعمالهم

محمد على جمالزاده

محمد على جمالزاده، ولد بأصفهان فى سنة ١٨٩٥، وتلقى تعليمه بأصفهان وبيروت وباريس قبل تعاونه مع حسن تقيزاده فى بدء إصدار مجلة كاوه فى سنة ١٩١٥، كما عمل بمكتب العمل الدولى التابع للأمم المتحدة وأقام بسويسرا بصفة دائمة. وكانت أولى أعماله القصصية فارسى شكر است التى أضاف اليها خمس قصص قصيرة أخرى ونشرها فى مجموعة بعنوان يكى بود ويكى نبود فى عام ١٩٢١ ببرلين، وقدم لها بمقدمة وضع فيها قواعد كتابة القصة القصيرة الفارسية الحديثة. وله العديد من المؤلفات والترجمات ومن رواياته: دار المجانين (١٩٤٢)، صحراى محشر (١٩٤٤)، قلتشن ديوان (١٩٤٦)، راه آب نامه (١٩٤٨)، نمك كنديده (١٩٥٥)، سر وته يك كرباس (١٩٥٦). ومن مجموعاته القصصية الأخرى: سركذشت عمو حسين على (١٩٤٢)، تلخ

وشيرين (١٩٥٦)، شاهكار (١٩٥٧)، كهنه ونو (١٩٥٩)، غير از خدا هيجكس نبود (١٩٦١)، مركب محو (١٩٦٥)، قصه هاى كوتاه براى بجه هاى ريش دار (١٩٧٤)، قصه ما به سر رسيد (١٩٧٨).

صادق چوبك

ولد فى عام ١٩١٦، وتركز مجموعاته القصصية الأربع وروايتاه على الواقع الاجتماعى للطبقات الحضرية بإيران. وهو من أبرع كتّاب النثر الساخر. وبدأ نشر أعماله فى الأربعينيات، وكتب مذكراته ويعيش حاليًا بكاليفورنيا بالولايات المتحدة.

جلال آل احمد

ولد جلال آل احمد فى طهران فى سنة ١٩٢٣، وتوفى فى سنة ١٩٦٩. وكان فى حياته بمثابة أديب وداعية اجتماعى يمثل فئة المثقفين المعارضين للمناخ العام الذى ساد فى إيران فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. وكان بدأ حياته الأدبية فى عام ١٩٤٥ بنشر أولى قصصه بعنوان زيارت على صفحات المجلة الأدبية الإيرانية الشهيرة سخن. وذاع صيته على أثر نشر هذه القصة التى كانت بداية قوية لكاتب حاد الرؤية واسع الاطلاع وذى أسلوب أدبى متميز. ولآل أحمد

مكانة مهمة فى الأدب الفارسى المعاصر بصفة عامة، وفى مجال القصة بصفة خاصة. وله روايات منها: سركذشت كندوها (١٣٣٣/ ١٩٥٤)، مدير مدرسه (١٣٣٧/١٩٥٨)، نون والقلم (١٣٤١/١٩٦١، وهى رواية ترجمها معد هذا الكتاب ونشرت بمراجعة د. زبيدة أشكنانى بسلسلة إبداعات عالمية التى تصدر عن «المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب» بدولة الكويت، يونيـــو ١٩٩٩)، نفـــرين زمين (١٣٤٦/١٩٦٧). ومن مجموعاته: ديد وبازديد (١٢ قصة، ١٣٢٤/١٩٤٦)، از رنجى كه ميبريم (٧ قـصص، ١٣٢٦/١٩٤٧)، سه تار (١٣ قـصـة، ١٣٢٧/١٩٤٩)، زن زيادى (٩ قـــصص، ١٣٣١/١٩٥٢)، بنج داســتــان (٩ قـــصص، ١٣٤٨/١٩٦٩).

صادق هدايت

ولد هدايت بطهران فى سنة ١٩٠٣ وكان من أسرة أرستقراطية قاجارية. وقضى عدة سنوات بباريس قبل عودته بأواخر العشرينيات الى طهران لينشر ست مجموعات قصصية متميزة ومقالات نقدية عن عمر الخيام وفرانز كافكا ومقالات عن تاريخ إيران القديم والأدب الشعبى الإيرانى وعدداً من الروايات القصيرة. كما شارك فى إصدار مجله موسيقى وكان عضواً باللجنة التنفيذية «لمؤتمر أدباء إيران الأول» ويعتبر أبا القصة الفارسية الحديثة. وقد انتحر بباريس فى عام ١٩٥١. وتضم أعماله روايات وروايات قصيرة ومجموعات قصصية ومسرحيات

وترجمات. ومن أعماله فی مجال القصة : بوف كور، حاجی آقا، زنده بگور، سگ ولگرد، سه قطره خون، سایه روشن، ولنگاری، علویه خانم؛ وفی المسرح : پروین دختر ساسان، مازیار.

جمال میرصادقی

كاتب قصصی متميز ولد بطهران فی عام ١٩٣٣ وحصل على ليسانس اللغة الفارسية وآدابها بجامعة طهران، ثم عمل مدرسًا بالمدارس الثانوية، وبمكتبة كلية المعلمين بجامعة طهران. وينتمی الی جيل كتّاب ما بعد الحرب العالمية الثانية. ونشرت قصصه القصيرة على صفحات مجلتی سخن ونگين. وله العديد من المجموعات القصصية والروايات منها ما ترجم إلی العديد من اللغات. ومن رواياته: درازنای شب (١٩٧٠)، اين شكسته ها (١٩٧١)، آتش از آتش (١٩٨٤)، باد خبر از تغيير فصل می دادند (١٩٨٤). ومن مجموعاته القصصية: مسافرهای شب (١٢ قصة، ١٩٦٣)، چشمهای من خسته (١٠ قصص، ١٩٦٦)، شبهای تماشا وگل زرد (٨ قصص، ١٩٦٩)، داستانهای منتخب (١٠ قصص، ١٩٧٢)، اين سوی تلهای شن (١٠ قصص، ١٩٧٣)، نه آدمی نه صدائی (١٠ قصص، ١٩٧٥)، دوالپا (٩ قصص، ١٩٧٧)، هراس (٩ قصص، ١٩٧٧).

بهرام صادقى

طبيب أديب، كتب الرواية والقصة القصيرة، وعمل على تطوير أسلوب أدبى محلى متميز فى القصة القصيرة. ومن أعماله القصصية: ملكوت (رواية، ١٩٧٤)، سنگر وقمقمه هاى خالى (مجموعة قصصية، ١٩٦٩).

خسرو شاهانى

ولد فى سنة ١٩٢٩ وعمل صحفيًا بصحيفة خراسان فى سنة ١٩٥٥، ثم بصحيفة خواندنى ها، وكان الصحفى البرلمانى لصحيفة كيهان. كما عمل مذيعًا بالإذاعة. ومن أعماله القصصية: كمدى افتتاح (١٩٧٤)، امضاى يادگارى (١٩٧٥). ومن مجموعاته القصصية: بهلوان محله (١٥ قصة، بدون تاريخ)، كور لعنتى (١٩٦٥)، وحشت آباد (١٥ قصة، ١٩٦٩)، آدم عوضى (١٥ قصة، ١٩٧٠)، بالا روديها وپائين روديها (١٧ قصة، ١٩٧٢)، الكى خوشه ها (١٥ قصة، ١٩٧٧)، تفنگ بادى (١٧ قصة، ١٩٧٩)، كره كور (٢١ قصة، ١٩٨٣)، فولكس دكتر بقراط (١٨ قصة، ١٩٨٤).

فريدون تنكابنى

قـصـاص وشـاعـر إيرانى ولد فى سنة ١٩٣٧. وفى سنة ١٩٧٠ اعتقل على أثر نشر مجموعته القصصية يادداشتهاى شهر شلوغ التى هاجم فيها نظام الشاه. وله روايات منها: مردى در قفس (١٩٦١). ومن مجموعاته القصصية: اسير خاك (٨ قصص، ١٩٦٣)، بياده شطرنج (٩ قـصص، ١٩٦٥)، سـتـاره هاى شب تيـره (١٠ قـصـص، ١٩٦٨)، يادداشـتـهاى شـهـر شلوغ (٢٤ قصة، ١٩٦٩)، منتخب داستـان (١٢ قصة، ١٩٧٣)، ده داستان كوتاه ونوشته هاى ديگر (١٨ قصة ومقالة، ١٩٧٨)، ميان دو سفر (١٩ قصة، ٧٨-١٩٧٩)، سرزمين خوشبختى (٨ قصص، ١٩٧٩)، الجزايرى (١٩٨٠).

لى ترقى

أديبة قصاصة ولدت بطهران فى سنة ١٩٣٩. تلقت تعليمها الأولى وحتى الثانوى بإيران، وتعليمها الجامعى بالولايات المتحدة الأمريكية حيث حصلت على ليسانس الفلسفة من جامعة دريك، ثم حصلت على درجة الماجستير من جامعة طهران وعملت بتدريس الفلسفة بكلية الآداب بنفس الجامعة لمدة ست سنوات إلى أن أغلقت الجامعة فى سنة ١٩٨٠. ومن رواياتها: خوب زمستانى (١٩٧٣) ومن مجموعاتها القصصية: من هم جى كوارا هستم (٨ قصص، ١٩٦٩).

نسيم خاكسار

اشتهر نسيم خاكسار ككاتب بصحف شهيرة منها كتاب جمعه. ومن مجموعاته القصصية: من مي دانم بچه ها دوست ميدارند بهار بيايد (١٩٧٤)، گياهك (٧ قصص، ١٩٧٨)، نان وگل (٨ قصص، ١٩٧٨)، كامهاى بيمودن (٣ قصص، ١٩٨١).

قائمة المراجع

براهنى ، رضـا ، قصـه نويسى ، چاپ دوم ، تهـران ، اشـرفى ، ١٦٩٦ .

بهار ، محمد تقى . سبك شناسى ، ٣ جلد ، تهران اميركبير ، چاپ دوم ، ١٩٥٩ .

حريرى ، فارس إبراهيمى ، مقامه نويسى در ادبيات فارسى . تهران ، انتشارات دانشگاه تهران ، شماره ، ١١٣٠ ، ١٣٤٦ .

Aloob. Abdelwahab. *The Persian Social Novel : 1900 - 1941.* Doctoral Dissertation. The University of Michigan, Ann Arbor, Michigan, 1988.

Bashiri, Irai. *The Fiction of Sadeg Hedayat,* Lexington, KY, Mazda, 1984.

Browne; E.G., *A Literary History of Persia.* 4 Vol. Cambridge, Univ. Press, 1924 (Reprint 1953) .

Daragahi, Haideh. «The Shaping of the Modern Persian Short Story; Jamalzade's Preface to Yeki Bud-o Yeki Nabud». *The Literary Review,* 18 (1974), PP. 18-24.

Dorri, J. «The Satire of Sadeq Chubak», in : *Norody Azii Afriki,* 5 (1975), PP. 106 -114.

George, Albert. *Short Fiction in France : 1800 - 1850.* Syracuse, 1964.

Green, John. *The Modem Persian Short Story. 1921 - 1981 : A Bibliographical Survey.* Doctoral Dissertation. The University of Michigan, Ann Arbor 1987.

Jazayery, M.A. «Modem Persian Prose Literature». in : *Journal of The American Oriental Society,* 90.2 (1970), PP. 257 - 265.

Kamshad, H. *Modem Persian Prose Literature.* Cambridge, Univ. Press, 1966.

Kubickova, «Persian Literature of the 20th Century», in : *History of Iranian Literature* Edited by Jan Rypka; Dordrecht, D. Reidel, 1968, PP. 353 - 410.

Mashiah, Yaakov. «In Search of An Insane Universe». in : *Le Museon* (Louvain) 86. 1 - 2 (1973), PP. 147 - 174.

Reid, Ian. *The Short Story.* Britain, Methuen & Co. Lta, 1977 (Reprint 1979).

المترجم فى سطور

د/ عبد الوهاب علوب

من مواليد ١٩٥٨ ، ويعمل أستاذًا مساعدًا بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، وهو حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة ميتشجن ، آن أربر ، الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٨٨) ، والماجستير من كلية الآداب ، جامعة القاهرة (١٩٨٣) .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	ألن تورين	أنور مغيث
٣٩- الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	أن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩- الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	ب. توفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسي سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢- لذة النص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	الان وود	رمسيس عوض
٦٥- في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢- السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣- نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوي
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	سري محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان بروديل	بشير السباعي
٩٨-	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائي: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبي	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣-	قبر ابن عربي يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجني (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرا متي	أشرف علي دعدور
١٠٧-	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من المؤلفين	محمود علي مكي
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادي بلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق في التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: روف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنيتل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	جون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورب ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد ڤاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر	بول دي مان	سعيد الغانمي
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجاني
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغي	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربرت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	أرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رأيت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣- الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا (رواية)	رومولو جايبجوس	محمود على مكى
٢٧٥- ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧- الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١- الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ووليرت	سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الروف البمبى
٢٨٤- هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عثمان
٢٨٥- رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥- سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦- مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- أقدم لك: فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك في الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادي
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد علي بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبي النسوي	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	جون دن	بهاء جاهين
٣٨٨- مواعظ سعدي الشيرازي (شعر)	سعدي الشيرازي	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. في. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشي	منى الدروبي
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دي لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- في قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيري
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية في الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقي نجاري راد	محمود علاوي
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتي شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليب تودي وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامي	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهري
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوي وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسي	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان في القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوي
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامي عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوي بغورة
٤١١- همس من الماضي	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفي بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخاري
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر	آ. آ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوي

٤١٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٥) رينيه ويليك مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية جين هاثواي عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبي للإسكندرية جون مارلو نسيم مجلي
٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية) فولتير الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول روى متحدة أشرف كيلاني
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١) ثلاثة من الرحالة عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف نخبة وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر) نور الدين عبدالرحمن الجامي محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح محمود طلوعي محمود علاوي
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى نخبة محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية) باي إنكلان ثريا شلبي
٤٢٨- الخزانة الخفية محمد هوتك بن داود خان محمد أمان صافي
٤٢٩- أقدم لك: هيجل ليود سبنسر وأندزجي كروز إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- أقدم لك: كانط كرستوفر وانت وأندزجي كليموفسكي إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- أقدم لك: فوكو كريس هوروكس وزوران جفتيك إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- أقدم لك: ماكيافللي باتريك كيري وأوسكار زاريت إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- أقدم لك: جويس ديفيد نوريس وكارل فلنت حمدي الجابري
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية دونكان هيث وجودي بورهام عصام حجازي
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة نيكولاس زربرج ناجي رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١) فردريك كوبلستون إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندي في بلاد الشرق العربي شبلي النعماني جلال الحفناوي
٤٣٨- بطلات وضحايا إيمان ضياء الدين بيبرس عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابي (رواية) صدر الدين عيني محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة كرستن بروستاد محمد طارق الشرقاوي
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية) أرونداتي روي فخري لبيب
٤٤٢- حتشبسوت: المرأة الفرعونية فوزية أسعد ماهر جويجاتي
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها كيس فرستيغ محمد طارق الشرقاوي
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة لاوريت سيجورنه صالح علماني
٤٤٥- حول وزن الشعر پرويز ناتل خانلري محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود ألكسندر كوكبرن وجيفري سانت كلير أحمد محمود
٤٤٧- أقدم لك: نظرية الكم ج. پ. ماك إيفوي وأوسكار زاريت ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨- أقدم لك: علم نفس التطور ديلان إيفانز وأوسكار زاريت ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية نخبة جمال الجزيري
٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية صوفيا فوكا وريبيكا رايت جمال الجزيري
٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية ريتشارد إبجينانزي وأوسكار زاريت محيي الدين مزيد
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة جان لوك أرنو حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤- خمسون عاماً من السينما الفرنسية رينيه بريدال سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد الننة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

-٤٩٣	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
-٤٩٤	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
-٤٩٥	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
-٤٩٦	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
-٤٩٧	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
-٤٩٨	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
-٤٩٩	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
-٥٠٠	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
-٥٠١	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
-٥٠٢	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
-٥٠٣	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
-٥٠٤	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
-٥٠٥	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
-٥٠٦	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
-٥٠٧	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
-٥٠٨	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
-٥٠٩	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
-٥١٠	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
-٥١١	كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
-٥١٢	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
-٥١٣	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
-٥١٤	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
-٥١٥	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
-٥١٦	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
-٥١٧	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
-٥١٨	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
-٥١٩	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
-٥٢٠	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
-٥٢١	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
-٥٢٢	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
-٥٢٣	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
-٥٢٤	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
-٥٢٥	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
-٥٢٦	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
-٥٢٧	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
-٥٢٨	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
-٥٢٩	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
-٥٣٠	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٥٣١-	ما الذي حدث في «حدث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢-	المغامر والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣-	تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوي
٥٣٨-	النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلر	محمد الحديدي
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق علي منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودي وآن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلي وليتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدي الجابري
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دي ثربانتس	علي عبد الروف البمبي
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفي السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين	أناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحي أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٤-	عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	علي السيد علي
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولي في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٥٦٩-	موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكى	جون ماهر وجودى جروننز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	أرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التي وقعت في بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- التوبة المعبر الحضارى	وليم ى. أدمز	فؤاد عكود
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣- نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤- أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥- الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧- حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢١٣٢٣ / ٢٠٠٣